أوراق ومذكرات

فخري البارودي

١٨٨٧ - ١٩٦٦



خمسون عاماً من حياة الوطن

القسم الأول



إعداد وتحقيق: دعد الحكيم

مديرة مركز الوثائق التاريخية

الإشراف الفني زهير الحمو

أوراق ومذكرات

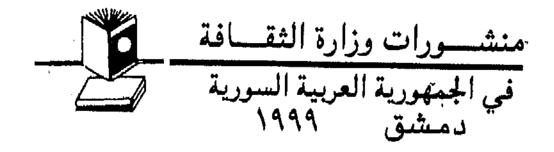
فخري البارودي

١٨٨٧ - ١٩٦٦

خمسون عاماً من حياة الوطن

القسم الأول

إعداد وتحقيق : دعد الحكيم
مديرة مركز الوثائق التاريخية



منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٩

أوراق ومـــذكـــرات فـــخـــري البـــارودي ١٨٨٧ - ١٩٦٦ :
خمسون عاماً من حياة الوطن/ اعداد وتحقيق دعد الحكيم . -
دمشق : وزارة الثقافة، ١٩٩٩ . - ٢ج : صور؛ ٢٤سم .

١- ٢ر٩٢٣ : البـــارودي ، فـخـري ب ٢- العنـــوان
٣- البارودي ٤- الحكيم مكتبـة الأسـد

الايداع القانوني : ع - ١٦٥٩ / ٩ / ١٩٩٩

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

كان فخري البارودي مالئ الدنيا، وشاغل الناس طوال خمسين عاماً من حياته التي كانت في حقيقة الأمر، حياة وطنه العربي الكبير من المحيط إلى الخليج بكل آلامه وآماله وطموحاته.

لقد قدر له أن يمضي عمره وهو يقترح وينصح ويخطط ويحذّر وينظم ويراسل ويخطب ويسجن وينفى، حتى أصبح بحق البطل الشعبي المحبوب على امتداد الأرض العربية. كان فيلسوفاً وزعيماً وشاعراً وكاتباً وموسيقياً ومنظراً سياسياً ومصلحاً اجتماعياً، وكانت داره في حي القنوات بدمشق، مثل كرمة ابن هانئ في القاهرة، مجمع الساسة والأدباء والشعراء والظرفاء والضيوف وأصحاب الحاجات، كانت بمثابة دار الندوة، تهوي إليها أفئدة العرب في الأيام العصيبة التي عصفت بهم، فكانوا يجدون فيها الأمن والأمان والابتسامة الدائمة والكرم العربي الأصيل.

وكان يحذّر من أخطار الصهيونية والاستسلام للعدو أو الوثوق به وبوعوده، ويدعو العرب إلى حمل السلاح والاستعداد للقتال في كل

وقت، ويدعو إلى الوحدة والتضامن والإخاء والانضباط ونبذ الخلافات والأنانية والعنصرية والاستهتار والفوضى والطائفية والعصبية.

ولكن صرخاته، لم تجد لها آذاناً مصغية، وكانت كارثة فلسطين وما تلاها وانصراف رفاق الأمس عنه وتجاهل كل آرائه وأفكاره، كان ذلك كله أكبر من أن يحتمله، فانزوى في داره يقاوم فعل الناس وفعل السنين حتى طواه الموت تحت جناحه وهو وحيد بائس حزين، وطوى معه داره وذكرياتها ومعالمها.

واليوم، لا يكاد يعرفه في دمشق ربع من كانوا يعرفونه يوم وفاته، وخوفاً من أن تسدل الأيام ستائر النسيان عليه، كما فعلت بغيره، فقد رأيت أن أنشر أوراقه ومذكراته[1] المحفوظة في مركز الوثائق التاريخية بدمشق والتي تشمل سبعة مجلدات من الرقم ٧٩ إلى الرقم ٨٦ من القسم الخاص.

وقد تصفحت هذه المجلدات فوجدتها تحوي كميات هائلة من الأوراق المتناثرة التي لا رابط بينها، فهي تشمل رسائل وقرارات ومذكرات وإيصالات بعضها كامل ومعظمها ناقص، وقد كتبت بخطوط مختلفة واعتراها الحذف والشطب والإضافة، بل إن فيها رسائل ليست للبارودي أصلاً. وانما هي موجهة له من أصدقائه الكثيرين، وفيها الكثير من الغث والقليل من السمين، فعمدت إلى هذه الأوراق

(١)- من الغريب أن صديقه الحميم خير الدين الزركلي لم يذكره بحرف واحد في كتابه الأعلام وكأنه كان يعجل بنسيانه.

وراجعتها واحدة واحدة وانتقيت منها ما يصلح للنشر، وجمعتها إلى مذكراته المطبوعة فنقحتها وجعلت لكل وثيقة عنواناً، وأزلت الاستطراد والانقطاع والتكرار وأدرجتها بحسب التسلسل الزمني وعرّفت بالهامش بأهم الأحداث والرجال التي وردت. وزودت هذه الأوراق بمجموعة من الصور التاريخية للرجال الذين ذكرهم البارودي، ولفرق القمصان الحديدية التي شكلها، ولاحتفالات شعبنا الأولى بعيد الجلاء، وعسى أن أكون بهذا العمل المتواضع قد وفيت هذا الرجل العظيم بعض ما قدمه لوطنه وأمته، وعرفت هذا الجيل والأجيال القادمة بواحد من الأبطال الذين خطوا بدمائهم وعرقهم تاريخ أمتهم.

ولا يسعني إلا تقديم الشكر الجزيل إلى السيدة الدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة، التي شجعتني على هذا العمل القومي وساعدت على ظهوره إلى حيز الوجود.

كما ويسعدني أيضاً توجيه الشكر للأستاذ أكرم حسن العلبي الذي ساعدني في مراجعة الوثائق والتعليق عليها.

وفوق كل ذي علم عليم.

دمشق في ١٠ حزيران ١٩٩٨

دعد الحكيم

البارودي في سطور

- هو محمد فخري بن محمود البارودي

- ولد في دمـــــشق يوم الرابع من رجب سنة ١٣٠٤هـ/٣٠آذار سنة ١٨٨٧م، كما ذكر في مذكراته[١].

- تلقى علومه الابتدائية في الكتاتيب والمدارس الخاصة وتخرَّج من المدرسة العازارية.

- التحق بثانوية «مكتب عنبر سنة ١٩٠٢» وتخرَّج منه سنة ١٩٠٨م.

- حارب مع العثمانيين في الحرب العالمية الأولى برتبة ملازم.

- أسر في الحرب، وسجن في سجن قصر النيل بالقاهرة، وأطلق سراحه سنة ١٩١٧م.

- التحق بجيش الأمير فيصل وصار مرافقاً له برتبة ملازم أول.

- حارب الفرنسيين بلسانه وقلمه وسلاحه، فاعتقلوه عدَّة مرات.

- كان سجنه سنة ١٩٣٦م سبباً في إضراب الستّين يوماً في دمشق.

---

(١) في المصادر التي تحدثت عنه روايات متباينة عن ولادته، ذُكر فيها أنه ولد سنة ١٨٨٤م و١٨٨٦ و١٨٨٨ و١٨٨٩، وهذه حال المشاهير.

- انتسب إلى حزب الكتلة الوطنية التي تزعّمها بعد إبراهيم هنانو كلّ من سعد الله الجابري وهاشم الأتاسي وجميل مردم بك وشكري القوتلي.

- انتخب نائباً عن دمشق على مدى عشرين عاماً بدءاً من سنة١٩٢٨م.

- اعتزل العمل السياسي سنة١٩٤٨ واكتفى بالعمل الشعبي.

- تزوج سنة١٩٢١، وتوفيت زوجته سنة١٩٥٤، ولم ينجب أولاداً.

والدته السيدة نظيرة كيلارأميني وله أختان هما:

- إيثار

- وسنية

- مرض في أوائل سنة١٩٦٦م، فنقل إلى مشفى المواساة حيث توفي يوم الاثنين الثاني من أيار سنة١٩٦٦م، ودفن في مقابر أسرته في الباب الصغير عن عمر يناهز الثمانين، رحمه الله تعالى.

وقد أوصى أن تكتب على قبره هذه الأبيات التي يراها الآن زائرة في قبر الأسرة بجوار «مخفر الشيخ حسن» من الجنوب تماماً

قفوا أيها الزوار قبري هنيهة	وقولوا سلاماً أيها الميت الحر
وطوفوا حيال القبر صحبي وفكروا	بموت أكيد ثم يتبعه حشر
تروا أن كأس الموت حق على الورى	وكل له يوم، وإن ألّف العمر

فخري البارودي[1]

(١) هذه المعلومات وعدد من الصور زودنا بها الأستاذ وليد الطباع ابن عمة المرحوم فخير البارودي.

مؤلفاته وأعماله

١ - ديوان شعر بعنوان: *تاريخ يتكلم*. دمشق ١٩٦٠، ١٩٣ صفحة

٢ - ديوان شعر بعنوان: *قلب يحترق*. دمشق ١٩٦٢، ١٤٢ صفحة

٣- *المذكرات*: صدرت في جزأين. ١٩٥١ و١٩٥٢، ٢٤٩ صفحة

٤- *مذكرة الشرطي*. دمشق ١٩٤٢، ٤٧ صفحة

٥- *كارثة فلسطين*. دمشق ١٩٥٠، ٦١ صفحة

٦ - *كتاب الطبيخ*، لمحمد حسان البغدادي. تحقيق. ١٩٦٤، ١١٢ صفحة

٧- *فصل الخطاب بين السفور والحجاب*. دمشق١٩٢٤، ١٦ صفحة

٨- *المعجم الموسيقي*. ويقع في تسعة مجلدات مكتوبة بالآلة الكاتبة، وتقع في نحو ثلاثة آلاف صفحة. وهو موجود في مكتبة الأسد تحت الرقم ١١٦٠٤ عام.

٩ - *المعجم الشامي*: محاولة لوضع معجم للكلمات العامية الشامية، موجود في مجمع اللغة العربية بدمشق.

١٠ - عشرات المقالات التاريخية والسياسية والعلمية والاجتماعية نشرت في جريدة صديقة محمد كرد علي (المقتبس)، كما نشرت في جريدة الأيام والعاصمة والقبس . . .

١١ - جريدة «حط بالخرج» أسسَّها في دمشق سنة ١٩٠٩هـ، وكان يكتب فيها تحت اسم مستعار .

١٢ - أوراقهُ المحفوظة في السجلاَّت الخاصَّة في مركز الوثائق التاريخية .

١٣ - وقد ألّفت السيدة «نهال بهجت صدقي» من بيروت كتاباً شاملاً عنه سنة ١٩٧٢م، وهو الكتاب الوحيد، فيما نعلم .

العناوين الرئيسة في المذكرات

١- رحلته إلى أوربا سنة ١٩١١م

٢- العرب والأتراك ١٩١١

٣- مسألة البلقان ١٩١١

٤- الامتيازات الأجنبيَّة ١٩١١

٥- عباية ١٩١١

٦- حمام العرس ١٩١٢

٧- مؤتمر باريس ١٩١٣

٨- معتقلو الفرنسيين ١٩٢٥

٩- تأبين عبد المحسن الكاظمي ١٩٣٥

١٠- الدعاية التركية ضد سورية ١٩٣٧

١١- المبارزة ١٩٣٧

١٢- رسالة إلى مكرم عبيد ١٩٣٧

١٣- رسائل إلى الكتلة الوطينة ١٩٣٧

١٤- الدعايات الشيوعية ١٩٣٧

١٥- المكتب القومي العربي ١٩٣٧

١٦- رسالة إلى حسني تللو ١٩٣٩ -١٩٤١

١٧- رسالة إلى ويغاند ١٩٤٠

١٨- رسالة إلى الانكليز ١٩٤٠

١٩- ملحمة ٢٩ أيار ١٩٤٥

٢٠- ملحمة قرية الضمير ٨حزيران ١٩٤٥

٢١- رسائله إلى :

- فوزي سلو

- أديب الشيشكلي

- اللواء محمد نجيب

- الرئيس جمال عبد الناصر

وموضوعات كثيرة أخرى

لطفي الحفار فوزي البكري سعد الله الجابري عادل العظمة فخري البارودي وقنصل العراق والدكتور أحمد قدري

بسم الله الرحمن الرحيم

طلب إليّ كثير من الإخوان أن أنشر مذكراتي . ولما لم تكن لدي مذكرات يومية مدونة ، فقد اعتذرت . ولما ألحوا ، عدت إلى ما دونته ، وإلى ذاكرتي أستمد منها الوحي .

ليس المهم في كتابة المذكرات سرد الحوادث التي تمر بالإنسان ، بل بيان أثرها في حياته . والواقع أن المذكرات التي تُعنى بالتوجيه الخفي هي التي تنال شأناً . فسرد حوادث البطولة هو توجيه خفي نحو البطولة . وذكر آلام الوطن وبيان ما مر به من محن ، هو توجيه غير مباشر لتقديس الوطن والدفاع عنه .

وأهم ما في المذكرات هو وصف حياة الكاتب وروحه وبيئته ، ليجد فيها القارئ صورة واضحة للكاتب وللمجتمع ، فيحسُّ وهو يقرؤها أنَّ الكاتب حي إلى جانبه ، يحدثه ويقص عليه أخباره فيكون شاهد عيان خالداً ، يساعد المؤرخ على إيضاح الحقائق .

ويجب أيضاً ألا تفقد المذكرات روح الحكاية ، وأن يحس القارئ أنه يقرأ فيها قصة حياة ، وحياة وطن في فترة معينة لا أن يشعر أنه أمام كتاب معلومات جاف . فالمعلومات تفقد رونقها إذا لم تكن مطبوعة بطابع الكاتب ، ممزوجة بعاطفته وخفقات قلبه .

على هذا أقدم إلى القراء هذه المذكرات ، كتبتها بكل صدق وأمانة ، وعملت بقول الحكيم القائل : «إذا اختصم أخي مع الحق فأنا مع الحق» .

فخري البارودي

القسم الأول
مذكَّراتُ البَارودي





طفولتي الأولى

ظاهِر العُمر الزَّيداني: جَدُّنا[1]

في صباح أحد أيّام الخريف من سنة ١١٨٩ هجرية/ ١٧٧٥ ميلادية، طرق شاب غريب باب دار آل الشويكي، في محلة «الشويكة» اليوم، وكانت في ذلك الزمن قرية في ضاحية دمشق القريبة. ففتح الباب، وخرج منه كهل استقبل الطارق ببشاشة.

كان الطارق فتى في ريعان الشباب، ثيابه رثة ملطخة. فحيّا صاحب الدار، وسأله: أهذه دار الشيخ عبد الحليم الشويكي؟

فأجابه: نعم هذه داره، فماذا تريد؟

قال: لي حديث طويل أريد أن أقصه عليك!

أدخله الرجل إلى الغرفة الأولى من الدار، المعدة للضيوف، ورحب به. وما أن استقر به المقام حتى طلب شيئاً يأكله، قائلاً إنه لم يذق طعاماً منذ يومين. فسارع صاحب الدار وجلب ما وجد من حواضر البيت، فأقبل الضيف يلتهم الطعام التهاماً لشدة جوعه.

حدّق صاحب البيت، سعيد بن عبد الحليم الشويكي، بالضيف الشاب،

---

(١) بداية الجزء الأول المطبوع سنة ١٩٥١م.

فتمثل فيه ملامح صديق قديم لجده عبد الغفار الشويكي، يدعى الشيخ ظاهر العمر[1].

فقد كان ظاهر العمر كهذا الشاب، أبيض البشرة، واسع العينين، صغير الفم، رقيق الشفتين، طويل الحاجبين، مدورَّ الأنف، طويل الذراعين، خفيف الشعر أسودَهُ.

وكان ظاهر العمر يتردد على بيت عبد الغفار قديماً. فلما توفي عبد الغفار، استدعى ظاهر نجله الشيخ عبد الحليم إلى عكا، فسافر إليها بين ١٧٣٢ و١٧٣٥. وكان عبد الحليم فقيهاً شاعراً، ففوض إليه ظاهر أمر الفتوى في عكا والبلاد الخاضعة لحكمه، واختاره مربياً لأولاده، يدرسهم الآداب والفقه.

ظل سعيد يتفرس في وجه ضيفه وهو يأكل، ويسائل نفسه، أيكون هذا الشاب من أنسباء ظاهر العمر؟ لقد سمع سعيد أخيراً أن الحرب وقعت بين ظاهر العمر والعثمانيين، وأن حاكم مصر «أبا الذهب» جرَّد جيشاً وزحف به على عكا، ففر ظاهر العمر أمامه. ترى هل فرَّ هذا الشاب، هو الآخر، من عكا، وجاء ينشد ملاذاً في دار الشويكي؟

لم يكن سعيد مخطئاً في حدسه، إذ ما انتهى الضيف من الأكل حتى قال: رأيتك تحدق بي كثيراً، فهل تريد أن تعرف من أنا؟

فأجاب سعيد: نعم... يخيل إليَّ أنك من آل الظاهر، أليس كذلك يا ضيف الخير؟

قال: أصبت، أنا محمد بن أحمد بن ظاهر العمر. وقد تركت قريبكم الشيخ

(١) ظاهر بن عمر بن أبي زيدان، وُلد في صفد سنة ١٦٩٥م، وخلف أباه عليها، ثم شمل نفوذه معظم فلسطين وشرقي الأردن، فأرسلت إليه الدولة العثمانية أسطولاً لمحاربته في عقر داره: عكّا، فعاجله أحد رجاله، وقتله غيلة سنة ١٧٧٥م.

عبد الحليم الشويكي[1] في بلاد بشارة، وأظنه التجأ إلى بيت علي الصغير وشيخ المقاولة».

فنهض سعيد وعانقه قائلاً: أنا ابن الشيخ عبد الحليم!

راح الضيف يسرد حكايته، فقال ما خلاصته: بعد احتلال عكا، هربت مع جدي الظاهر، وبقيت معه حتى مقتله على يد أحمد آغا الدنكزلي. وكان والدك الشيخ عبد الحليم معنا[2]، فتركته في بلاد بشارة، ولجأت هناك إلى بيت علي الصغير، وفي نيتي السفر إلى دمشق. وقد آووني وأطعموني، ثم دلّوني على الطريق إلى دمشق. ومنذ خمسة أيام وأنا أسعى من قرية إلى قرية، حتى وصلت صباح اليوم إلى هنا.

ولما لم يكن لنا في دمشق من أصدقاء غير آل الشويكي، فقد بحثت عنهم، فدلّوني على داركم، وأحمد الله أني حظيت بك. إني أريد الاختفاء في مكان لا تصل إليه يد الدولة، لأكون أميناً على حياتي حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً. فأشر عليّ بما أفعل.

فطمأنه سعيد وهدّأ من روعه قائلاً: أنت بعد اليوم منا، فلا بأس عليك. قم واسترح، وغداً نرى ما يكون!

في صباح اليوم التالي اصطحبه سعيد إلى الحمّام، واستبدل له بأسماله، ثياباً شامية. وبعد أيام أخذه إلى رئيس مصنع بارود (الأوجاق- أليكيجري) الانكشارية، وكان صديقاً له. فقدم إليه محمداً، زاعماً أنه نسيبه، وطلب له عملاً

(١) عبد الحليم بن عبد الله، علاّمة فاضل. تلقى العلوم في مصر، وأقام بعكّا، وله شعرٌ حسن، وكانت وفاته فيها سنة١١٨٥هـ/ سنة١٧٧١م سلك الدرر٢/ ٢٥٤. والشويكي، نسبة إلى الشويكة، قرية قرب طولكرم بفلسطين.

(٢) توفي الشيخ عبد الحليم الشويكي في عكا سنة١٧٧١م / سنة١١٨٥هـ، أي قبل وفاة ظاهر العمر بأربع سنوات. انظر ترجمته في سلك الدرر للمرادي ج٢/ صفحة ٢٥٤

في المصنع . فقبله الرئيس حالاً وسلّمه إلى «الأسطه» أي رئيس العَمَلَة ، ليعلّمه الصنعة ، ومنذ ذلك الحين ، تحوّل اسمه من محمد الظاهر إلى محمد البارودي .

وبعد زمن أتقن محمد الصنعة ، وأصبح رئيساً للمصنع ، وأحرز رتبة الآغوية . ولم يمض على دخوله دمشق بضع سنوات حتى تزوج ورزق عدة أولاد . وقد لاقى حتفه بحادثة انفجار في المصنع ، فقذفه الانفجار من محلة السنجقدار إلى أمام دائرة المشيرية في الساحة العسكرية (وهي قصر العدل اليوم) ، فتكسّرت أضلاعه ، ولم يسلم غير رأسه . وقد بقي حياً ثلاثة أيام ينازع الموت . وفي اليوم الثالث عاد ولده حسن من الحج ، فمات قرير العين برؤيته .

يتضح مما ذكرت ، أن جدي الأول ، محمد بن أحمد بن ظاهر العمر ، الذي تلقب بالبارودي ، دخل دمشق سنة ١٧٧٥م . وعلى هذا الأساس أكون أنا : فخري ابن محمود بن محمد حسن بن محمد بن حسن بن محمد الظاهر (الملقب بالبارودي) بن أحمد بن ظاهر العمر .

أما نسبي من جهة والدتي ، فأنا فخري بن نظيرة ابنة أمين بن سليمان العَلَمي ، المعروف بالكيلار أميني[1] ، وأصله من القدس .

ولم أذكر نسبي هذا على سبيل التفاخر ، بل لتسجيل الواقع ، ورحم الله الشاعر القائل :

قالوا : ابنُ مَنْ أنتَ يا هذا؟ فقلتُ لهمْ إني امرؤٌ جدّهُ الأعلى أبو البشرِ
قالوا : وهل نال مجداً؟ قلتُ : واعجبي أتسألوني مجداً ليسَ من ثمري

ولدتُ في الساعة الرابعة من صباح يوم الخميس ، الواقع في ٥ رجب سنة ١٣٠٤هـ[2] ، في دارنا في حي القنوات بدمشق .

وكان جدي محمد حسن البارودي قد سافر يومئذ إلى بيروت في طريقه إلى

(١) أمين المخازن .
(٢) يوافق ٣٠ آذار ١٨٨٧م

الآستانة، ونزل فيها ضيفاً على صديقه فخري بك، والد الداماد أحمد نامي[1]، فأبرق كاتب دائرتنا يوسف أفندي الكاتب إلى جدي يبشره بولادتي. فأجابه جدي مباركاً، تاركاً لوالدي الخيار في أن يسميني إما «محمد فخر الدين» أو «واصل». فاختار والدي الاسم الأول. ومع الزمن حذف الناس منه اسم محمد، ثم ما لبثوا أن لقبوني بـ«فخري» وحذفوا «الدين». وهكذا استقر اسمي نهائياً على «فخري» وحده، وما زال كذلك إلى اليوم.

أولاد الذوات

نشأت في محيط «ارستقراطي» بالنسبة لذلك الزمن. كان آل البكري أخوال والدي، وأبناء العظم أبناء عمة والدتي، وآل العلمي أولاد عمها، وآل العابد والركابي وشيخ الأرض والشيخ فضلي والحسيبي وغيرهم من أصهارنا. ونظراً لكثرة التزاوج بين الأسر الدمشقية، كانت أسر كثيرة تمتُّ إلينا بالنسب.

ولما كنت وحيداً لوالدي، ولم يكن في هذا الفرع من آل البارودي ولد ذكر سواي، فقد ربيت بالدلع والدلال، على أيادي الأهل وأكتاف الحشم. ولولا لطف الله، وانتسابي في شبابي لحلقة الناهضين من تلامذة الشيخ ظاهر الجزائري[2] رئيس الأحرار في القرن التاسع عشر، لكنت اليوم في عداد الموتى الأحياء.

كان ذلك المحيط محيط نفاق وجهل. وكل من أراد التقرب من الأغنياء لقضاء حاجة -حتى ولو كان منتسباً إلى الإمام علي كرَّم الله وجهه، أو إلى أحد الصحابة الكرام رضي الله عنهم- يغدق عليهم المديح والثناء جزافاً، فيصدقونه، وتنتفخ رؤوسهم بغرور دائم. ولا أبالغ إذا قلت إن أكثرهم كانوا ينظرون إلى الناس نظرتهم إلى العبيد والخدم.

ومازلت أذكر كيف كان هذا التأليه ينعكس في أحاديث الناس، فقد كنا

(١) كان صهراً للسلطان عبد الحميد، وهو شركسيّ، فرضته فرنسة في نيسان سنة ١٩٢٦ رئيساً للدولة السورية، ثم أقالته بعد عامين، وحاول الحصول على عرش سورية، لكنّ الشعب رفضه فانزوى في بيروت حتى وفاته. وهو رئيس المحافل الماسونية في سورية ولبنان.

(٢) ظاهر بن عبد الله الجزائري، علامة الشام ومؤسس المكتبة الظاهرية بدمشق. له مؤلفات عديدة. توفي في دمشق سنة ١٩٢٠م عن ٦٨ عاماً.

نسمع الخدم والمزارعين والباعة يذكرون أمامنا آباءنا وأجدادنا بهذه اللهجة: رحم الله جدك، ما كان أبهى طلعته، وما أكرمه، وما أعظم جاهه. كان عندما يمرُّ في المحلة، ينهض الناس إجلالاً له، ويفتحون له الطريق... إلخ.

وهكذا كانوا يحسبون سلام الباشا أو البك نعمة من الله. وفي وسط هذا المحيط نشأت. وإني أحمد الله أنه يسَّر لجدي إحضار مربٍّ لي، خلّصني من أيدي الخدم الجهلاء. ذلك أن السلطان عبد الحميد لما تولى الملك بعد خلع السلطان مراد[1]، طرد حاشية السلطان المخلوع، فتفرق أفرادها في أنحاء المملكة ينشدون عملاً. وجاء بعضهم إلى دمشق، فاستخدم جدي منهم مصطفى آغا رئيس طباخي السراي (أشجي باشي)، والخصي خير الدين آغا (حرم آغاسي).

وقد اختار خير الدين مربّياً لي، فكان لا يفارقني لحظة، ويسهر على تربيتي، ويمنع الأهل والأصدقاء من مداعبتي بكلمات نابية.

وكان ذوات تلك الأيام، ومعظمهم من أصحاب المزارع الأغنياء، يكثرون من اقتناء الخدم. فلكل ذات في داره «وكيل خرج» يشرف على مصروف الدار، وكاتب للمحاسبة، وقهوجي، وحوذي، وندل (سفرجي)، وسائس. وكانت بيوت «الأكابر» تعج بالخدم من سود وبيض، خاصةً بالمماليك المنتمين إلى الشركس والكرج. وكانوا يقتنون أيضاً الجواري على اختلاف ألوانهنّ، ويستولدون الإماء. ومنهم من كان يعترف بولده، ومنهم من يحرمه إكراماً لزوجاته وأولاده.

وكان جميع الخدم تقريباً أُميّين جهلة، خصوصاً أن الذوات كانوا يبحثون عن أرخص الخدم أجراً، ليوفروا بعض دريهمات في الشهر. على أن بعضهم كانوا يحسنون معاملة الخدم، فيستبقونهم في بيوتهم حيث يتزوجون ويصبحون كأفراد العائلة.

---

(١) كان ذلك سنة ١٨٧٦م.

ومما يؤسف له أن تربية الأولاد كانت في أيدي الخدم الجهلة، وما تزال كذلك إلى اليوم. وإنه لمن المؤلم أن حكوماتنا العربية لم تعرْ هذا الموضوع الأهمية المناسبة حتى الآن، فلم تفتح مدارس لإعداد مربيات الأطفال والخدم.

الخجا نفوس[1]

كان في دمشق نساء يعلّمن القرآن الكريم دون سواه، فأرسلتني والدتي إلى دار إحداهن «الخجا نفّوس»، في محلة التعديل في القنوات.

كانت دارها صغيرة، فيها غرفة متّسعة، يجلس فيها الأولاد. منهم من يأتي بطراحة، ومنهم من يأتي بجلد شاة. ولا يزيد عمر أكبرهم عن السابعة. يجلسون من الصباح إلى المساء في هذه الغرفة الرطبة. وإذا تكلم أحدهم أو لعب أكل «الفلقة». وكانت الخجا نفوس كسيحة، لديها عُصي كثيرة مختلفة الطول لضرب الأطفال، فلا يفوتها طفل قريب أو بعيد.

وكانت كبيرات البنات يقمن بخدمة الدار من كنس وشطف وجلي. أما الصبيان فمنهم من يشتري حوائج الخجا، ومنهم من ترسله لجلب «الزوّادات» من دور أولاد الأغنياء. أما أنا فنظراً لرشاقتي وخفتي ونباهتي -على رأيها- فقد سلمتني معالجة بعض مشاكل الأولاد.

وكان من تلامذة الخجا المرحوم منير الدالاتي (أبو عصام). وكان لا يحسن إخراج الحروف صحيحة لصغره، فأقرأتْه الخجا يوماً حرف الذال، فلفظه كالزاي، ولما كررت له الحرف ولم يضبطه، غضبت وأحضرت خيطاً رفيعاً من «المصيص»

---

(١) وصف البارودي طفولته شعراً، كما وصف الخجا نفوس فقال:

أمّا الخجا فكبيرة وكسيحةٌ ... و(كهينة) شرٌّ من الآفاتِ
وجهٌ قبيحٌ ما رأيتُ نظيره ... بين العجائزِ في جميع حياتي
ودرستُ عاماً عندها بتمامه ... حتَّى ختمتُ، وكرّرتْ ختماتي
لكنْ أُقِرُّ بفضلها وبأنني ... أصبحت أقرأ أصعب الآياتِ

تاريخ يتكلم صفحة٤٣

وعقدت به لسانه عقاباً له. ولم يمض عشر دقائق حتى ضبَّ اللسان على الخيط وتورَّم، وازرقَّ وجه الطفل. ولما رأت أخته «أفاكت» ذلك ركضت عائدة إلى بيتها، فرأت والدها المرحوم أحمد الدالاتي أمام الباب فأخبرته بما جرى، فأسرع مع جاره على الساطي الطبيب الشهير، إلى دار الخجا.

وحاول الساطي قطع الخيط، فلم يتمكن من إدخال مقصبه الرفيع، لأن اللسان كان قد غطى الخيط. وكانت حالة الطفل تزداد سوءاً، وقد جحظت عيناه وكادت روحه تزهق، لولا أن الله وفَّق، وتمكن الساطي من إدخال ميل رفيع بين اللحم والخيط، فرفع طرفاً من الخيط وقطعه بالمقص، فنجا الطفل.

وعلى الأثر شتم الوالد الخجا شتماً قبيحاً، وأنَّبها تأنيباً عنيفاً، وأخذ ولديه وذهب بهما. ولم يعودا بعد ذلك إلى الخجا.

وكنتُ أمازح منيراً بعد أن كبر، ودخلنا المدرسة الإعدادية، وكان طويل اللسان، فأقول له: «ليت الخجا قطعت لسانك يا مفزور»، فيغرق في الضحك!

الختمة

من المعلوم أن أولاد المسلمين كانوا يحتفلون بإكمال قراءة القرآن الكريم في الكتّاب أو الخجا بختمه. وكان للختمة احتفال خاص. وهكذا أقاموا لي مهرجاناً يوم ختمت القرآن، فخرج الطلاب جميعاً من دار الخجا نفّوس إلى دارنا في موكب مشى فيه الطلاب بصفٍّ مزدوج، ينشدون الأناشيد المدرسية، وكان عمري ست سنوات آنذاك. ومن الأناشيد التي أنشدوها:

سـلامْ سـلامْ ... سـلامْ سـلامْ
سـلامْ عليكمْ ... كثير السلامْ

ومنها:

بلبلُ الإقبال غـرَّدْ ... وبشيرُ السعد قالْ:
ظهر الهادي محمدْ ... شمسُ أفلاكِ الكَمالْ

ولما وصل الموكب إلى دارنا وقف والدي وجدي لأمي، وجمع غفير من أخوال والدي ووالدتي مع بعض أصدقاء والدي في باحة دارنا «البراني» الخارجية الخاصة بالرجال، وتناول أحدهم المقرا -ويسمّونه كرسي المصحف- من على رأس حامله، فوضعه على حافة حوض الماء (البحرة)، والمصحف فوق الكرسي، ووقفت أمامه وأنا مرتد ثياباً مزركشة بالفضة صنعت خصيصاً ليوم الختمة، وعلى رأسي طربوش زيّنوه بالماس واللؤلؤ. ثم رفع الطربوش وكيل خرج دائرتنا أمين آغا أبو كامل، وأبدل به طربوشاً جديداً بدون حُلي، وبدأت قراءة الفاتحة، ثم قرأت من أول سورة البقرة، حتى وصلت إلى الآية الكريمة: ﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك وأما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون. أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون. إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون. ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة، ولهم عذاب عظيم﴾.

ولما وصلت إلى هنا، خطف أكبر الأولاد طربوشي وركض به إلى والدي وأعطاه إياه مباركاً له بالختمة. فأعطاه والدي ديناراً ذهبياً «حلواناً» له مع الطربوش، وفرق على كل من الأولاد ريالاً مجيدياً.

الختان

ما تزال حفلات الختان التي تقام اليوم في أحياء دمشق النائية، كما كانت قبل خمسين سنة: يقام الاحتفال في دار صاحب الختان، ويحضره تلامذة الخجا أو الكتّاب الذي يتعلم فيه المختون، كما يجري في مهرجان الختمة.

وبمناسبة ختاني، أقاموا لي مهرجاناً فخماً، وزيَّن أهلي رأسي بالماس والجواهر، وأركبوني حصاناً سارت أمامه صفوف الطلاب بالأناشيد السابقة (سلام سلام   سلام سلام)، فطاف الموكب سوق الحميدية وسوق الطويل، ثم عدنا إلى دارنا.

وبعد أن أكل المدعوون ورفقائي وتلامذة الخجا الحلويات، أدخلوني إلى غرفة خاصة، فأمسكني رجل قوي العضلات، بينما أجرى لي الجراح علي الساطي

عملية الختان. وكانت العادة أن يجريها المزين (الحلاّق) لا الطبيب. وما زلت أذكر أن جرحي لم يشف بسهولة، فتعذبت ثلاثة أشهر. وقد وعدَتْ والدتي أن تقيم لي «سيراناً» كبيراً عند شفائي وبرَّت بوعدها.

الكتّاب[1]

الكتّاب هو شبه مدرسة أهلية، يتعلم فيها الصغار مبادئ القراءة والكتابة والحساب عند شيخ يتناول أجره أسبوعياً. وكانت الأجرة تسمى «خميسية» لأنَّ الأولاد كانوا يأتون بالمرتّب يوم الخميس، وكان يتراوح بين القرش والبشلك[2] في الأسبوع. وكثيراً ما كان الوالد ينقل الولد من كتاب إلى كتاب، ليقتصد نصف قرش. وكان الأغنياء يعطون المعلم زيادة عن الخميسية رغيفاً من الخبز.

والكتاب عبارة عن غرفة رطبة يجلس الأولاد فيها على الأرض فوق الحصير، وأمام كل طفل صندوق صغير يضع فيه «صبَّرته[3]» وأدواته. وكان أكثر الشيوخ من أشباه المتعلمين، ممّن أغلقت في وجوههم أبواب الرزق، فتسلَّطوا على هذه الصنعة للارتزاق.

والواقع أن الكتاتيب كانت زرائب لحبس الأطفال في النهار، حتى ترتاح أمهاتهم منهم. وكان الشيخ يستخدم الأطفال كما يريد، فمنهم من يكنس، ومنهم من يشطف، ومنهم من يقوم بخدمة ساقي الشاي للشيخ وضيوفه.

وبعد الختمة والختان، أرسلني أهلي إلى كتّاب «الشابكلية[4]» في محلة القنوات. وقد وقع الاختيار عليه لأنه قريب من دارنا، فلا يبعد عنهاأكثر من ستين متراً.

---

(١) وقال في وصف الكتاب:

ونُقلتُ للكتّابِ وهو زريبةٌ أيضاً شبيه زرائب (الجحوات)

(٢) البشلك يساوي ثلاثة غروش وسبع بارات ونصف، والقرش يساوي أربعين بارة، كما ذكر البارودي في رحلة العودة من أوربا، التالية.

(٣) الصبَّرة: اسم الرسالة التي كان يقرأ فيها التلميذُ مبادئ القراءة.

(٤) كلمة محرفة عن الشاذبكيّة نسبة إلى مدرسة شاذي بك الموجُودة إلى اليوم.

كان الكتّاب عبارة عن غرفة عفنة، أشبه بالسجن منه بالمدرسة، وكان شيخه الشيخ عثمان المصري طاعناً في السن، يتجاوز عمره الثمانين. وكنت أجلس إلى جانب النافذة، أتطلع منها إلى الخارج، ولا أفهم كلمة مما أسمع.

هكذا لم أتعلم عند الشيخ عثمان كلمة واحدة تزيد عما قرأته عند الخجا نفّوس. فنقلني والدي إلى كتّاب «القبة»، عند مدخل الدرويشية في القنوات. وكان شيخه فظاً قاسياً، ومع ذلك تعلمت عنده شيئاً من مبادئ الكتابة والحساب.

وبعد بضعة أشهر استعار والي سورية ناظم باشا[1] دارنا في القنوات، وتعهّد بأن يُسلّمنا إياها بعد بضعة أشهر ريثما يجد داراً مناسبة له. وعلى الأثر انتقلت عائلتي إلى بلدة دوما، حيث تملك داراً واسعة. وبدلاً من أن يعيد إلينا الوالي دارنا في دمشق بعد بضعة أشهر، ظل فيها سبع سنوات.

أما أنا فقد نقلني والدي مع العائلة من كتّاب دمشق، إلى كتّاب الشيخ عرابي في دوما، وهو واقع في داخل جامع «أبي الرهج». وكان الشيخ عرابي شرساً، لا يعرف وجهُه الضحك، وكانت غرفة الكتاب لا ترى الشمس أبداً، فساءت حالتي الصحية من التردد عليه، وعندئذ نقلني والدي إلى كتّاب الشيخ أحمد مجيد في جامع الريّس، في الحارة الشرقية. وكان هذا الشيخ حسن الخط والخلق، فعلّمني في مدة قصيرة الحساب والقراءة والخط، ثم أدخلني في طريقته، وهي الطريقة الرشيدية. وكان هو شيخ هذه الطريقة في دوما. وهي إحدى الطرق الصوفية.

وبقيتُ في هذا الكتّاب إلى أن تركنا دوما وعدت مع أسرتي إلى دمشق، حيث استأجر والدي داراً في السنجقدار لأن الوالي لم يشأ أن يترك دارنا في دمشق. وعندئذ دخلت المدرسة العازرية، مما سيرد تفصيله.

---

(١) حُسين ناظم باشا، أشهر ولاة دمشق في العصر العثماني، بنى حيّ المهاجرين وأدخل مياه الفيجة إلى دمشق، كما أدخل التيار الكهربائي وحافلات الترام، وبنى مشفى دمشق الوطني (الغرباء) وساهم في مدّ الخط الحديدي الحجازي وغير ذلك، ومات في أواخر العشرينات غريباً وحيداً معدماً...

أنا والشيخ الدّندراوي

عندما كنت في دوما، وقعت لي حادثة لا بأس من سردها، لتصوير جانب من حياة ذلك المحيط. ففي ذلك الحين (السنة ١٣١٣هجرية) قدم من مصر إلى دمشق الشيخ محمد الدندراوي، شيخ مشايخ الطريقة الرشيدية[١]. ثم جاء إلى دوما لزيارتها، وحلّ في بيت آل الريِّس، حيث أقيم له استقبال عظيم. ومازلت أذكر كيف أنه مدّ رجله أمام جميع الناس، ولم ينهض لأحد من زائريه، حتى ولا للقائمقام.

وفي المساء، بعد الطعام، أقيمت حفلة «ذكر»، ثم راح الناس يُقبّلون يده، ويمرّون بها على وجُوههم ورؤوسهم. ولما وصلني الدور، قبّلت يده. وكنت يومئذ في السابعة[٢] من عمري، فقدمني إليه الشيخ أحمد مجيد، وعرفني بأنني «النجل الوحيد للحسيب النسيب، الوجيه النبيه» إلى آخر المعزوفة المعروفة. فدعا لي الشيخ بالتوفيق والفتح.

وهنا عصفت بي النخوة، فدعوت الشيخ إلى «سيران» غداً في «المزرعة»، وهي دوحة غنية بالمياه والأشجار، فقبل دعوتي وهو يقول: بارك الله! بارك الله!

بعد انتهاء الحفلة نصف الليل، عدت إلى البيت فأيقظتُ والدتي، وطلبت إليها أن تعطيني المطمورة التي أَجمعُ فيها خرجيّتي، حتى أشتري ثلاث أواق لحماً، نعمل بها «صفيحة» للشيخ الدندراوي في المزرعة!

وما إن سمعت والدتي الخبر وأدركت أنني دعوتُ فعلاً الشيخ الكبير إلى «سيران» حتى طار صوابها، فأيقظتْ والدي وأبلغتْه الحكاية، فما كان منه إلا أن ارتدى ملابسه، واستدعى الخدم، وأوفد الرسل إلى أملاكه في قرى الجرباء

---

(١) الطريقة الرشيدية، هي فرع من الشاذلية المغربية المعروفة باليوسفية، انفصلت عنها في القرن الماضي، ولها اليوم أتباع ومريدون في غوطة دمشق.

(٢) الصحيح: التاسعة لأنه سبق له أن ذكر أنه ولد سنة ١٣٠٤هـ.

والريحان والعبارة لاستقدام الذبائح، كما أرسل آخرين إلى المزرعة لإعداد المكان للسيران. وعند الصباح توافدت علينا الخيول والبغال والحمير لتنقل الضيوف. وأرسل والدي عربته الخاصة لنقل الشيخ الدندراوي، فكانت حفلة عامرة بكل معنى الكلمة.

عدنا في المساء إلى البيت منهوكي القوى، وأنا أفكر في الدعوة التي كنت أظن -على صغر سني- أنَّ ثلاث أواق من اللحمة تكفي لها. وفي الصباح التالي استدعاني والدي، فأدركت ما ينتظرني، فهربت إلى الحوش واختبأت في زريبة البقر، ورفضت الذهاب إليه. وعندئذ جاء بنفسه يناديني من خارج «البايكة»، فلم أجد بداً من الخروج، ووقفت أمامه مطرقاً، وإذا به يقول: إيه، هل انبسطت أمس يا حبيبي؟

فلم أجبه، فقال: لا تخف، تقدم!

وتقدمت منه، وإذا به يصفعني صفعة على وجهي، كادت تخلع رأسي، ففررتُ من أمامه وهو يقول: سوّد الله وجهك... كنت تريد أن تسوّد وجهي بدعوتك... خذ هذا الدرس عبرة لك في المستقبل!

هذه الصفعة كانت أقوى صفعة «أكلتها» من والدي في حياتي، وكانت سبب انصرافي عن الطريقة الرشيدية، بل عن جميع الطرق. وبعد مدة قليلة عادت أسرتنا من دوما إلى دمشق، وانطوت بذلك تلك الصفحة في حياتي.

في المدرسة العازرية

بعد عودتنا من دوما إلى دمشق، أرسلني والدي إلى المدرسة العازرية[1]، تلميذاً داخلياً، لكي أتعلم اللغة الفرنسيَّة، وذلك سنة ١٨٩٧ -١٨٩٨، وقد شعرت حالاً بالفرق الكبير بينها وبين الكتاتيب التي تعاقبتُ عليها، فهذا معهدٌ

(١) من أقدم المدارس التبشيرية في دمشق، أُسِّست سنة ١٧٧٥م، وكان فيها في تلك الفترة ثمانية معلمين و١٦٠ تلميذاً، وقامت إلى جانبها مدرسة البنات التي كانت تضم (٥٠٠) تلميذة. الإدارة العثمانية في سورية -عبد العزيز عوض، صفحة ٢٦٥

علمي بكل معنى الكلمة، لازرائب للأطفال. والحمدُلله على أن وزارات المعارف حاربت تلك الكتاتيب، وقيَّدت فتح المدارس الأهلية بشروط علمية وصحية.

ولا أذكر سوى اليسير عن أيامي في تلك المدرسة، ومن ذلك حادث وقع مع ابن خال والدي فوزي البكري. كان فوزي في الصف الرابع، وأنا في الصف الأوَّل. وفي يوم عطلة في الصيف، ذهبنا معاً إلى القابون، حيث زرنا والده عطا باشا البكري. ولما سألني الباشا عن حالة المدرسة قلت له، إنها حسنة، لولا أن عدد «المشمشات» التي يقدمونها إلينا بعد الطعام قليل جداً.

وفي اليوم التالي أوصلنا الباشا إلى المدرسة، وقابل رئيسها وقال له: إن الأولاد يشكون من قلة الفواكه، فإذا كنتم لاتقدرون على إشباعهم فإننا نستطيع أن نرسل إليهم المشمش الكافي كل يوم!

فاستحيا الرئيس ووعد بإجراء اللازم. وكانت غرفة الطعام كبيرة، يأكل فيها الطلاب جميعاً بإشراف أحد الرهبان. وبينما كنا نتناول طعام الغداء، دخل علينا الرئيس ووراءه عدد من الأساتذة، وخلفه خادم يحمل طبقاً كبيراً مليئاً بالمشمش. فوقفنا جميعاً احتراماً له، وإذا بالرئيس ينادي بصوت عال: مسيو بكري... أين هو مسيو بكري؟

فأجاب فوزي: بريزان... (يعني حاضر).

فتناول الرئيس الطبق من الخادم، وقدمه إلى فوزي قائلاً بلهجة كلها سخرية: «تفضّل اشبع مشمش»!

وارتبك فوزي، وأجاب: أنا لم أطلب فواكه... ولكن الذي طلبها فخري البارودي!

وكنتُ أجلس في زاوية أخرى من القاعة مع صغار الأطفال، فتقدم نحوي الرئيس، وقال بلغة عربية محطمة: انتي ما في شبع مشمش!

فأجبته: نعم... ما في شبع!

فأعطاني الطبق، فتناولته بكل بساطة قائلاً: مرسي مون بير...

وهكذا وضعت الطبق أمامي، ورحتُ أفرق منه على رفاقي دون أي خجل، بعكس فوزي الذي لم يعد يجرؤ على النظر إلى الرئيس من شدة خجله!

على الرغم من «شيطنتي»، ومن أن «السينيال[1]» لم يفارقني يوماً واحداً أثناء وجودي في المدرسة، فقد تعلمت الفرنسية، وأصبحت أتكلمها بشيء من السهولة. ومايزال لديَّ دفتر من دفاتر تلك المدرسة، فيه تاريخ دخولي إليها، وخروجي منها، وقد كتبَتْ عليه الإدارة الملاحظة التالية عني «دائماً معاقب عقاباً خفيفاً».

أدّيت الفحص للانتقال إلى الصف الثاني في السنة الثانية (١٨٩٨-١٨٩٩)، ولٰكن والدي لم يلبث أن نقلني إلى مدرسة أخرى، ولا أدري السبب حتى الآن، ولكنني بقيت أتأسف على انتقالي، لأن ذلك صرفني عن إتقان اللغة الفرنسية، وقد احتجت إليها كثيراً عند دخولي معترك السياسة، خاصة في العهد الفرنسي.

المدرسة الريحانية

نقلني والدي من العازرية إلى المدرسة «الريحانية»، وهي مدرسة أهلية أسّسها الشيخ محمد المبارك جد الشيخ محمد المبارك النائب الحالي[2]، وخلفه فيها الشيخ عبد الجليل الدرَّة. وقد جمعت نخبة صالحة من أبناء دمشق.

كانت المدرسة تتألف من ثلاثة صفوف، ثم أسسوا فيها صفاً رابعاً سموه «صف مخصوُص» لكبار الطلاب، تعطى فيه الدروس الأدبية زيادة عن دروس الصف الثالث، ويستظهر طلبته قصائد شعرية، أذكر منها «لامية العجم» و«لامية

(١) «Signal» إشارة، كان يحملها التلاميذ الكسالى والمشاغبون.

(٢) يعود تاريخ تأسسها الأول إلى سنة ٥٧٥هـ، أي في عهد صلاح الدين، أوقفها الخواجا ريحان الطواشي، وكانت تقع لصيق المدرسة النورية من الغرب. في زقاق المحكمة، وقد هُدمت في الخمسينات، وقامت مكانها عمارات تجارية والصاغة الجديدة.

العرب»، وغير ذلك. وعلى الرغم من صغر سني أدخلوني إلى هذا الصف. وكانت الأجرة فيه ريالاً مجيدياً في الشهر[1].

كان أساتذة المدرسة يسمحون لطلاّب «الصف المخصوص» بحضور اجتماعاتهم الخاصة، وحلقات السمر التي يعقدونها، فتدور فيها المذاكرات الأدبية والأناشيد. ولما كان شرب الشاي نقطة الدائرة في هذه الاجتماعات، فقد كان أكثر الأناشيد عنه وأذكر منها:

يا مدير الشاي هيَّا	واسقنا كأس المحيَّا
إن تكن راضي عليَّا	. . . (نسيت الباقي) . .

ومنها أيضاً:

يا حُسْنَ شاي لاح في بلّورةٍ	يزهو كتبرٍ في لُجينٍ رائقِ
أدارَهُ الساقي على الندمان في	زينة معشوق ولون العاشق

وبين الطلبة الذين أجيز لهم حضور جلسات الأساتذة، السادة لطفي الحفار، عزت حبَّاب، خليل ملص، شكري العجلاني.

أما أنا، فرغماً عن كوني من تلامذة الصف، فإنهم لم يسمحوا لي بالحضور نظراً لصغر سني، وتعويضاً على ذلك «انتدبوني» مع ممدوح العابد لكي نهيِّئ لهم الشاي، على أن نبقى خارجاً. فكنا نغلي الماء في «السَّماور[2]»، ونُخمِّرُهُ في «البرَّاد» ونصبُّهُ في الكؤوس. وعندئذ ندق عليهم الباب، فيخرج إلينا الساقي صاحب النوبة في ذلك اليوم، ويستلمه منا مع العدّة.

وكانت العدّة مؤلفة من السماور والبراد وعلبة الشاي والسكر وأكياس الفحم وطاسة غسيل الكؤوس والملاعق الصغيرة، والكل موضوع في صندوق خاص ذي

---

(١) الليرة العثمانية الذهبية كانت تساوي ($5\frac{1}{4}$)ريال مجيدي.

(٢) جهاز لغلي الشاي وبقائه ساخناً بواسطة الفحم، ويوجد منه اليوم عند القلّة من أهل دمشق، وكان أوّل ما يأخذه معهم أهل دمشق إلى «السيران».

بيوت عديدة. وكان الصندوق رفيق الشيوخ والمعلمين في «السيران» يوم العطلة الأسبوعية.

وبفضل انتدابي لهذه «المهمة»، أتيح لي عن غير قصد أن أتعرف إلى محلة «زقاق المحكمة» التي تقوم فيها المدرسة الريحانية وأن أدخل بيوتها. ذلك أن الثقاب «الكبريت» كان مجهولاً في تلك الأيام. وكان الناس يحتفظون في بيوتهم بجمرة كبيرة الحجم، مطمُورة في «المنقل» فتبقى ٢٤ ساعة قبل أن تصبح رماداً، وكلّما احتاج أصحاب الدار إلى ولعة، اقتطعوا من الجمرة قبساً لإشعال النار.

وجرت العادة أن يقترض الجار من جاره قبساً أو قطعة من الجمر. فلما عيَّنوني مُحضِّراً للشاي، اضطررت أن أذهب في كل مرة إلى البيوت المجاورة، «لأشحذ» منها قبساً لإشعال «السماور». وهكذا طرقت مع الزمن أبواب جميع بيوت الحي، وتعرَّفت إلى أهلها. ومايزال ببالي أسماء بعض تلك الأسر، منها آل الصبَّان، وآل مراد، وآل الحديدي، وسواهم. وكثيراً ما كنت في ساعة العسرة أستعير الجمرات من أربعة أو خمسة بيوت في آن واحد، على سبيل الاحتياط، فإذا انطفأت «ولعة» تكون الأخرى جاهزة.

ومرَّ على طلاب «الصف المخصوص» زمن طغت فيه عليهم «موضة» التعمُّم بعمة بيضاء. ومن بين الذين تعمموا السادة لطفي الحفار، خليل ملص، ونسيب البكري. وأراد الأخير إقناعي بالتعمم، فلم يفلح. وقد ظل هو متعمماً مدة سنة ونصف. وقبل أن ينتقل من المدرسة الريحانية إلى المدرسة الإعدادية (أي مكتب عنبر) خلع العمامة، كما خلعها لطفي الحفار. أما خليل ملص فقد «ملص» منها بعد أن اعتمر بها بضعة أيام. وهكذا تبدَّدت موجة التعمُّم في تيار العصر الجديد.

المدرسة الياغوشية [1]

كان أبناء «الذوات» في ذلك الزمن يأنفون دخول المدارس الحكومية، وإذا دخلوها بالغوا في الصلف والتمرُّد. وما أقلَّ الذين نجحوا منهم فيها في تلك الأيام.

---

(١) اسمها الصحيح: السياغوشية، نسبة لواقفها الوزير الأعظم سياغوش باشا سنة ٩٩٥هـ. وهي اليوم مسجد معروف وجميل في منطقة الشاغور الجواني/ ياغوشية.

في ذلك الحين عيَّن والدي السيد علي السقا أميني، رئيس كتَّاب مديرية المعارف، ولياً لأمري. فأقنع والدي بنقلي من المدرسة الريحانية إلى «مكتب الياغوشية». وكان الأتراك يطلقون اسم مكتب على المدارس الحكومية. وكان في دمشق يومئذٍ ١٣ مدرسة حكومية للذكور، ومنها المدرسة الياغوشية المشار إليها، الواقعة بين محلة الخضيرية والشاغور، وفيها خمسة صفوف.

اختارت مديرية المعارف لإدارة هذه المدرسة، الشيخ أبا الخير المنيّر. ورغم عمَّته البيضاء وانتسابه إلى طبقة الشيوخ المعلّمين. فقد كان فتىً قوياً، وقد وقع الاختيار عليه لرجولته وشجاعته، لأنَّ المدرسة واقعة بين حيَّي الشاغور والميدان، اللَّذَيْنِ اشتهر سكانهما بالمرجلة و«القبضايات»[1].

وكان الحيّان في حالة حرب دائمة، تقع بينهما المعارك بصورة مستمرة. وإذا ذكر الشاغوري أو الميداني أمام أهل الأحياء الأخرى من دمشق، قالوا عنه: «دعنا منه، فإن هذا اصبعه ثخينة». ويقصدون بذلك أنه صعب المراس، قاسي القلب.

وكان من الطبيعي أن تمتد الخصومة بين الحيين إلى طلاب المدرسة، فعند خروجهم في المساء منها، كان الشجار يبدأ بين الطلاب الشاغورين والطلاب الميدانيين. ولو لم يكن مدير المدرسة الشيخ المنيِّر قوي الشكيمة صنديداً، يملأ قلوب الطلبة رهبة وخوفاً، لدار القتال كل يوم داخل المدرسة من الصباح إلى المساء!

ولم يكن الشجار مقصوراً على أبناء المدرسة الياغوشية فيما بينهم، بل كثيراً ما كنا نتشاجر مع أبناء الكتاتيب الأهلية، فيتدخَّل رجال الشرطة لتفريقنا. ولابدَّ من الملاحظة بأن أبناء المدرسة -على اختلاف أحيائهم وأحزابهم- كانوا يقضون صفاً واحداً في وجه الطلاب الغرباء وضد «زعران» الحارات. وكانت محافظ الجِلد التي نضعُ فيها الكتب ونحملها على ظهورنا، دروعنا الواقية في المعارك!

---

(١) مفردها: قبضاي، تركية بمعنى الخال القاسي.

«أسلحة» الطلبة

مادمنا نتحدث عن مشاجرات الطلاب، فلا بأس من ذكر الأسلحة التي كنا نستعملها في ذلك الحين، وهي النقّيرة، والمدَّاحة، والمقلاع، والنقّيفة، والشبرية، والبونيه.

النقّيرة: قطعة من غصن غليظ، مقطوع من شجرة «الدردار» أو اللوز، طولها من شبر إلى شبر ونصف، رأسها مبري حاد كرأس المسمار.

المدَّاحة: قطعة من قماش صوفي، بيضوية الشكل، موثوقة إلى حبلين من الجانبين، يلفها التلميذ حول خصره تحت زناره. وعندما يشتبك بشجار، يخرجها، ويضع فيها الحجارة، ويقذفها بها إلى مسافات بعيدة.

المقلاع، ويسمّيه بعضُهم «الصبَّان»، هو أكبر من المداحة، فإذا كان حجر المداحة بحجم اللوزة، فإن حجر المقلاع بحجم الجوزة الكبيرة، وقد يكون أحياناً بحجم الرمانة.

النقّيفة، ويقال لها «العقفات»، هي شعاب من أغصان الشجر، تشد إليها خيوط من المطاط، في وسطها جلدة توضع فيها الحصوة، فتقذفها بعيداً. وكنا نستعملها لصيد العصافير.

الشبرية: خنجر صغير. أما البونيه: فهي قطعة من حديد أو نحاس فيها أربعة ثقوب تدخل بالأصابع، ولها أنصال مسنة وهي خطرة جداً.

بعد وصف هذه «الأسلحة» لا ننسى ذكر الأمواس على اختلافها. ومنها ذات الكبَّاس، وكذلك العصي والقضبان والحجارة والطوب، وكل ما تقع عليه الأيدي في الأزقة، وفي ساحة «الكونة».

الكلاّوي ومعلم التركية

قلت إن مدير الياغوشية الشيخ المنيّر كان مرهوب الجانب لقوته وشجاعته، لذلك هابه الطلاب. ولكنهم ما كانوا ليترددوا في الاعتداء على المعلم الضعيف. وإنني أضرب مثلاً على ذلك الحادثة التالية:

كان في مدرسة «القمّاحين»[1] معلّم للُّغة التركية، وكان قاسياً على الطلبة، لا يغفر لهم أي ذنب، ويجازي كل قصُور بالضرب أو بالفلق.

وكان بين الطلاب تلميذ «مدلّل» عند أهله، يسمى محمد حسن راجحة، من سكان باب الجابية، له خال معدود بين كبار «القبضايات» يُلقَّب بالكلاَّوي يحب ابن اخته محمد حسن حباً زائداً، حتى سمَّاه باسم عائلته، وكنَّاهُ من صغره بأبي حسن.

هذا الغلامُ عصى مرَّة على معلم التركية، وأبى أن يحفظ الدرس فهدده المعلم بالفلق إذا داوم على التمرُّد، فخرج الغلام يبكي، وذهب يشكوه إلى خاله الكلاّوي. فما كان من هذا إلا أن أخرج من جيبه مسدساً من نوع «النيكل» وأعطاه إياه، وأمره أن يذهب ويُطلقَ الرصاص على المعلم!

وعاد الغلام بالفعل، ووجد المعلم في المكتب، فأخرج المسدس وأطلق عليه رصاصتين شردتا عنه، فسارع بعض الأولاد وحالوا بين محمد حسن وبين المعلم.

ومايزال هذا المعلم إلى اليوم قيد الحياة، وهو السيد محمود الصباغ مدير النبك الزراعي السابق. وقد رويت هذه الحادثة للتدليل على العقلية التي كانت تسود مدارسنا في نهاية القرن التاسع عشر.

وفي آخر العام المدرسي (سنة ١٣١٦ -١٣١٧) أنهينا دروسنا وأدَّينا الفحص أمام مميزين انتدبتهم مديرية المعارف من موظفي الدولة فنجحتُ بحمد الله، ونلتُ الشهادة الابتدائية من مدرسة الياغوشية بدرجة: «أعلى»، وبهذه الشهادة دخلت المدرسة الإعدادية المعروفة بمكتب عنبر.

---

(١) خارج باب الجابية في محلة قصر حجَّاج.

مكتبُ عنبر

نظام الدراسة

كان مكتب عنبر[1] المدرسة الملكية الإعدادية (أي التجهيزية) الوحيدة في دمشق يومئذٍ، يتراوح عدد طلابها دائماً بين الخمسمئة والخمسين والستمئة. وكان الطلاب النهاريون يتعلَّمون مجاناً، والداخليون يدفعون أجرة مقابل النوم والطعام. والمدرسة سبعة صفوف، ولها شهادتان، المتوسطة تعطى في انتهاء السنة الخامسة، والاعدادية تُعطى في انتهاء السنة السابعة، وتدرس فيها العلوم الآتية: القرآن الكريم، العلوم الدينية، العقائد، الفقه الشريف، منه كتاب الصلاة، وكتاب الصوم وكتاب الحج، وكتاب الزكاة وكتاب النكاح.

وكانوا يدرسون في كل صف كتاباً من هذه الكتب، ثم علم الأخلاق، والمنطق، واللغة العربية (منها الصرف، النحو، تَرجمة، تطبيقات)، واللغة التركية، وقواعد، الكتابة الرسمية (الرسائل الديوانية)، والأدبيات العثمانية، واللغة الفرنسية (قواعد، قراءة، إملاء)، واللغة الفارسية (قواعد، قراءة، أدبيات)، وكتاب الكلّستان، وعلم الثروة (الاقتصاد) وعلم أحوال السماء (قوزموغرافيا)، وجغرافيا عامة، وجغرافيا الولايات العثمانية، وتاريخ الدولة العثمانية والتاريخ العمومي وحفظ الصحة، وخلاصة القوانين وعلم الأشياء، وعلم الحساب: العملي والنظري، والجبر، والهندسة الخطية، المجسَّمة،

---

(١) نسبة إلى الخواجا يوسف عنبر، الثريّ اليهودي الذي عجز عن إتمام بنائه فصادرته الدولة العثمانية وجعلت منه أول مدرسة تجهيزية في دمشق. وكان ذلك سنة ١٣٠٥هـ/ سنة١٨٨٨م، وما يزال إلى اليوم أحد معالم دمشق التاريخية.

والسطحية، والرسمية، والمثلثات المستوية. وأصول الزراعة، والرسم، وحُسن الخط، والكيمياء، العضوية والمعدنية، والفيزياء، ويسمونها علم الحكمة أو الماكينا (ميكانيك)، وأصول مسك الدفاتر (دوبيا)، المواليد الثلاثة: المعادن، طبقات الأرض، النباتات، والحيوانات.

هكذا كانوا يدوّخون رؤوس الطلبة بهذه العلوم. وكان مدير المدرسة تركياً، وأكثر معلميها من الأتراك أيضاً يأتون بهم من الأناضول والروم إيلى، والقليلون منهم من الآستانة، حتى إن معلم العربية في زمننا كان من الأتراك المعممين الملقبين «بالسفطة[1]» واسمه إسماعيل حقي أفندي. ولم يكن في مكتب عنبر من أبناء العرب غير أستاذين: محمد المرعشلي، معلم القواعد والقراءة التركية، والشيخ محيي الدين الخاني معلم الدينية[2]، وكلاهما من دمشق.

وكان مفروضاً أن يكون لكل تلميذ ولي مسؤول عنه، فإما أن يكون الوالد أو الوصي إذا كان الغلام يتيماً. ونظراً لبُعد والدي عن دوائر الحكومة وكَّلَ أمر الولاية عليَّ إلى صديقه علي السقا أميني، رئيس كتاب دائرة المعارف في دمشق.

وبدون أن يكلّفني هذا الولي أي عناء، استحصل على الأوراق الرسمية التي تلزم لي كتلميذ، وقدَّمها إلى إدارة المدرسة، فقبلتني في الصف الأول، وذلك في السنة الدراسية ١٣١٧ -١٣١٨ التالية.

رفاقي في المدرسة

فرحت بدخول هذه المدرسة فرحاً كبيراً، لأن تلميذ المدرسة الإعدادية، كان يتمتع في تلك الأيام بمكانة عالية في الأوساط العائلية، نظراً لتفشي الجهل فيها.

---

(١) الصوفتة، هي الدرجة الدنيا من درجات المدرسين في العصر العثماني، ويأتي فوقهم «الدانشمند» -الطشمند -المعجم العثماني -حسين المصري.

(٢) الشيخ محمد بن علي المرعشلي أو المرعشي مدرس فاضل أمضى أكثر من أربعين عاماً في التدريس، توفي سنة ١٣٤٠هـ/ سنة ١٩٢١م

- أما الشيخ محيي الدين الخاني، فقد توفي بعده بعشر سنوات. تاريخ علماء دمشق مطيع الحافظ ١/ ٣٨٨ و٤٥٨.

وكان الشاب الذي يحرز الشهادة الإعدادية يعدُّ من أرقى شباب ذلك الزمن، وينظر إليه الناس نظرة أهل هذا الجيل إلى حملة الدكتوراه.

وأكثر كبار موظفي حكومتنا اليوم هو من خريجي مكتب عنبر، ومنهم فخامة الرئيس شكري القوتلي. وأذكر من بين ذوي المهن الحرة السادة: سعيد محاسن، وسعيد الغزي، وسعيد حيدر، والمرحومَين: فوزي الغزي ومظهر رسلان، ووصفي رسلان، والدكتور صالح قنباز، والإداري أسعد خورشيد، والدكتور فؤاد الساطي، وغيرهم من رجالات البلاد.

وكانت المدرسة الإعدادية تضم طلاباً من جميع أبناء البلاد، ولم تكن مقتصرة على الدمشقيين فقط. وهكذا كان أكثر الداخليين، إذا لم أقل جميعهم، من أبناء عواصم المتصرفيات[1] والأقضية.

وكان عدد طلبة الصف الأول يتراوح بين المئة والخمسين والمائتين، فلا يُتمِّمُ التحصيل فيه ويحصل على الشهادة إلا قسم قليل منهم. وهكذا لم يزد عدد الذين كانوا ينالون شهادة مكتب عنبر، عن عشرين تلميذاً في كل عام.

عرفتُ في هذا المكتب رفاقاً كثراً، ذهب بعضهم في ما بعد إلى الآستانة ودخلوا مدارسها العالية كالطب، والحقوق، والهندسة، والملكية، والبيطرة، ودار المعلمين، وغير ذلك من المدارس.

ومن الإخوان الذي رافقتُهم في صف واحد منذ الدخول حتى الصف الأخير السادة: سعيد محاسن، حسن فرحات، نسيب النابلسي، عبد الرحمن رشيدات العجلوني، وكان محاسن وفرحات يتسابقان على الدرجة الأولى دائماً. ولا بد من أن يكون أحدهما الأول والآخر الثاني. كذلك كان النابلسي والعجلوني يتسابقان على الدرجة الثالثة دائماً، ولابد من أن يكون أحدهما الثالث والآخر الرابع، أما أنا فكنت من «عفاريت» المكتب، ولم تكن درجتي متفوقة، بل كانت دائماً تحت درجة الأعلى، ولم أرسب في أية سنة.

---

(١) المتصرفية: كانت تسمى عند الأتراك سنجق، وهي ما يسمى اليوم المحافظة.

أنا والداودي

كان من رفاقي في الصف السيد توفيق الداودي ابن أخ الشيخ محمد الداودي[1]، المعروف بنظم الشعر. فكان توفيق يردد علينا أحياناً قصائد عمه. وفي أحد الأيام، ونحن في الصف الرابع نستعد في ساعة المذاكرة لدرس الهندسة، قام توفيق الداودي يقرأ علينا قصيدة لعمه طويلة عريضة، فشغل الطلاب وأزعجهم. ورجاه البعض أن يكف عن القراءة فلم يفعل.

وكانت القصيدة داليّة فقمت إلى اللوح (السبورة) وكتبت عليه هذا البيت، وهو أول بيت نظمته في حياتي، على بحر القصيدة التي كان يقرؤها:

توفيقُ إنَّ العلكَ في أشعارِكُم　　　وقفٌ عليكم يا بني الداودي!

فضحك الطلاب، وقامت الضجة، وغضب توفيق منه وخرج من الصف إلى الملعب.

وفي اليوم الثاني جاء توفيق مبكراً وبيده قصيدة ادّعى أنه نظمها، هذا مطلعها:

إخسأ بوجهِك أيُّها البارودي　　　واحذر أسوداً درعُها داودي

وقد هجاني في القصيدة هجاءً قبيحاً استفزَّني، فتوعدتُه بالجواب في الغد، وذهبت إلى البيت وأنا مضطرب البال، وقضيت الليل أفكر حتى تمكنت من نظم أبيات كِلْتُ له فيها الصاع صاعين، وذهبت في الصبح مبكراً إلى المكتب، فلما اجتمع الطلاب قرأت قصيدتي، ومطلعها:

إخسأ بوجهِك أيُّها الداودي　　　واحذرمدافع حشوها بارودي

واستمرَّ الهجاء بيننا، فكان توفيق ينظم أبياته فيصلحها له عمه الشيخ

---

(١) محمد بن محمد، توفي سنة١٩٢٧ عن خمسين عاماً، وقد أثنى عليه تلميذه ظافر القاسمي ثناء حاراً. . . المصدر السَّابق ١/ ٤١٧

محمد، وأنظم أنا أبياتي وأعطيها إلى الشيخ عبد القادر بدران[1]، فيصلحها. وبقينا مدة سنتين ونحن نتهاجى. ولكننا مع ذلك بقينا أصدقاء نقضي أوقاتنا سوية داخل المدرسة وخارجها. ولما كثرت قصائد الهجاء بيننا عقدنا صلحاً واتفقنا على أن نُتلف جميع ما كتبناه نحن الاثنين، وأقسمنا الأيمان على ذلك. وهكذا حرقتُ جميع القصائد التي قلتها فيه، وقال إنه حرق قصائده.

ومنذ ذلك الحين أصبح لي بعض الميل إلى نظم الشعر. وقد ساعدني على ذلك الشيخ عبد القادر بدران أحد علماء قصبة دوما الفقهاء على المذهب الحنبلي، وهو من العلماء المجددين. وكان لسانه سليطاً جريئاً لا يهاب أحداً. فوقعت مرة مشادة بينه وبين رئيس بلدية دوما صالح طه، وتبادلا الهجاء. وعلى الأثر استصدر طه من الوالي أمراً بإبعاد الشيخ بدران عن دوما، فانتقل إلى دمشق وحل ضيفاً علينا في بيتنا، مدة سنتين ونصف، حتى انتهت مدة نفيه.

كنت يومئذ في المدرسة الإعدادية، فأفادني وجوده في دارنا إذ ساعدني على تعلّم اللغة العربية، وكان له فضل كبير بتوجيهي وإرشادي إلى كتب اللغة ومطالعة كتب الأدب ودواوين الشعر. وقد قرأت عليه مقامات الحريري بأجمعها، فكان لها تأثير في توجيهي نحو الأدب العربي، خلافاً لرفقائي الذين اتجهوا نحو الآداب التركية.

ممدوح العابد

كان من رفقائي في هذه المدرسة ابن عمتي ممدُوح بن رضا العابد. التقينا أولاً في الصفّ الثاني، ثم بقينا حتى نلنا الشهادة معاً. وكان رحمه الله من أخف خلق اللّه روحاً. وله حوادث كثيرة، من أغربها:

---

(١) المؤرخ المشهور، صاحب «منادمة الأطلال» وغيره، توفي في دمشق سنة ١٩٢٧، وله مؤلفات عديدة في الأدب والفقه والنحو.

أننا صحونا أحد أيام الشتاء على ضرب (البوري). وكنت في القسم الداخلي، فما كاد الطلاب يستيقظون حتى وقع لغط، وارتفعت الأصوات من كل جانب، وتبيَّن لنا أن أحد الطلاب قام أثناء الليل، وخطط بالحبر الأسود وجوه المبصرين[1] تلك الليلة، كما أنه دهن وجوه كبار الطلاب. فبدا وجه كل طالب كوجه مهرج المسارح، له ثنيات وحواجب عجيبة.

ونظراً لكثرة عدد الوجوه «المسخَّمة» تعالى الضجيج، حتى بلغ غرفة المدير المعاون رشيد حكمت، وكان من أشد المعلمين بطشاً، فجاء مسرعاً ليستجلي الخبر، فلما رأى هذا المشهد لم يتمالك نفسه من الضحك. وسارع بعض الطلاب نحو ممدوح العابد يتهمونه بهذا العمل.

وكان ممدوح ينام في غرفة صغيرة في آخر المهاجع، مع ثلاثة طلاب. فوجدوه غارقاً في النوم. ووجهه هو الآخر مسخم مثل ووجوههم، فأيقظوه واتهموه بما جرى، فأنكر وصاح بهم صياحاً شديداً.

ثم نهض ممدوح، وذهب نحو المدير المعاون وأسرَّ في أذنه شيئاً، فوافقه المعاون عليه. وهكذا نزل المعاون والمبصران وبعض الطلاب الكبار المدهونة وجوههم ووقفوا أمام باب المهجع السفلي من الخارج، ودعوا الطلاب إلى نزول السلم واحداً واحداً، وكلما مرَّ واحدٌ فحصوا أصابعه، حتى جاء أحد الطلاب الحوارنة، ويسمى محمود الحوراني، فوجدوا حبراً على سبابته، فصاح ممدوح: هذا هو الفاعل.

وأخذوا المسكين إلى غرفة المعلّمين، وانهالوا عليه ضرباً، وآجر فيه كل من أصابه رشاش تلك الليلة، حتى كاد يهلك.

وبعد بضعة أيام تبيَّن أن الفاعل هو ممدوح العابد، وأنه بعد أن سخَّم وجوه الجماعة سخَّم وجهه أيضاً، ودهن إصبع الحوراني المسكين، ثم اقترح على المعاون أن يعاين أصابع الطلاب، فانطلت الحيلة على المعاون وعلى الطلاب.

---

(١) المبصر: هو المناظر الذي يراقب الطلاب في النهار والليل، ويسمونه اليوم: معيداً.

ولما عرف الجميع أن الفاعل هو ممدوح، أحضروه إلى غرفة المعلّمين، وشكلوا محكمة من الأساتذة حققت معه، فاعترف بجرمه، وقال: إنه سخن زجاجة الحبر على المدفأة، حتى لا يصحو أحد عند دهن وجهه بحبر بارد. وعندئذ أطعموه «علقة ماكنة» وكدروه علناً أمام جميع الطلاب.

نسيبُ البكري[1]

وهذه حادثة طريفة وقعت لنسيب البكري عندما كان في أول صف في المدرسة الإعدادية:

مرَّ بجانبه تلميذ فلاَّح مجتهد فصفعه نسيب صفعة أطارت صوابه، فراح يشكو أمره إلى الإدارة. فاستدعى المديرُ نسيب البكري وسأله: لماذا ضرب الغلام؟ فأجاب: ضربتُه قضاء أفندم.

بعد بضعة أيام بينما كان الطلاب بالفرصة، دوّى البوق يدعو الطلاب إلى الاجتماع. وكان نسيب البكري وفهمي الحسيبي يسيران جنباً إلى جنب لما سمعا البوق، فقال فهمي: ربما يريدون أن يجمعونا لمجازاة أحد الطلاب!

فقال نسيب: إن شاء الله تكون المجازاة لك يا فهمي!

فأجابه فهمي: بل إن شاء الله تكون لك أنت يا نسيب!

واستجاب الله دعاء فهمي، إذ تقدم المدير الثاني، نظاميات أفندي، إلى منتصف المربَّع الذي شكله الطلاب، وخطب خطاباً طويلاً باللغة التركية حمل فيه على المعتدين، ثم أعلن أن السيد البكري اعتدى على الطالب فلان، وصفعه صفعةً قوية بلا سبب، وكانت صفعته «قضاء أفندم»، لذلك ارتأت الإدارة أن تكدره تكديراً علنياً «قضاء أفندم»!

---

(١) نسيب بن عطاء الله البكري، من أعيان المجاهدين في دمشق، استضاف الأمير فيصل في داره سنة١٩١٦، ثم تولّى عدة وزارات، وشارك في تأسيس حزب الشعب، وتوفي سنة١٩٦٦ عن ٧٨عاماً وهو رئيس رابطة المجاهدين في سورية.

وهكذا انفض الجميعُ، وهم يضحكون من النتيجة، حتى نسيب نفسه راح يقهقه، كأن القط لم يأكل له عجيناً!

نسيب الكيلاني وشجرة الليمون

كان نسيب الكيلاني «أشطن» تلميذ في زمانه مع الداعي لله. ولا أذكر أنَّه مر يوم من السنوات السبع التي قضيتها في المدرسة الإعدادية، إلا وكنت مسجوناً فيه «إذن سيز -حرمان»، مع نسيب الكيلاني.

وذات يوم بقي في المدرسة عشرة تلامذة مسجونين، وبينهم نسيب وأنا طبعاً. وكان في باحة المدرسة أشجار مثمرة من الليمون الحامض، فرغب نسيب الكيلاني في أن يقطف شيئاً من ثمرها، فأحضر «السيبة» التي يصعد عليها الخدم لإشعال الفوانيس، وتسلَّق عليها، وراح يقطف الثمار ويناولنا إياها. وفي هذه الأثناء جاء معاون المدير المناوب ورأى ما يجري. وكان المعاون مرعباً جداً وله شنب طويل، فتقدم من التلميذ الواقف في أسفل السلم وأشار إليه بإصبعه أن لا يتكلم، ثم تقدم المعاون إلى تحت السلم وراح يستلم الثمار من نسيب!

ثم نادى نسيب الطالب ليصعد إلى الشجرة ويرى ثمرة كبيرة جداً. فصعد المعاون حتى أصبح إلى جانب نسيب. فمد نسيب ساعده وعانق المعاون وهو يشير إلى الليمونة والتصق الخدان، فأحس نسيب بخشونة شعر الشنب، والتفت مدهوشاً وما كاد يرى وجه المعاون حتى قفز عن السلم فوقع إلى الأرض، ووقع معه المعاون، وقام كل منهما ينفض ملابسه ويضحك.

وذهب المعاون إلى غرفته وضرب البوق داعياً الطلاب المسجونين إلى الاجتماع، فاجتمعنا. وإذا بالمعاون يقول: إنه نظراً للنكتة التي رافقت الحادث، فإنه يعفو اليوم عن جميع المسجونين!

ثم فرق على كل تلميذ حبة ليمون واحدة، مشترطاً علينا ألا نعود إلى مثلها، وأخذ الباقي لنفسه، وخرجنا ندعو للسلطان بالنصر!

خروف المدير

بعد مضي ما يقرب من نصف عام على دخولي المدرسة، خبرت أحوالها وطلابها، فبدأت «شيطنتي». وكلما مرت الأيام كثرت الجزاءات علي، حتى أصبحتُ من «زبونات» المدرسة الدائمين أيام التعطيل. ولا أبالغ إذا قلت إني منذ دخولي المدرسة إلى يوم أحرزت الشهادة في مدة سبع سنوات لم أقض عطلة أسبوعية واحدة في داري، بل كنت أقضيها كلها بالحرمان، مسجوناً في المدرسة.

وفي أحد الأيام نقر المدير على زجاج النافذة بشدة. وكنا نلعب في باحة المدرسة أثناء الفرصة، فالتفت الطلاب جميعهم نحوه، ورأيناه ينادي أحدنا بإصبعه، فجعل كل منا ينظر إلى الآخر ليرى المدعوّ. وما لبثت أن أدركت أن المدير يدعوني. فذهبت إليه خائفاً وظننت أن هناك وشايةً ضدّي.

صعدتُ إلى غرفة المدير كما يقول المثل العامي «رجل لورا ورجل لقدّام».

ولما دخلت الغرفة، وجدت بعض المعلمين الذين يتكلمون اللغة العربية، فقال لي المدير: أنت فخري البارودي؟

فسقط قلبي، وقلت: نعم!

قال: هل أبوك من أصحاب المزارع؟

فلما أجبت بالإيجاب، قال: عندكم غنم في مزرعتكم؟

فأجبت بالإيجاب. فقال: وهل والدك من الأجواد؟

قلت: هكذا يقولون!

قال: عندي خروف، وأريد إرساله إلى المرعى، وقد دلّني الناس عليكم، فهل يمكنك أخذ هذا الخروف إلى مزرعتكم والاعتناء به إلى أن يكبر؟ وهل يرضى والدك؟

قلت: نعم، بل أظنه يكون شديد السُّرور بهذا التكليف!

فأشرق وجهه وقال: إذاً أنت مأذون اليوم. عند انصراف الأولاد من المدرسة خذ الخروف معك، ونم في دراكم وعُدْ غداً صباحاً.

ضربت «تمني» وخرجت أهبط درجات السلم خمساً خمساً، إلى باحة الملعب حيث كان رفاقي ينتظروني، فأبلغتهم الخبر.

وفي المساء احتشد أكثر من خمسين طالباً من الطلاب الخارجين ينتظرون الخروف عند باب المدرسة. ولما خرجت والخروف معي قام الطلاب بمظاهرة ومشينا «بعراضة» نسحب الخروف ونجرّه، ومررنا بسوق مدحت باشا بهذا المهرجان حتى وصلنا إلى الدار.

قدمتُ الخروف إلى والدي ورويت له الحكاية فضحك، وأمر وكيل الخرج أن يحضر اللحام ويذبح الخروف، وقال: عندما يطلبه المدير نحضر له خروفاً كبيراً بدلاً عنه!

ومضت شهور، وانقضى العام، وجاء العام الثاني، وإذا بالمدير يناديني ثانية فأسرعت إليه، فسألني عن الخروف، فقلت: إنه بخير، صحته جيدة يقبل يديكم.

فضحك وأمرني بإحضاره، فقلت: سأكتب إلى والدي.

ومضت أيام، وكنت مراراً أطلب الخروف، والوالد «مطنِّش» لا كتاب ولا جواب، وأنا أختلق الأعذار للمدير. وأخيراً لم أر بداً من الذهاب بنفسي، فأخبرت المدير وطلبت إذناً للسؤال عن الخروف فسمح لي بالذهاب إلى الدار مع الطلاب الخارجين. ولما أخبرتُ والدي بإلحاح المدير، أرسل إلى دوما رسولاً ليأتي بخروف. وفي الصباح حضر الرسول ومعه خروف صغير، أصغر من الخروف الذي استلمناه من المدير. فقلت لوالدي: كيف يمكنني تقديم هذا الخروف بعد هذه المدة؟

قال: اذهب وقدّمه، وإذا «علّكَ» المدير، قل له: إن خروفه «فطس وهذا بدل عنه!

أخذت الخروف إلى المدير، فلما رآه غضب غضباً شديداً، وصاح بي: نه دربو؟ (يعني: ماهذا؟).

قلت: هذا خروف!

قال: بو كديدر! (يعني: هذا قط!).

وبالحقيقة كان هذا الخروف بقدر القط، فحمله ووضعه على رقبتي، ودفعني إلى خارج المدرسة وقال: اذهب إلى والدك وقدّمه له هدية مني!

وعدت إلى الدار بحالة يُرثى لها، فلما رآني والدي غضب وأمر وكيل الخرج بإحضار اللحام، فأحضره، وذبح الخروف وقال: اذهب إلى المدير وقل له: قبلنا الهدية!

وخلتُ إلى الدار أبكي. وكانت عمَّة والدي السيدة ليلى البارودي -وعمرها آنذاك زهاء السبعين- في زيارتنا. فلما عرفت بالأمر، أعطتني ديناراً عثمانياً ذهبياً، وقالت لي: اشتر به كبشاً بدل الخروف، وقدمه إلى المدير! وهكذا كان، فاشتريتُ كبشاً وذهبتُ به حالاً إلى المدرسة، وقلت للمدير: إني غلطت بالأول. فهذا هو كبشك!

فلما رآه المدير فرح به، وضحك وربَّت على ظهري، وخلصني الله من هذه البلية على خير!

المقصف

كان في مكتب عنبر «دكان» يؤجَّر بالمزاد العلني. وقد رسا أثناء إقامتي في المدرسة على المدعو زكي البقَّال.

استخدم زكي هذا صانعاً لبقاً يدعى بكري، لقبه الأولاد بـ«الدنكورة». وكان بكري خفيفاً نشيطاً، يلبي وحده جميع طلبات الأولاد في الفرصة، عندما يحتشدون أمام نافذة الدكان، ويتصاعد صياحهم: دنكورة هات قلماً.. دنكورة أعطني رغيفاً.. دنكورة هات راحة.. الخ.

ولم تكن الفرصة القصيرة لتسمح بتأمين حاجات جميع الطلبة، لذلك كان «دنكورة» يسمح لأبناء الأغنياء بالدخول إلى الدكان والاختباء فيها، وإن كان ذلك ممنوعاً. وكان «المبصرون»، أي المراقبون، يغضّونَ الطرف عنهم مقابل هدايا يقدمها إليهم صاحب الدكان، وفقاً للمثل القائل: أطعم الفم تستحي العين.

وكان التدخين ممنوعاً، ولكن كل ممنوع مرغوب، لذلك كان كثير من الطلبة يجتمعون في باحة صغيرة على مقربة من المراحيض، حيث لا يأتي أحد من هيئة الإدارة، ويشرعون في التدخين، بينما يقف أحدهم عند المدخل لإنذارهم بالخطر!

هكذا، لا يكاد «بوري» الاستراحة يدق، حتى يهرع عشاق التدخين إلى «المحششة خان»، ويبدؤون في التدخين. ولا حاجة للقول: إنني كنت، طبعاً، منهم!

السيران

كانت إدارة المدرسة تقيم في فصل الربيع من كل عام سيراناً للطلاب، تجمع نفقاته منهم، فتحضر لهم «نوبة» آلات موسيقية، وتستأجر لهم حديقة أو بستاناً، ويقضي الطلاب يومهم حتى المساء. وأذكر أن الإدارة أقامت لنا سنة ١٩٠٧ سيراناً في حديقة «الأفندي» في حي باب توما، مثّلنا أثناءه رواية باللغة العربية، فكانت أول رواية مُثّلت في مكتب عنبر.

وكان «السيران» في ذلك العهد جزءاً من حياة الناس. وكانت في دمشق جمعيات مهنية، غايتها تنظيم التسلية والنزهات لأبناء الصنعة. وكان بعض أفرادها يركبون في السيران الرهاوين والخيول، والبعض الآخر يركب الحمير من هليبية وقبرصية وقروية. ويسير فُرسان كل فئة على حدة إلى مكان السيران، حيث يترجّلون، ويبدأ الهرج والمرج.

وأذكر أن صغار «الزعران» كانوا يجتمعون قرب الحمير ويصيحون فيها: «زعرّ! زعرّ!»، فتأخذ كلها في النهيق، ويتصاعد منها أصوات منكرة، فتقوم قيامة أصحابها، ويلحقون الأطفال بالعصي والحجارة.

وما يزال سكان دمشق إلى يومنا هذا يحبون «السيران» فتراهم في الربيع والصيف منتشرين بين البساتين وعلى ضفاف السواقي، يتمتعون بجمال الطبيعة.

الرياضة في مكتب عنبر

لم يكن للرياضة ذكر في مناهج المدارس العثمانية في زمننا، ولذلك كانت ألعابنا بسيطة، نقوم بها في باحة المدرسة، وهي تكاد لا تتسع لسير خمسين طالباً، فكيف إذا خرج يلعب فيها خمسمائة؟

من ألعابنا في ذلك الحين، أذكر لعبة الطيح، الأسير، أم عميش، كرة اليد، سباق الركض. هذا كل ما كنا نلعبه في المدرسة الإعدادية. وكان المدير والمعلمون ينظرون إلى الولد الرياضي بعين الازدراء، وينعتونه بالطائش. ولا عجب فإنه لم يكن للرياضة في دمشق كلها شأن يذكر.

أما الألعاب التي كانت شائعة في دمشق إجمالاً، فإنني أذكر منها لعبة «الدوج»، وهو عبارة عن حجر «مفلطح» يحمله اللاعب ويحاول أن يصيب به «النكرة»، وهي حصاة بحجم الجوز، فمن يصبها يربح اللعبة، ويركب على ظهر رفيقه شوطاً!

وهناك لعبة «طابة التيس»، وهي كرة محشوة بالخرق، يقذفها اللاعب على حجر يكمن وراءه لاعب آخر، فإذا أصابته احتل مكانه وراء الحجر. ويشترك فيها عادة خمسة أو ستة لاعبين، وتنتهي بأن يمتطي الفائزون ظهور المهزومين!

أما كرة القدم وكرة السلة فلم نكن نعرفهما. وإني أذكر أن أول لعبة «فوتبول» رأيتها في دمشق كانت تمريناً يقوم به الأخوان نوري[1] وحُسين الإيبش[2] في مرجة

---

(١) نوري بن أحمد إيبش، مزارع وسياسي سوري، انتخب رئيساً للغرفة الزراعية بدمشق ونائباً عنها في المجلس النيابي سنة١٩٤٧، وتولى وزارة الزراعة في عهد حسني الزعيم، ثم وزارة الداخلية. وانصرف سنة ١٩٥٣ إلى إدارة أعماله الزراعية في دمشق ولبنان وتوفي سنة١٩٧٥ عن ٨٤عاماً. وقد زوّدنا بهذه الترجمة ابنه الأستاذ أحمد.

(٢) حسين الإيبش، الأخ الأكبر لنوري، عمل هو الآخر في الزراعة وتوفي سنة١٩٦٧ عن ٨٣عاماً.

الحشيش قرب «صدر الباز»، وكان هناك جسر على نهر بردى، وميدان فسيح للعب الجريد. وأذكر أن الكرة سقطت يومئذ على رأس أحد المتفرجين، المرحوم نعيم الغزي -وكان من المتعمّمين- فضغطت عمَّته على رأسه إلى ما تحت أذنيه. وكان بين المتفرجين حقي باشا مشير الشام[1]، فضحك حتى وقع طربوشه في العربة. وقد شاهدته بنفسي لأنني كنت واقفاً مع وكيل خرج دارنا أمين آغا إلى جانب عربة المشير.

وقد تعلَّم السيد نوري الإيبش يومئذ تلك اللعبة من الجامعة الأمريكية في بيروت، إذ كان طالباً فيها.

السيف والترس

كانت لعبة السيف في ذلك العهد أكثر الألعاب انتشاراً بين الدمشقيين، توارثوها أباً عن جد، لأنها تعلّم الشباب الرجولة والخفة، وتروض الأجسام، وتُعوّد الشباب على الصبر، ولها أصول ثابتة لايمكن الخروج عنها. ويشترك في هذه اللعبة من اثنين إلى خمسة لاعبين. فإذا لعب اثنان حمل كل واحد منهما سيفاً وترساً، وقد ينضم إليهما ثالث يحمل سيفين ويتوسط اللعب. وإذا لعب خمسة ترأَّس أحدهم المعركة وحمل سيفين في آن واحد وتوسط اللاعبين.

ويكون اللعب على الأكثر حبِّياً. أما إذا وقع خصام بين لاعبين، فإنه ينتهي إلى حادث مؤلم. وكان من الرؤساء المشهورين لحلقات السيف والترس أبو سعد الخضري، وأبو شاكر مسلم الخانجي، والريس العبسة الميداني، وأبو علي الصباغ، وأبو علي القباني، وأبو صالح رشيد الخجا، وأبو عزّو حسن الأرناؤوط، وأبو عادل السروجي. وأكثر هؤلاء انتقلوا إلى رحمة الله.

من تقاليد لعب السيف والترس «الشد»، وهو أن يقطع رئيس اللعبة على التلميذ الجديد عهد الولاء، وبعد ذلك يكرّسه لاعباً رسمياً، ويناديه بلقب «ابني». وكانوا يسمّون التلميذ بالشراق، وهي كلمة فارسية تعني المولى.

---

(١) كان يُقيم في دار المشيريَّة، وهي السَّرايةُ القديمة التي حلّ محلها اليوم قصر العدل، وهو المسؤول عن قافلة الحج.

وتجري هذه المراسم بحضور رؤساء هذا الفن من جميع الأحياء، فيقرأ الريّس دعاء مخصوصاً لهذه اللعبة وهو: «بعد الفاتحة، سبحان الأبدي الأبد، سبحان من بسط الأرض على ماء جمد، سبحان مقسم الأرزاق، من لاينسى من فضله أحد، سبحانه من ذاته وصفاته، قل هو الله أحد».

ثم ينادي بأعلى صوته: صحائف النبي ﷺ، صحائف العشرة المبشرة بالجنة من الصحابة الكرام، صحائف الأسد الكرار علي بن أبي طالب، ابن عم النبي المختار، رضي الله عنه وكرم وجهه، صحائف فاتح الشام أبي عبيدة الجراح، صحائف سيف الإسلام خالد بن الوليد رضي الله عنه، صحائف فلان وأبي فلان وأبي فلان -ويعدد أسماء أبرز الحاضرين من وجوه المحلاَّت.

ثم يفتح بقجة من الثياب، فيها قنباز حريري يسمى بـ«الصاية»، وشملة، فيلبسون التلميذ الصاية. ومتى زنَّروه بالمشالح دخل في جماعة اللاعبين، ويقرؤون الفاتحة، ويصبح الشاب بعد ذلك لاعباً، ويمكنه أن يشترك في طوابق اللعب[1]!

لعبة الحكم

لعبة يتحرك عليها أولاد الأحياء، تمهيداً لانتقالهم إلى لعب السيف والترس. ولا يتمكن لاعب السيف من إجادة لعبته إلا إذا تعلّم الحكم.

عدة هذه اللعبة هي درقتان من جلد محشوتان بالصوف أو القطن، وللدرقتين مقابض يتقي بها اللاعب ضربات خصمه. والدرقة الواحدة اسمها «حكمة»، واللعب يكون بقضيب من الخيزران أو السفرجل.

وهذه اللعبة تربي في الشاب عضلاته، وتعلمه على الشجاعة والصبر، وهي من أنفع الألعاب. وليت النوادي تعيدها سيرتها الأولى!

---

(١) من بقايا هذه اللعبة مانراه اليوم في دمشق من فرق للسيف والترس، انتشرت في معظم أحياء المدينة، ومهمتها فولكلورية بحتة، تظهر في المسلسلات وترافق الحجاج والأعراس والمناسبات.



نسيب بك البكري ثاني امناء جلالة الملك

العرب والأتراك

أربعمائة سنة ونيف كانت قد مرت على الأتراك وهم يحكمون بلادنا لما دخلنا مكتب عنبر، وكان من الطبيعي أن يتولد شيء من النفور بين أبناء الحاكم وأبناء المحكوم. فالأتراك كانوا يومئذ أبناء الست، ونحن أبناء الجارية. ولم يكن أحدنا ليجرؤ على رفع رأسه أمام المعلمين ورجال الإدارة، وكلهم من الأتراك، كما أن رهبة الحكم العثماني كانت تملأ القلوب.

إنْ أنسَ لا أنسَ مشهداً رأيته أمام دار أحمد باشا الشمعة. كان أحمد باشا من أخص رجال عبد الحميد، سلطان البرين وخاقان البحرين. وقد منحه السلطان امتيازاً عن سائر رجال الخاصة إذ أعطاه آلة برق (تلغراف) مرسلة ولاقطة في داره، ليخابر بها السلطان رأساً.

غضب السلطان على أحمد باشا يوماً، لسبب أجهله، فأمر باعتقاله في داره ووقف أمام بابه «بوليس نظامي»، أي شرطي بلباسه الرسمي، يراقب كل داخل وخارج، ويسجّل أسماءهم. وقد مررت يوماً من هناك، فرأيت المارة يضطربون عندما يقتربون من دار الشمعة، فيثبّتون أنظارهم إلى الأمام، حتى لايلتفتوا لفتة واحدة نحو باب الباشا، خوفاً من أن يُحاسبوا على النظرات!

بسبب هذا الرعب الذي بثّه الحكم العثماني في النفوس، لم يكن أحد يجرؤ على ذكر العرب والعروبة، خصوصاً من الذين يعيشون مع الأتراك في السرايات ودوائر الحكومة.

في تلك الأيام بدأت الروح العربية تستيقظ خصوصاً في الشبان وبدأت نغمة ترك وعرب تتردد في المجتمعات الخاصة، وأخذ بعض الطلاب في مكتب عنبر يتمردون على المعلمين الأتراك. وقد سبب ذلك ظهور روح شريرة عند العناصر غير

العربية، كالترك والكريديين والأرناؤوط. فراحوا يتحرشون بنا، هذا بالنعر وذاك بالنكش، نحن نرد عليهم بالمثل. وما لبثوا أن شكلوا جميعة من أصحاب الأجسام البدينة سمّوها «طاغلر جمعيتي»، أي جمعية الجبال، وعلى رأسهم بدر الدين السباهي، شقيق الأستاذ نجم الدين السباهي الأديب التركي المشهور، وهو من الأرناؤوط. وكان من عادة «الطاغلرية» أن ينتظم كل أربعة أو خمسة منهم في صف واحد، ويركضوا في الملعب، فيدفعوا أمامهم كل من يعترضهم من الطلاب المفردين. وعلى الأثر شكل الطلبة العرب مقابلهم كتلة من أصحاب الأجسام المتينة، منهم السيد رشدي القوتلي (أبو راشد)، والسيد توفيق المالكي (أبو الرعود) والسيد نسيب البكري (أبو عطا) والداعي لله (أبو الحسن) . . . إلخ.

ومع الزمن ازدادت العداوة، وانتقل الاحتكاك من اللعب الخشن إلى الشجار داخل المكتب، ثم خارجه. وكنت يومئذٍ قد بلغتُ الصف الثالث (حول السنة ١٩٠٤)، فكنا نتواعد على الصدام معهم في مكان ما خارج المدرسة. وكانوا يجلبون معهم رفقاءهم من محلة المهاجرين. ونحن نُحضر معنا رفقاءنا. فيدور شجار يكثر فيه الجرحى. وأخيراً تدخلت الحكومة، وجعلت ترسل شرطة خاصة إلى الساحات لتمنع الخصام والشجار. هكذا كان النفور يتزايد بيننا وبينهم كلما تقدمنا بالصفوف. حتى جاءت سنة ١٩٠٨، ووقع الانقلاب العثماني.

وفي معرض هذا البحث أذكر حادثاً شخصياً وقع لي مع بدري رئيس جمعية «الطاغلرية» المشار إليها. فقد اشتد العداء بيني وبينه بصورة لا مثيل لها بين سائر الطلبة، حتى تواعدت وإياه على النزول في المساء، بشرط ألا يخبر أحدنا أحداً من رفقائه بالأمر. وبالفعل لم نخبر أحداً، واجتمعنا في آخر زقاق الحمراوي قرب مدخل «القباقبية»، فتماسكنا وتشابكنا بالأيدي. ودار اللكم واللطم، والخبط والرفس، والخدش والخمش، حتى سالت الدماء من وجهينا، ثم ضربته بطبق الطعام «السفرطاس» فأصبته في جبينه بجرح بليغ. وهنا تدخل بعض المارة وفرقونا والدماء تسيل منا.

وبينما كان الناس يبعدون كلاً منّا عن الآخر، كانت الشتائم تنطلق من فم كلّ منا كالرشاش، أنا أشتم بالعربية، وهو يشتم بالتركية. وأعتقد أن الشتائم التركية

أقبح بكثير من الشتائم العربية . وبينما نحن في هذه الحال، إذا بالمدير المعاون في مكتب عنبر، نظاميات أفندي، يمرُّ بنا . فوقف وألقى علينا درساً بالأخلاق . ولم يفارقنا حتى صالحني وإياه . فقبَّل أحدنا الآخر . ومشينا سوية كأن لم يجرِ شيء بيننا أصلاً!

عيُونٌ تتفتَّح

بدأت عيوننا تتفتَّح على الحقائق القومية حول السنة ١٩٠٥ -١٩٠٦، وهي السنةالتي نلت فيها الشهادة المتوسطة . ولا يستطيع أن يقدّر الفرح الذي ساورني بهذا النجاح إلا من دخل الفحص ونال الشهادة .

وفي السنة السادسة بدأت أطالع بعض الصحف المصرية التي كانت تتسرَّب إلى دمشق كالمقطم والأهرام والمؤيد . ولا أدري كيف كانت تصل إليها، لأنها كانت ممنوعة . ولم نكن نحن نعرف من الجرائد إلا جريدة «الشام»[1] .

وأذكر أن بعض أصدقاء لي كمحيي الدين الخطيب وعثمان مردم بك، كانوا يأتون بعدد أو عددين من الجرائد المصرية وينقلونها إلى عدد محدود من أصدقائهم من الشبان الناشئين، فيمر العدد من يدٍ ليد بصورة خفية، دون أن يطَّلع على ذلك أحد .

وكان قد بدأ يتكون في دمشق جمهور من الشباب العرب، من خريجي المدارس العالية كالطب والحقوق والمكتب الملكي، وهو أعلى مدرسة لإخراج الموظفين الإداريين . وكانوا يعقدون اجتماعات خاصة، ويخوضون في أحاديث جديدة غير مألوفة عند الدمشقيين آنذاك . فبينما كان الدمشقي يومئذ من أي طبقة كان، لا يتحدث إلا عن طعام يومه، وعن الأشكال التي أكلها وكيفية طبخها

---

(١) المقطم: أسسها في القاهرة سنة١٨٨٩ الأخوان حتروف، وكانت لها شهرة واسعة. وتأسست الأهرام سنة١٨٧٦ على يدي سليم وبشارة تقلا .
أما المؤيد فقد أسسها الشيخ علي يوسف سنة١٨٨٩ . تاريخ الصحافة العربية فيليب طرّازي ٣/ ٣٤، ٣٧، ٥٠ .

(١) أسسها في دمشق سنة ١٨٩٦ مصطفى أفندي واصف، وكانت من صحف العصر الحميدي في دمشق، بعكس الصحف الأولى التي كانت تتمتع بقسط أوفى من الحرية . انظر: الصحافة السورية -هاشم عثمان- وزارة الثقافة سنة١٩٩٧ ، صفحة١٥

والدعوات التي دُعي إليها، الحفلات الكبيرة التي أقامها وجهاء البلدة، كان هؤلاء الشبان الناهضون يتحدثون عن أوربا وتقدمها وعلومها، وعن نهضات الشعوب، والشكوى من ظلم الحكومة، واستبداد السلطان عبد الحميد، وسرد حكايات طويلة عريضة عن إغراق الأحرار في بحر مرمرة، وتعذيب الألوف من الشبان المطالبين بالإصلاح.

وكنا نسمع هذه الأحاديث في مجالس الشبان كلما سنحت لنا فرصة بالاجتماع إليهم، ومن بينهم السادة: شكري العسلي، وعبد الوهاب الإنكليزي، وسليم الجزائري. (وقد شنقهم جمال باشا أثناء الحرب)، والأستاذ محمد كرد علي، والدكتور عبد الرحمن شهبندر، وعلى رأسهم شيخ أحرار العرب ذلك الحين الشيخ طاهر المغربي الجزائري، وهو شيخهم وشيخنا. وله أكبر فضل في تنوير الأبصار والبصائر، ودفع العرب في طريق التقدم. وهو أول من فتح مدارس البنات في دمشق.

وكان يحضر اجتماعات الشلّة الشيخ سليم البخاري[1]، والشيخ جمال القاسمي[2]، والشيخ عبد الرزاق البيطار[3]. وهم من الشيوخ الأحرار المجددين، وكانوا جميعاً موضع نقمة الحكومة.

وكنا إذا حضرنا مجالسهم يتحفظون أمامنا، وعلى الرغم من ذلك كانت أحاديثهم إصلاحية توجيهية، فاتهمهم بعض الناس بأنهم وهّابيون، واتهمهم آخرون بالماسونية.

في هذا المحيط، فتحت عيني على الدنيا، ومن رجاله اقتبستُ الوطنية والحرية، ومن شبانه تعلمتُ الجسارة والجراءة. رحم الله من مات منهم، وأحسن إلى من بقي حياً!

---

(١) سليم بن أحمد، عالم مجاهد من زملاء الشيخ بدر الدين الحسني. توفي سنة١٩٢٨ عن ٧٧عاماً.

(٢) جمال بن محمد من كبار علماء دمشق، له مؤلفات عديدة. توفي سنة١٩١٤ عن ٤٨عاماً.

(٣) عبد الرزاق بن حسن البيطار، عالم دمشق ومدرس جامع الدقّاق بالميدان، وصاحب كتاب: حلية البشر في أعيان القرن الثالث عشر. توفي سنة١٩١٦ عن ٧٩عاماً.



رضا بك الصلح وزير الداخلية

حُسين عوني وأنا

كان حسين عوني واحداً من أحرار الترك، وكان ربّاناً لإحدى بواخر الدولة، فوشى به بعضهم إلى السلطان عبد الحميد، ففرّ على الأثر إلى انكلترا وقضى فيها بضع سنين.

ثم توسّطت له السفارة الانكليزية، فعفا عنه السلطان، وعيّنه مديراً للمعارف في ولاية سورية.

هذا الرجل له حوادث عجيبة، مازلتُ أذكر بعضها: كان صُلباً، ضيّق الصدر، قصير القامة، إذا مشى بين الأولاد يبدو أقصرهم، وكثيرا ما كان يدفعه أحد الطلاّب أثناء ركضه، فيثور وينزل بسوطه على الطالب حتى يحرمه العافية.

أتاه مرة أحد أبناء الأسر العريقة بكتاب توصية من وزير كبير في الآستانة، مرسل إليه بواسطة الوالي ناظم باشا، فما كان منه إلا أن مزّق الكتاب وقال للطالب: اذهب وقل للوالي أن يبرق إلى قريبك الوزير، أنني مزّقت الكتابين ودستهما برجلي هكذا!

ورمى بالأوراق الممزقة إلى الأرض وداسها برجله. وكان ذلك قبل إعلان الدستور بسنة أو سنتين.

وهذا الرجل برز بعد الانقلاب العثماني، واستلم أرفع مركز في جمعية الاتحاد والترقي، وأصبح هو ومعاونه هاشم بك المسيطرَيْن على فرع الجمعية في سورية. وكان الناس قد أخذوا يتهافتون على الانخراط في الجمعية بكثرة، مما سيرد تفصيله.

وكانت حكومة عبد الحميد تؤخر في بعض الأحيان دفع رواتب الموظفين شهراً أو يزيد. ولذا كان الموظفون يبيعون سندات رواتبهم إلى سماسرة مخصوصين، يشترون الليرة بريال مجيدي وكان على رأس هؤلاء «دفتر دار» الولاية، أي مدير ماليتها، وهو من أتراك الآستانة.

وقد ساوم أحد السماسرة حسين عوني على شراء راتبه في أحد الأعياد فأبى البيع. وعندئذٍ أخروا دفع رتبه، فأبرق إلى السلطان عبد الحميد برقية قال فيها: «جميع الموظفين فرحوا بأخذ رواتبهم في هذا العيد إلا أنا، فقد أخَّروا عني الدفع. فهل هذا هو العدل السلطاني؟ أنتظر الإنصاف!».

وصدف أن وصلت البرقية بسرعةٍ إلى يد السلطان، فأصدر إرادته بتعيين حسين عوني مديراً للمعارف في دمشق. وبالرغم من أنَّه أصبح موظفاً كبيراً فقد ظلَّ تحت المراقبة حتى إعلان الدستور، عندما ظهر على المسرح السياسي واستلم رياسة فرع جمعيَّة الاتّحاد والترقّي، التي قامت بهذا الانقلاب.

وكان حُسين عوني يلقي علينا ثلاثة دروس هي: علم الفلك، والمواليد الثلاثة والجبر. فلما جاء فحص علم الفلك دخلت بدوري إلى القاعة فإذا بالمدير يقلب وجهه ويكلمني بجفاء، وانتهرني قائلاً: «ارسم على اللوح دائرة»!

رسمت دائرة، فقال بصوت عال كأنه يشاجرني: افرض هذا القمر، فاكتب أوجَهُ وحضيضه!

فكتبت لشدة اضطرابي كلمة «الحضيض» في أعلى الدائرة وكلمة «الأوج» في أسفلها، فصاح بي بشدة: اخرج، تنبل!

طار صوابي من هذه المعاملة، لاسيما أن حسين عوني قد أصبح أكبر من الوالي ومن المشير. وهو الآمر الناهي في الولاية، ولاترتد له كلمة. أمرني بالخروج فلم أفعل. فدارت بيننا مشادة تركتني على أثرها واقفاً بجانب اللوح، ودعا عدة

طلاب فحصهم وأنا واقف. ثم تداخل المميزون في الأمر وهدَّؤوا روعه، فألقى عليَّ بضعة أسئلة أخرى أجبت عليها ونجحت.

ثم جاء دور الفحص في «المواليد الثلاثة»، فأراد حسين عوني معاكستي ولكني نجحت أيضاً. وجاء دور الجبر فدخلت بدوري. فلما رآني ضحك وقال بصوت عالٍ: دوشدنمي (أي هل وقعت؟).

أجبت بالإيجاب، فألقى عليَّ مسألة ذات خمسة مجاهل ومعلوم واحد، فلم أقدر على حلها فأعطاني صفراً.

وأذكر أنني لمَّا لم أجب قال: خذ القلم وضع الرقم الذي تستحقه إلى جانب اسمك!

أخذت القلم ووضعت رقم عشرة، فضحك وأخذ القلم ووضع نقطة وهو يقول: صفر، صفر، صفر!

سقط بهذه المسألة تسعة تلامذة جاؤوا بعدي. وكان المعلّمون قد اجتمعوا خارج غرفة الفحص، وانهمكوا كلهم بحل المسألة. فحلها أخيراً الأستاذ خير الدين أفندي أنجوق، وأخذها عنه رفيقنا الدكتور علي الأبرش الصالحاني، فدخل الفحص وفاز بأوَّلية الجبر.

وفي دورة الإكمال[1] فحص حسين عوني جميع المُكملين، إلا أنا فإنه لم يقبل أن يفحصني حتى تداخل وكيلي علي أفندي السقا أميني، الذي ولاَّه أبي أمري منذ دخولي مدارس الحكومة، فقبل أن يفحصني. ولما دخلت عليه قال: إن صدقتني القول نجحتُكَ. هل أتيت بخنجرك؟

قلت: أي خنجر؟

قال: الذي تريد أن تقتلني به؟

---

(١) يعني الدور الثاني، وهي فرصة تعطى للراسبين في مادة أو مادَّتين لتقديم الامتحان بهما في أواخر فصل الصيف، حتّى لايضطر الطالب إلى إعادة السنة بكاملها.

فعرفتُ عندها أن أحد أخصامي في المدرسة وشى بي وشاية كاذبة، فقلت له: يا سيدي أنت من الأحرار، وكنت ضحية الوشاية، فهل تريد أن تسمع وشاية بتلميذ ضعيف، وأنت رئيس الأحرار في دمشق؟

فضحك وكتب على ورقة الإكمال رقم خمسة دون أن يفحصني وقال: اذهب إذن، وهذا الرقم هو «دفع بَلا» عن صحتي!

وقد علمت فيما بعد أن أحد الطلبة الأتراك هو الذي وشى بي إلى حسين عوني بك، انتقاماً مني بسبب الخصومة التي قامت بين الطلبة العرب والأتراك في معهد عنبر، مما وصفته في فصل سابق. وكانت هذه الوشاية سبب تنكر حُسين عوني لي في الامتحانات.

وبعدَ أن أديتُ فحص إكمال درس الجبر سنة ١٩٠٨ ونجحت فيه، أصبحتُ مأذوناً من المدرسة الإعدادية وحصلتُ على شهادتها، فأقيمت لي الأفراح والليالي الملاح.

وطلبت من والدي أن يرسلني إلى الأستانة لاتمام التحصيل العالي هناك، فوعدني بذلك إذا استقرت الحال بعد الانقلاب. وفي الانتظار انغمستُ في تيار الحركة التي انبثقت عن الانقلاب، ورحتُ أحضر كل حفلة تقام. ولم يكن لنا هم إلا انتقاد الخطباء.

وأقامت المدرسة الإعدادية بهذه المناسبة حفلةً خطب فيها مدير المعارف ومدير المدرسة وبعض المعلمين. وقد طلبتُ من المرحوم الدكتور عبد الرحمن الشهبندر أن يكتب لي خطاباً ألقيه في هذه الحفلة، فكتبه لي ونمقه، وجعل موضوعه «الحث على العلم». فكان أول خطاب ألقيته، وكان له وقع كبير على المستمعين، وممّن أثّر فيهم خطابي المرحوم أحمد الدالاتي، وكان لذلك صلة بزواجي في ما بعد.

رفاقي في الصف

بينما كانت الحوادث الآنفة الذكر جارية، كان رفاقي الذين تخرجوا من مكتب عنبر معي يستعدون للالتحاق بالمدارس العالية. وقد سافر أكثرهم إلى الآستانة. وكان عدد أبناء صفيّ الذين نالوا الشهادة معي ١٦ شخصاً، هم السادة:

سعيد الزيبق، علي الأبرش (أكمل الطب ونال الدكتوراه)، خالد جوجه، زكي القصيباتي، إبراهيم الترك، نسيب النابلسي (أنهى مدرسة الملكية)، مصطفى الترك، (أكمل الطب وصار طبيباً)، عثمان السمان (أصبح طبيباً)، ممدوح العابد، عبد الرحمن الرشيدات العجلوني (حصّل الحقوق)، جلال البخاري (حصل الحقوق)، محمود الصاحب (صار طبيباً)، محمد سيف الدين (حقوق)، فخري البارودي (صار متقاعداً)، توفيق الداوودي، مصطفى الصالحاني.

وطلبت إلى والدي إرسالي إلى الآستانة لإتمام تحصيلي، فوعدني بذلك، ولكنه أشار بالتريُّث إلى العام القادم، ريثما تهدأ الحالة هناك خشية أن تقع اضطرابات جديدة أذهب ضحيتها وأكّد لي أنه سوف يرسلني حتماً عندما يستقر الحال، فصبرت على مضض. وطلبت منه أن يجد لي عملاً مؤقتاً، حتى لا أبقى عاطلاً فالتزم لي «عُشْر» قرية منين، وجبيته ذلك العام. وهكذا مرت سنة ١٩٠٩ والاضطرابات لما تنته في الآستانة.



فخري بك البارودي الحاجب لجلالة الملك المعظم

الانقلاب العثماني

الاتّحاد والترقي

في السنة ١٣٢٣ -١٣٢٤ مالية[1]، أي في العام ١٩٠٨، وقع الانقلاب العثماني، وكنّا يومئذٍ في الصف السابع الأخير، والسنة على وشك الانتهاء، فقامت القيامة، وخرج المنادون ينادون في الأسواق بإعلان الدستور، والحرية والمساواة والعدالة، وأُقيمت الزينات، وراح الناسُ يهتفون مع الهاتفين، دون أن يفهموا شيئاً ممّا جرى، وما أقل الذين كانوا يفهمون معنى الحريَّة التي ينادون بها.

وقد قامت بالانقلاب جمعية الاتحاد والترقّي، التي كانت سرّيّةً حتى وقع الانقلابُ، فظهرت علناً، وكان على رأس رجالها: نيازي وأنور.

وفي مدَّة قليلة تشكلت لها فروع في جميع الولايات، وساعد على تشكيلها الموظفون الذين نفاهم عبد الحميد من الآستانة.

وقد وصل خبر الانقلاب العثماني من الآستانة مساء ١١ تموز، فأعلنته حكومة الولاية في الساعة الحادية عشرة ليلاً، وفي الصباح التالي -وكان يوم سبت- نادى المنادون به.

(١) السنة المالية العثمانية تقوم على الشهور الميلادية والسنة الهجرية، وبداية السنة فيها هي شهر آذار. وقد طبقت للمرة الأولى سنة ١٢٥٦هـ= سنة ١٨٤٠ ميلادية، وكان الفرق بينهما آنذاك يساوي ٥٨٤ سنة. ولذلك فإننا بإضافة هذا الرقم إلى السنة المالية المذكورة نحصل على التاريخ الميلادي ما لم يكن شهر كانون الثاني وشباط فنضيف ٥٨٥ سنة.

وقد أسقط في أيدي رجال الحكومة المحلية. وحاروا في تعيين موقفهم من رجال المعارضة بعد هذا الانقلاب. وقد سارع كثيرون منهم إلى تبديل خطتهم، وتقربوا من الأحرار الذين استلموا فرع جمعية الاتحاد والترقي في دمشق، وعلى رأسهم حسين عوني بك.

أما أعضاء الفرع فكانوا خليطاً من العسكريين والملكيين، وفيهم بعض أبناء دمشق، فكان من الأعضاء العاملين: بهاء الدين بك المناسترلي وأسعد بك أركان حرب، الذي تعيَّن بعد الدستور مديراً للشرطة في دمشق، وهو من أسرة الدرويش من طرابلس الشام، المنتمية إلى آل قرقماز.

وكان من أعضاء الفرع السيدأحمد إيبش، ومن الأعضاء المساعدين مجيد باشا العظم وعبد الرحمن باشا اليوسف[1] وجبران لويس.. وغيرهم.

أما المثقفون من أبناء البلاد فإنهم ساروا بهذا التيار ومشوا مع أحرار الأتراك ينادون مثلهم، ويخطبون ويرشدون الناس إلى تفسير ما غاب عنهم تفسيره من الكلمات الجديدة: حريت، مساوات، عدالت، أخوَّت (أي: الحرية والمساواة والعدالة والأُخوة).

وَجدت هذه الكلمات صدى في نفوس الناس، وراح الاتحاديون ينادون بالإخاء، فيجمعون رجال الأديان المختلفة، ويطلبون إليهم أن يتعانقوا بعضهم مع بعض، ويخطبون بعد العناق بتأييد هذا الإخاء. وكان أكثر التأييد على ما أظن ظاهرياً لأن حال البلاد بعد إعلان الحرية ظل على ما هو عليه، ولم يتغير فيها إلا الكلمات أي بدلاً من «بادشاهم جوق يشا»، أصبحوا ينادون «يشاسون حريت» أما الإدارة ومعاملات دوائر الدولة فلم تتبدَّل!

---

(١) عبد الرحمن بن محمّد اليوسف، من أعيان الأكراد في دمشق، وسبط سعيد باشا شمدين أمير الحاج الشامي، الذي تنازل له عن أمواله، ثم خلفه في إمارة الحج. وفي عهد الانتداب عيّن رئيساً لمجلس الشورى، وقد ذُبح في خربة الغزالة في حوران يوم ٢١آب سنة ١٩٢٠ مع رئيس الوزراء علاء الدين الدروبي.

وقد ساعد الاتحاديين على نشر دعايتهم اللوج الماسوني الذي كان مغلقاً قبل الدستور. وكان مربوطاً بالمحفل الإيطالي. ومن أركانه المرحوم الأمير عبد القادر الجزائري. وبعد الانقلاب فتح المحفل أبوابه وجمع الأعضاء شملهم، وأسسوا محفلاً جديداً أسموه محفل «نور دمشق» وربطوه بالمحفل الاسكتلندي. وقد تعاقب على رئاسته السادة مصطفى السباعي الخطاط المشهور، ثم جبران لويس ثم غالب شاوول مدير البنك العثماني، ثم الأستاذ فارس الخوري، وهو من أعضاء شلة الأحرار تلامذة الشيخ طاهر الجزائري، وبعد نشاط قصير عادوا فأغلقوا المحفل، ومايزال مغلقاً إلى الآن.

ظهور الخطباء

استمر الابتهاج بالانقلاب زمناً طويلاً، وراح الناس يتسابقون في إقامة المهرجانات، فيقوم فيها الخطباء ويستفزون حماسة الجماهير بالعبارات الرنانة المزوّقة.

لم يكن في دمشق في ذلك التاريخ خطباء بالمعنى المقصود من الخطابة. وكان خطباء المساجد موظفين يقرؤون أيام الجمعة الكراسات المطبوعة. وكانت خطبة المساجد في العهد العثماني واحدة، وهي الخطب التي وضعها ابن نباته منذ ألف سنة.

أما الخطباء المدنيّون فلم نكن نعرف عنهم شيئاً. ولم أسمع في عمري خطيباً خارج المساجد إلا عند إعلان الانقلاب، حيث قام شبان الأتراك يخطبون باللغة التركية، وخريجو المدارس العالية من أبنائنا يخطبون باللغة العربية، ومنهم السادة الانكليزي[1] والشهبندر[2] وفارس الخوري[3]. وكانوا يؤثّرون على الجماهير بأقوالهم، ويسترسلون في الحديث عن الحرية ومعانيها.

(١) عبد الوهاب الانكليزي، من شهداء الثورة العربية المعروفين سنة١٩١٦م.

(٢) عبد الرحمن الشهبندر، طبيب ومجاهد مشهور، كان خطيباً من الطراز الأول، اغتيل يوم ٦ تموز سنة١٩٤٠ بدمشق عن ٦١ سنة، ولحسن الحكيم كتاب قيّم عنه.

(٣) من رجال الثورة العربية، ورجال الأدب والقانون، ترأس المجلس النيابي السوري مرات، وترأس الوزارة، وتوفي سنة١٩٦٢ عن ٨٩سنة.

ومن أطرف ما وقع في هذا الموضوع أن ضابطاً من أبناء دمشق يدعى أحمد جودت كان من أشد المتحمسين للحرية، فراح يعدو من حي إلى حي ليفهم الناس معنى الانقلاب. وقد رأيته ليلة في حي الميدان يخطب باللهجة العامية، فحمل على أحمد عزت باشا العابد[1] حملة شعواء، واتهمه بكل شنيعة.

وكان عزت باشا من أبناء الميدان، وأهل الميدان موصوفون بالرجولة، فاستاؤوا من التعرض لزعيمهم. فلما رأى الخطيب أن العين احمرت عليه، وسمع الهمهمة من كل جهة، أحسَّ بالخطر. فطلب إلى ضابط الجوقة الموسيقية العسكرية أن تتهيأ للعزف، وقال:

أتعرفون يا إخوان ما هي الحرية؟ الحرية غزالة مسجونة في قفص، فتحوا لها الباب وفرت... فرت إلى الصحراء. هذه هي الحرية!

ثم التفت إلى الجوقة وقال: «مزيكة دقي!» فالتهى الناس بأنغامها ونزل الخطيب عن المنبر وتوارى!

المشير فؤاد باشا وعبد الرحمن الشهبندر

كان بين كبار الأتراك المنفيين في دمشق المشير فؤاد باشا، المعروف بـ«دلي فؤاد»، أي فؤاد المجنون، وقد نفاه السلطان عبد الحميد عن الآستانة إلى دمشق. فسجن في البناية التي كانت يومئذٍ نادياً للضباط، وهي قرب الثكنة العسكرية. وقد أصبحت اليوم جزءاً من الجامعة السورية.

ولما أعلنت الحرية لم يطلق سراحه، ولذلك ذهب الأستاذ فارس الخوري وأسعد بك أركان حرب إلى مدّعي عام الولاية، وطلبا إليه إخلاء سبيل فؤاد باشا، فأجاب: لم تصلني أوامر من الآستانة!

---

(١) من رجال السلطان عبد الحميد المقرَّبين، ومن أشهر آثاره في دمشق: الخط الحديدي الحجازي وبناء «العابد» في ساحة المرجة والمسمّى اليوم بـ: المنزل. توفي في مصر سنة ١٩٢٤ عن ٦٩ سنة، ودُفن في دمشق، وللناس فيه آراء متباينة.

قالوا: أي أوامر تنتظر؟ هل بيدك أمر مخطوط بسجنه؟

فلما أجاب سلباً، قالوا: إذن القانون يمنعك من إبقائه في السجن!

وعلى الأثر ذهب المدعي العام مع السيدين الخوري وأسعد قرقماز وأخرجوا المشير من سجنه، ولا أدري أين ذهبوا به، ولكن الذي أعرفه أنهم أقاموا له حفلة تكريم في حديقة الدفتر دار، وهي الحديقة الواقعة أمام مدرسة التجهيز الأولى[1]، عزفت فيها الموسيقا العسكرية، وخطب فيها الخطباء، وسمعنا فيها المرحوم الدكتور عبد الرحمن الشهبندر يخطب لأول مرة في دمشق.

وأذكر أنه أخرج منديله وطلب إلى الناس إخراج مناديلهم، وصار يلوح بمناديله ويقول: اعملوا مثلما أعمل! فصار الناس يلوحون بمناديلهم، فكانت هذه العملية مثاراً لانتقاد بعض الأوساط الناقمة على هذا الدور.

ومن ألطف ما جرى بهذه الحفلة أنهم كلفوا بعض الوجهاء بإلقاء كلمة في هذه الحفلة. ولما كان أكثرهم لم يقفوا على المنابر في حياتهم، فقد تلعثموا، ومنهم الأمير علي عبد القادر الجزائري، الذي قرأ خطاباً مكتوباً، وكان نور السراج ضعيفاً، فوصل إلى كلمة لم يتمكن من قراءتها، فنادى بأعلى صوته «مطموسة»، وترك الكلمة واستمر في قراءة الخطاب، فكان لهذه النكتة وقع جميل. وصفق له الحاضرون طويلاً!

---

(١) ثانوية جودت الهاشمي اليوم.



الدكتور سعيد طليع مندوب طرابلس في المؤتمر السوري وواضع هذا الأثر التاريخي

حكاية الشيخ رشيد رضا في دمشق سنة ١٩٠٨

كان طبيعياً ألا يرتضي السلطان عبد الحميد العهد الذي فرضه عليه الانقلاب، وهو الذي اشتهر بجبروته العظيم وملكه الواسع. وكان الموت والحياة بين شفتيه، إن ركب مشى الأكابر في ركابه، وإن نزل وقفوا ببابه وخضعوا لموظفيه، بل وخدامه.

وكانت إدارة البلاد في عهده بأيدي المتسلطين من الأعيان والوجهاء والحشوية من الشيوخ والسفطاء، فانقطع رزقهم بعد الانقلاب، وتهدم نفوذهم، وأضحَوْا مشردين في الآفاق. وعقب الصدمة الأولى استعادوا جأشهم، فألف بعض رجال الدين بالاتفاق مع رجال عبد الحميد المعزولين وبتشجيع السلطان نفسه، حركة خفية، ظهرت بعد شهور من الانقلاب باسم «الجمعية المحمدية» في الولايات والعاصمة. وقد استطاعوا أن يستميلوا كثيراً من العوام، وراحوا يحاولون هدم ما أنشأه الأحرار العثمانيون.

وكان يترأس هؤلاء الرجعيين في دمشق أحد رجال الشيخ أبي الهدى الصيَّادي الحلبي[1]، فراح يتهجَّم على الأحرار، ويحرض الناس عليهم، فتصدى

---

(١) محمد بن الحسن، الصيادي الرفاعي. أبو الهدى. ولد في خان شيخون سنة١٨٤٩م وتولى نقابة الأشراف في حلب ثم قلَّدهُ السلطان عبد الحميد مشيخة الشيوخ وصار من أقرب المقرّبين إليه، وكانت له الكلمة العليا في تعيين القضاة والعلماء والمدرسين طوال ثلاثين عاماً، وبسقوط سيده النهائي سنة١٩٠٩، نفي إلى جزيرة الأمراء حيث مات في العام نفسه. وله مؤلفات عديدة.

له المرحوم الشيخ رشيد رضا[1]، وهو من أحرار العرب الميامين الذين جاهدوا لرفع الظلم وبث الإصلاح.

وذات يوم ألقى السيد رشيد عظةً في الجامع الأموي داعياً إلى إصلاح الدين، فنهض رجل يدعى الشيخ صالح التونسي، وراح يخطب في المسجد ضد الشيخ رشيد.

وقد أتى المرحوم الأمير شكيب أرسلان[2] على ذكر هذه الحادثة في كتابه «السيد رشيد رضا، أو إخاء أربعين سنة»، فقال:

«ذهب الشيخ إلى دمشق عند إعلان الدستور، وهناك ألقى درساً يتعلق بالعقيدة، ذهب الشيخ صالح الشريف التونسي -وكان حاضراً ذلك الدرس - إلى أن فيه تعرُّضاً للأولياء، وأن فيه شيئاً من الوهَّابية. وتكلم الشيخ بشدة، فمال الجمهور ممَّن يقال لهم «الحشوية» إلى كلام الشيخ صالح. كما أن أصحاب النزعة الجديدة والدستوريين مالوا إلى كلام الشيخ رشيد رضا. وحصل ضجة عظيمة في الجامع، واتصلت بالحكومة فاستدعت الشيخ صالح إلى دائرة البوليس بحجَّة أنه اعتدى على الشيخ رشيد وأنه كفَّره.

فشاع في دمشق أن الشيخ التونسي اعتُقل، وأوجب ذلك هياج العامة فاجتمعوا وجاؤوا لتخليص الشيخ صالح من السجن. والحقيقة أنه لم يكن قد سجن بل استوقفوه بحجة أنه هو الذي تعرَّض للشيخ رشيد. ولما رأى الوالي هذه الحالة، وخاف الهرج والمرج، ركب العربة وأجلس الشيخ صالح بجانبه.

وإنني لم أحضر تلك الواقعة ولكنني سمعت خبرها».

هذه رواية الأمير شكيب عن الحادث. أما أنا فقد حضرت الواقعة فأرويها كما شهدتها:

---

(١) من تلاميذ الإمام الشيخ محمد عبده وصاحب المنار، وهو أشهر من أن يعرَّف، توفي ودفن في القاهرة سنة١٩٣٥ عن سبعين عاماً.

(٢) من كبار علماء الشام، ومن الإسلاميين المتحررين. توفي سنة ١٩٤٦ عن ٧٧عاماً.

ألقى الشيخ رشيد رضا في ٢٦ رمضان سنة١٣٢٦ درساً تحت قبة النسر كان له وقع بليغ على الأهلين. فتداعى الناس في اليوم الثاني (أي ٢٧ منه) إلى المسجد ليسمعوا هذا الشيخ الفاضل، وكثر الجمعُ حتى قُدِّر بالألوف.

وبينما كان الشيخ يلقي درسه ويشرح الآيات والأحاديث ويطلب إلى الناس الرجوع إلى سيرة الصحابة، واتباع أوامر النبي والعمل بها، إلى غير ذلك من النصائح والإرشادات، وإذا بشيخ مغربي يدعى الشيخ صالح الشريف التونسي يشق طريقاً بين الواقفين حتى وصل إلى وسط الحلقة ووقف خلف الجالسين من المستمعين والشرُّ بادٍ في عينيه. وبعد أن وقف قليلاً يستمعُ ويجيل نظره بالحاضرين كأنه يزن الموقف صاح بصوته: أيها المسلمون اسمعوا لي كلمتين!

فالتفت الناس جميعهم إليه، وسكت الشيخ رشيد، فراح الشيخ صالح يحذّر من الوهابية ويقول: «وإياكم أن يُضلّوكم عن دينكم، ومنهم هذا الشيخ -وأشار إلى الشيخ رشيد- الذي يحرِّمُ زيارة قبور الأنبياء والأولياء والصالحين، ويمنع التوسل بهم ولا يعتقد بكراماتهم. فهذا فعل الوهابية، فأنا أحذّركم منه. فالأنبياء والأولياء والصالحون يقرّبون الإنسان إلى الله، ويقضون حوائج الناس إذا سمعوا الدعاء.. إلخ».

وهناك وقف الشيخ رشيد ليرد عليه وليثبت للحاضرين أنه لم يذكر ما قاله الشيخ في درسه. ولكن الناس كانوا قد هاجوا وماجوا. وكان بين الحاضرين عثمان بك العظم والقومسير يحيى أفندي تللو، وغيرهما من الشبان المنورين، فالتفوا حول الشيخ رشيد وأخرجوه من الجامع، وخرج الناس من المسجد إلى الشارع بهياج عظيم، فذهبتُ إلى داري.

وبعد الفطور سمعنا الضوضاء تأتي من الشوارع، وإذا بأهل الأحياء قد خرجوا بمظاهرات مسلّحة نحو سراي الحكومة[1] يهتفون بسقوط مدير الشرطة العام

(١) هي التي تشغلها اليوم وزارة الداخلية، بنيت كما هو مدوّن عليها سنة١٣١٨/ سنة١٩٠٠م في عهد الوالي حسين ناظم باشا، وقبل ذلك كان مقرّ الولاة في بناء الوالي كشيخ يوسف باشا في مكان بناء العابد، وقبله كان في مبنى المشيرية -القصر العدلي اليوم- وقبل ذلك كان في دار السعادة في سوق الحميدية، وهو من العصر المملوكي.

أسعد بك، وسقوط جمعية الاتحاد والترقي. ومنهم من كان ينادي بسقوط «جمعيَّة التفريق والتدني». واجتمع ألوف الناس في ساحة المرجة. وكان والي سورية يومذاك هو شكري باشا[1]، وقد أسماه الدمشقيون «شكرية خانم» لضعف شخصيته إذ كان يحكم الشام بالفعل أسعد بك المذكور.

وهجم المتظاهرون على دائرة الحكومة لإخراج الشيخ صالح من النظارة، وتعالت الأصوات: «اقتلوهم! اقتلوهم!». واتجه قسم من المتظاهرين وأراد كسر باب الغرفة التي كان فيها أسعد بك مدير الشرطة العام. وقبل أن يصلوا إلى غرفته ركض السيد شكري الطباع، وهو من «قبضايات» حي القنوات ووقف أمام باب غرفة أسعد بك، وفتح ذراعيه ووضعهما على عضائد الباب قائلاً: لا يصل أحد إلى أسعد بك إلا على جثتي!

وانبرى أبناء محلته يردون الناس عن باب الغرفة إلى أن تمكنوا من إنقاذ من في داخلها. وكان من بينهم الدكتور حسين حيدر من بعلبك، وعمر فرحات مدير شرطة دمشق. وعلى الأثر هرب أسعد بك إلى بيروت.

هذه الفتنة كانت ولا ريب مبيتة ضد جمعية الاتحاد والترقي، وساعد الجهل على إذكائها، ونجح الرجعيون بمؤامرتهم التي قاموا بها خلف ستار الدين. وبعد المظاهرة نزل الوالي شكري باشا إلى دائرة الشرطة وأخرج الشيخ صالح، وركب وإياه عربته الخاصة، ودار به شوارع البلدة، ليرى الناس أن الشيخ أطلق سراحه. وهكذا انتهت الفتنة، ولكن ذيولها لم تنقطع.

أحمد كمكوم

هذا الحديث عن الهجوم على السراي يجرني إلى حديث آخر، من نوع شخصي. ذلك أنني شاهدت ذلك الهجوم برفقة رجل مولَّج بالمحافظة علي، يدعى «أحمد كمكوم». ولهذا الشاب حكاية أخرى. أود أن أسردها على القراء، للتدليل على بعض مظاهر العهد الذي نشأ فيه جيلنا.

(١) حكم بين ١٣٢٥ و١٣٢٧، وخلفه حسين ناظم باشا في ولايته الثانية.

كان أحمد هذا، نجل جندي مصري من جنود إبراهيم باشا، تخلَّف في دمشق واستوطنها، ويدعى سليم كمكوم. وكان له ثلاث أخوات. فلما بلغ العاشرة من عمره. غضب على أخته الكبرى -وعمرها ست سنوات- فخنقها. ثم ذهب وخنق الثانية، ثم وضع وسادة على رأس الثالثة وجلس عليها حتى ماتت. وبعد ذلك ذهب إلى والده يبلغه أنه قتل أخواته الثلاث، خوفاً من عارهن عندما يكبرن!

انهال أبوه عليه بالضرب، وصدف أن مرَّ في تلك الساعة جدي محمد حسن البارودي، فخلَّص الولد منه وأخذه إلى داره، لأنه صغير لايعي مايفعل، فرباه عنده وأصبح «قبضاياً» مرهوب الجانب.

وذات يوم تشاجر أحمد مع شاب أخرس، فقتله بطعنة خنجر عن غير قصد، فالتجأ إلى دارنا، وحماه جدي من الحكومة، حتى هدأت الأعصاب، واستطاع والدي استرضاء والدي القتيل بدفع الدية.

بعد ذلك عاش أحمد كمكوم في دارنا. أقسم أنه سيمسح أحذية العائلة البارودية حتى الموت. وكان يأتي كل أسبوع بصندوق البويا ويمسح أحذيتنا، ويدعو الله ألا يميته إلا على دارنا.

وذات يوم، وكان قد تجاوز الثمانين، شعر بقرب منيَّته، فطلب إلى زوجته أن تقوده إلى دارنا، حيث جلس أمام باب الإسطبل، وبعد دقائق أسلم الروح هناك.

وكان كمكوم يحترف صنعة «البسطاطية»، أي بيع الحوائج القديمة، كأدوات النجارة والحدادة، وماأشبه ذلك من مطارق ومناشير وأمواس. وكان يبيع حاجاته بالرخص لأن بعضها «لُقَطَة» أو مسروق. وكان البسطاطيون من أشقى فتيان دمشق. ومنذ عشرين سنة تقريباً انتظمت هذه الحرفة، وفتحوا لها الحوانيت، وهي رائجة اليوم في سوق الدرويشية.

أثناء السنوات السبع التي قضيتها في مكتب عنبر، لم أنل أية إجازة استثنائية، بسبب «شيطنتي»، إلا يوم أنعم السلطان عبد الحميد على خال والدي عطا البكري برتبة الباشوية. وعندئذ تعطَّف مدير المدرسة، وأجازني ثلاثة أيام. ولم يبق يومئذ في دمشق أحد من الأصدقاء والأحباب إلا شاركنا بأفراحنا. ولاعجب فإن الحصول على الباشوية في تلك الأيام كان حدثاً عظيماً، لأن مقاييس الدنيا كانت يومئذٍ رتباً وألقاباً!

لما كانت الرتب تعطى من الآستانة، فقد كان أكثر الذين يحظون بها من موظفي الدولة الأتراك، خصوصاً من أبناء الآستانة نفسها، وممن يتعين فيها من أبناء الولايات. وكانوا يسمّون الأقطار الخارجة عن العاصمة «طشرة». وكان لقب الباشوية يُعطى لكل من يصبح وزيراً، ولو لم يكن تركياً، أي من «الطشرلية».

وكان وجوه البلاد من الأغنياء يطمعون بنيل الرتب، مع أنها رتب فخرية لا راتب لها. ومع الزمن ولدت مهنة جديدة، هي مهنة السماسرة الذين يتولون الوساطة بين طالب الباشوية وبين إستانبول، لبيع اللقب بالمال. وفي أواخر أيام السطان عبد الحميد بلغ ثمن الباشوية مائتي ليرة ذهبية عثمانية. وهو مبلغ كبير بالنسبة إلى ذلك العهد.

عرفت سمساراً للرتب باع رتباً كثيرة في دمشق. فكان إذا اختلف مع أحد الباشوات أعلن بصوت جهوري على الملأ أنه سيسحب الباشوية من فلان، لأنه هو الذي أتاه بها!

ركبت يوماً مع والدي قاصدين إلى دوما، حتى وصلنا إلى قطعة أرض تدعى «البحصة»، فوقفنا أمامها. وكان العمال ينصبون فيها مروشاً، أي نصب زيتون، فالتقينا هناك بسمسار مشهور بتدبير الألقاب، فقال لوالدي: مارأيك يا أبا فخري بباشوية بمائتي ليرة عثمانية؟

فضحك والدي وقال: إن «مروشة» واحدة من هذه الشجيرات تساوي عندي جميع الرتب الحكومية!

كانت الرتب يومئذٍ على ثلاثة أقسام: ملكية، وعسكرية، وعلمية. وكانت تعطى بفرمان، أي بمرسوم ملكي يصدر عن السلطان، وهي على درجات متفاوتة، وإذا وجد صاحبا درجة واحدة يتقدم صاحب الرتبة السابقة بالتاريخ زميله حامل نفس الرتبة. ولكل رتبة لباس خاص منقوش بالسيم المعروف عندنا بـ«الصرمة» أي القصب.

أما الأعياد والأيام الرسمية التي كانوا يرتدون فيها لباس التشريفات، فهي عيد الأضحى وعيد الفطر وعيدا جلوس السلطان وولادته، ويوم خروج المحمل من دمشق، وعودته إليها.

وكان أصحاب الرتب يفرحون في المواسم الرسمية فرح الأولاد بالأعياد، فيقضون الليل في تعهد لباس التشريفات بالمسح والكي، وتلميع السيم بالزيت لإزالة الصدأ عنه.

حدثني مرةً صديقي المرحوم تيمور باشا[1] فقال: في أحد أيام المراسم أخرجتُ لباس التشريفة لتهيئته، وإذا بولدي الصغير يركض ويمسك بالرداء، ويصرُّ على أن يلبسه. وعبثاً حاولنا إقناعه بالعدول عن هذا الطلب، فقال لي الصغير: لمن تكون زخارف القصب، أللصغار أم للكبار؟

قال أحمد تيمور: ومن ذلك اليوم لم أعد أرتدي ذلك اللباس!

وفيمايلي تفصيل الرتب في العهد العثماني، مع تفصيل الرتب التي كانت تعطى لها:

الرتب الملكية

رتبة الوزارة: باشا، مير ميران أولى صنف ثاني باشا، رتبة أولى صنف أول

---

(١) من علماء عصر المرموقين، كانت داره ملتقى العلماء والأدباء والشعراء، وكانت عنده مكتبة عامرة أهداها إلى دار الكتب، وله مؤلفات عدَّة. توفي في القاهرة سنة ١٩٣٠ عن تسعةٍ وخمسين عاماً.

بك، رتبة ثانية صنف متمايز بك، رتبة ثانية صنف ثاني بك، رتبة ثالثة وركاب همايون وقيوجي باشي لغي أفندي، رتبة رابعة وخامسة أفندي.

الرتب العسكرية

مشير باشا، فريق أول باشا، فريق باشا، ميرالاي بك، عسكري قائمقامي بك، ألاي أميني وقول أغاسي أفندي أو آغا، يوزباشي آغا.

الرتب العلمية

كانت كلها «أفندي» وتعطى إلى: صدر روم إيلي، صدر أناطولي، حرمين شريفين مولويتي، بلاد خمسة مولويتي، مخرج مولويتي، موصلة سليمانية، خواجكان[1].

وِسَامُ الحمار

كما كان الأغنياء يتنافسون على الرتب، كانوا يتنافسون على الأوسمة العثمانية، ويدفعون ثمنها غالياً. وأذكر بمناسبة حديث الأوسمة حكاية وقعت يوم زار إمبراطور ألمانيا غليوم الثاني[2]، دمشق في سنة ١٨٩٨، فاسقبلته المدينة استقبالاً عظيماً.

---

(١) نُظِّمت هذه الرتب منذ عهد السلطان سليمان القانوني، وكانت رتب المدرسين على ١٢ درجة، ويُطلق على أصحاب الدرجات الست الدنيا اسم: صوفتة، بينما يطلق اسم الدانشمند على أصحاب الرتب العليا.

وبعد ذلك يلازم الخريج أحد العلماء ويتحوّل إلى مدرس، ثم يترقّع إلى رتبة القاضي، وأعلاها رتبة قضاء الرومللي، وأرفع الرتب العلمية الدينية بعد ذلك مشيخة الإسلام.

(٢) أو وليم، إمبراطور ألمانيا، زار دمشق قبل مائة عام، في عهد الوالي حسين ناظم باشا، وهو الذي أوحى له ببناء حيّ المهاجرين، بعد أن شاهد دمشق من «المصطبة» التي بُنيت له في قاسيون. تولّى الحكم سنة١٨٨٨ وعزُل سنة١٩١٨، وتوفي في هولندة سنة١٩٤١م عن ٨٢عاماً. أما زوجته الامبراطورة التي رافقته في زيارته فهي: أوغستا ڤيكتوريا التي توفيت ١٩٢٢م.

في أثناء الاستقبال لاحظت الإمبراطورة حماراً أبيض، فاستلفت نظرها، وطلبت إلى الوالي أن يأتيها به، لكي تأخذه معها ذكرى. فراح الوالي يبحث عن صاحب الحمار. فعلم أنه يخص أبا الخير آغا تللو. وكان الآغا من وجوه محلته، ويفاخر دائماً بأن له حبيبين: الحمار وحفيده حسني!

استدعى الوالي أبا الخير، وطلب إليه إهداء الحمار إلى الإمبراطورة، فاعتذر. فعرض عليه شراءه منه، فأصرَّ على الرفض. ولما اشتد الوالي في الإلحاح أجابه أبو الخير:

– يا أفندينا، إن لديَّ ستة رؤوس من الخيل الجياد، إن شئت قدمتها كلها إلى الامبراطورة هدية مني، أما الحمار فلا!

استغرب الوالي هذا الجواب، وسأله: ولماذا؟

قال: سيدي، إذا أخذوا الحمار إلى بلادهم فستكتب جرائد الدنيا عنه، ويصبح الحمار الشامي موضع النكتة وربما السخرية، فيقول الناس: إنّ إمبراطورة ألمانيا لم تجد في دمشق ما يعجبها غير الحمار. لذلك لن أقدمه إليها، ولن أبيعه!

ونقل الوالي الخبر إلى الإمبراطور والإمبراطورة، فضحكا كثيراً، وأعجبا بالجواب. وأصدر الإمبراطور أمره بمنح أبي الخير وساماً، فسماه «وسام الحمار» واشتهر أمره زمناً في دمشق!



محمد خيري افندي المحاسني فاضي دمشق

السلطان عَبدُ الحميد[1]

في العهد الذي نشأتُ فيه كان اسم واحد يتقدم على كل اسم، ولا يذكره الناس إلا بخشوع صادر عن رعب، هو اسم السلطان عبد الحميد الثاني بن عبد المجيد بن محمود الثاني. كانت والدته سرية أرمنية، ونشأ بين العبيد والسراري. واشتهر منذ صغره بحب الانفراد. وقد اتهمه الكتاب الأحرار بعد خلعه بكل نقيصة، ولم يذكروا له حسنة واحدة. على أن بعض الكتاب في أيام حكمه كانوا يصفونه بالحلم والشجاعة.

وعلى كل فقد كان عبد الحميد من أدهى ملوك هذا العصر وأذكاهم. ولو كان على جانب من العلم والثقافة لما وقع بما وقع فيه من خطيئات، ولما اعتمد في حاشيته المنافقين دون سواهم. وكان يستشير المنجمين المشعوذين والدجالين من شيوخ الدين، ويستخدم رهطاً من شياطين رجال السياسة ممن أتقنوا النفاق والمداجاة. وقد جمع حوله جيشاً من الجواسيس، وأطلق العيون في العاصمة والولايات بعد أن عطّل الدستور وأبعد الأحرار وحلَّ مجلس «المبعوثان» وسجن المثقَّفين.

وكان عبدُ الحميد يرهب الانتقام، فصار يصدق كل وشاية يحملها إليه

(١) وُلد في ٢١ أيلول سنة ١٨٤٢، وتولى الحكم سنة ١٨٧٦م، وخُلع من السلطنة يوم ١٤ نيسان سنة ١٩٠٩م، وتُوفّي معزولاً سنة ١٩١٨م، وللناس في حقّه آراء كثيرة. ويمكن القول إن من حكم قبله كانوا خيراً منه، وهو أفضل ممَّن جاء بعده بكثير.

جواسيسه. وقد عرف هؤلاء نقطة الضعف فيه، فراحوا يُكثرون من تلك التقارير التي تثير الأعصاب، ويزيدون استفزازه، حتى جعل همه من الدنيا محاربة الأحرار ومقاومتهم، والكيد لرجال الجمعيات الوطنية، إلى أن وقع الانقلاب، كما أسلفنا. ولما لم يقدر على تحمُّل الحكم الدستوري، رتَّب بواسطة رجاله حركة رجعية اسمها «الجمعية المحمدية»، انضم إليها رجال الدين، ورأس عليها أحد أعوانه الدرويش «وحدتي»، وانتصر لها كل ناقم على العهد الجديد.

وقد اتصل عملاء هذه الجمعية بالجيش، فنجحوا في اجتذاب بعض الرقباء في ثكنة «أولو قشلة» في الآستانة. وتظاهر الجنود وهجموا على مجلس المبعوثان وقتلوا بعض النواب، ومنهم المرحوم الأمير محمد أرسلان[1] شقيق المرحوم الأمير أمين أرسلان.

وهكذا استعاد الرجعيون السيطرة على الآستانة بفضل دسائس عبد الحميد. ولكن الأحرار سارعوا إلى إرسال جيشهم من سلانيك، فوصل إلى الآستانة وأطفأ الفتنة، وخلع عبد الحميد عن عرشه.

ومما يؤسف له أن الأحرار لم يختاروا لتبليغ قرار الخلع إلى عبد الحميد -وهو سلطان المسلمين- غير عمانوئيل قره صو[2]، وهو زعيم يهود سلانيك. وكانت وقعت له حادثة تاريخية مع عبد الحميد، طرده على إثرها من القصر.

ففي سنة ١٩٠٠ دخل قره صو على السلطان، بفضل القرين عارف بك، وأبلغه أنه موفد من قبل الجمعية العالمية الصهيونية، وأنه قادم يطلب إليه إعطاء تلك الجمعية الأراضي الواقعة في المثلث القائم ما بين يافا وغزة والبحر الميت، مقابل خمسة ملايين ليرة عثمانية ذهبية تدفعها الجمعية الصهيونية هدية إلى الخزينة

---

(١) نائب اللاذقية، قُتل خطأ لظنّ المهاجمين أنه حسن جاهد بك صاحب جريدة طنين، لسان حال الحزب.

(٢) بقيادة محمود شوكت باشا. وهو عربي من بغداد، قتله رجال الاتحاد أنفسهم سنة ١٩١٣. وكان معه: أسعد طويطاني الألباني، والفريق عارف حكمت، وآرام أفندي الأرمني.

الخاصة، وعشرين مليوناً تقرضها الجمعية إلى الحكومة دون فائدة لمدة تعينها الحكومة، فغضب السلطان وطرده من حضرته.

وعلى الأثر ألف اليهود جمعية سريّة أكثر أعضائها من اليهود المعروفين بالدونمة[1]. فاتصلت بأحرار الأتراك، ودخل أعضاؤها حزب الاتحاد والترقّي، وتعاونوا مع كثيرين من شبان الضباط كأنور ونيازي. وكان لهم اليد الطولى في الانقلاب الثاني وخلع عبد الحميد.

وظل اليهود ذوي نفوذ قوي في أوساط الاتحاديين، وكانوا في جملة العناصر التي بثت الفساد في الشعب التركي وفي حكامه.

مقهى: الله كريم

بعد خلع السلطان عبد الحميد، أحال الاتحاديون على التقاعد قسماً كبيراً من الضباط الذين ناصروه.

وكان الضباط المتقاعدون في دمشق يجتمعون في مقهى البغا، قرب جامع «يليغا» الواقع بين محلتي البحصة وسوق الخيل. فلما انضم إليهم الضباط الحميديون المتقاعدون تزايد عددهم، حتى أصبح ذلك المقهى خاصاً بهم تقريباً.

وكانوا يجلسون فيه طول النهار، حتى إذا مرَّ أمامهم ضابط حديث، يتبادلون النظرات ويرددون: «الله كريم!»، أملاً منهم في أن يعود عبد الحميد إلى العرش ويعودوا معه إلى مناصبهم. ولكن عهد عبد الحميد لم يعد، ولم يبق لهم من آمالهم سوى عبارة «الله كريم»! التي أصبحت اسماً للمقهى.

الدستور العثماني

تحدثت كثيراً عن الانقلاب الذي أدى إلى إعلان الدستور. والواقع أن

---

(١) يهود إسبانيا الذين أقاموا في سلانيك، كانت أسماؤهم إسلامية وديانتهم يهودية وينتسبون إلى «سباتاي سيفي»، ومنهم جاويد بك وغيره من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي.

الحكومة العثمانية أعلنت الدستور أول مرة سنة١٨٧٦ . وكان مؤلفاً يومئذٍ من ١١٩ مادة، أهم مافيها بالنسبة إلى ذلك العهد :

١- المساواة بين الرعية على مختلف المذاهب والأديان .

٢- حرية التعليم، على أن يكون إجبارياً، وحرية المطبوعات .

٣- إلغاء السخرة ومنع المصادرة والتعذيب .

٤- جعل اللغة التركية اللغة الرسمية للدولة .

ولكن السلطان عبد الحميد لم يلبث أن تنكَّر للدستور الذي أعلنه، فألغاه في ١٤ شباط ١٨٧٨، أي بعد إعلانه بسنة واحدة[1]، وظل يحكم البلاد حكماً استبدادياً حتى وقع الانقلاب سنة١٩٠٨ .

وقد قرأتُ في مجلة «الهلال» في العدد العاشر من المجلد السابع عشر، مقالاً عن أسباب إلغاء الدستور سنة١٨٧٨ وحل مجلس «المبعوثان»، يلقي التبعة على جهل الشعب لحقوقه وواجباته، إذ لم يكن يفهم معنى الدستور والانتخابات .

وكان النواب مجموعة قوميات، فمنهم التركي والعربي والسرياني والبلغاري والبوسني والسلافي والصربي والفلاخي والفارسي والكردي، ولكل منهم لغة مستقلة كما كانت أديانهم متباينة. وقد كان هذا التباين سبباً في مشاكل مذهبية، اتخذها السُّلطان ذريعة لحل المجلس .

(١) في ٢٤ تشرين الأول سنة١٨٧٦ أصدر السلطان عبد الحميد مرسوماً بعقد مجلس للأمة. وفي ٤ آذار سنة١٨٧٧م اجتمع هذا المجلس، ثم ألغي في شباط سنة١٨٧٨ .

حطّ بالخرج

لم تمض مدة قليلة على الانقلاب، إلا وأصبحت كلمة الحرية على كل لسان، بعد أن كانت محظورة في عهد عبد الحميد، بيد أن الكثيرين أساؤوا استعمالها، ظناً منهم بأن الحرية غير محدودة.

وكانت الصحافة قُبيل هذا الدور غير معروفة، عديمة الأثر. ولم يكن منها في دمشق غير صحيفة واحدة اسمها «الشام» كان يصدرها مصطفى أفندي الشقللي، مرة في الأسبوع.

وكان الدمشقيون يسمون الجريدة «كزيطة»، وهي تحريف كلمة «غازيتا» الإيطالية. ومايزال بعض الشيوخ من عوام الدور الحميدي يسمون الجريدة «كزيطة» إلى اليوم.

بإعلان الدستور العثماني، فتح باب الصحافة على مصراعيه. فصدرت في دمشق أول جريدة يومية متزنة وطنية هي جريدة «المقتبس»[1] للأستاذ محمد بك كردعلي. وكانت إدارتها مجمعاً للعلماء والأدباء والمفكرين من العرب على اختلاف أقطارهم. ومما لاشك فيه أنها كانت الأولى التي نبهت أذهان الناس إلى واجبهم نحو وطنهم. وإذا كان من فضلٍ لأحدٍ عليَّ في توجيهي من الناحية الوطنية، فهو أولاً للشيخ طاهر الجزائري المغربي أستاذنا، وإلى تلامذته الأحرار، ومنهم الأستاذ كردعلي الذي صحبته مدة غير يسيرة من الزمن، علّمني خلالها كيف أطالب بالحق وأنادي به.

---

(١) صدر العدد الأول منها يوم ١٧ كانون الأول سنة ١٩٠٨، وكان الأستاذ أحمد كردعلي، يتناوب مع شقيقه العلامة محمد كردعلي التحرير فيها.

وفي العام ١٩٠٩ خطر لي أن أصدر جريدة. وهكذا دون أن أستشير أحداً، أصدرت جريدة أسميتها «حط بالخرج»[1]، وكانت أول جريدة فكاهية صدرت في دمشق، أخرجتها دون أن أحصل على رخصة من الحكومة، لأنني كنت أجهل أن إصدار الجرائد يحتاج للرخصة، كما أنني كنت أتوهم أن رأس مال الجريدة لايزيد عن قلم وورقة.

وفعلاً أصدرت العددين الأولين بتوقيع «عزرائيل»، فراجا رواجاً كبيراً، وكنت أحررها باللهجة العامية.

ولما عرف والدي بالأمر، قامت قيامته، وغضب غضباً شديداً، وأقسم أن يطردني إذا نشرت اسمي صريحاً على الجريدة. وعلى الأثر اتفقت مع المرحوم «الدده» عارف الهبل على أن يضع اسمه في الجريدة، وأن يتخذ صفة مديرها المسؤول، على أن أتابع أنا تحريرها، فقبل. وهكذا وضعنا اسمه في العدد الثالث، واستمرت الجريدة في الصدور، فكان لها ضجة في مختلف الأوساط.

ولما كنت أجهل أصول الصحف الفكاهية، فقد استحضرت من القاهرة ما توصلتُ إليه من الجرائد الفكاهية الصادرة هناك، كجريدة «أبي نظارة» وجريدة «المسمار» وغيرهما، وجعلت أسير على نهجهما، مما لم يكن معروفاً في دمشق قبلاً.

ولما راجت الجريدة، ومال الناس إلى هذا النوع من الكتابة، أخذ بعض الشبان يصدرون جرائد فكاهية أخرى. فلما رأيت أن الجرائد قد تبذّلت، وأن أصحاب الجرائد يبيعون أنفسهم للاتحاديين مقابل عشرين ليرة عثمانية في الشهر، تركتُ جريدتي وانقطعت عنها.

وكان الأستاذ كردعلي قد دعاني مراراً إلى العمل معه «المقتبس»، فاعتذرت بانشغالي بجريدتي. فلما تركت جريدتي لبيت دعوته، وقضيت عنده في «المقتبس» مدة تزيد عن السنة، تمرنت خلالها على الترجمة من التركية إلى العربية. وكان يصحح لي أغلاطي ويشرف على لغتي. وبقيت بعد ذلك أتردد عليه إلى أن سافرتُ إلى أوربا، كما سيرد ذكره.

(١) صدر العدد الأول منها سنة ١٩١٠. انظر: الصحافة السورية، هاشم عثمان، صفحة٢٣ و٢٤.



حيدر بك مردم بك كاتب البلاط الملكي

في مفترق الطرق

الملتزمون والأعشار

العشر ضريبة كانت تحصّلها الدولة العثمانية من رعاياها، وهي ١٢,٥ بالمئة من مجموع محصول المزارع. كان في البداية ١٠ بالمئة فضمت إليه حكومة عبد الحميد ٢,٥ بالمئة حصة للمعارف.

وكانت الدولة تطرح الأعشار في المزاد العلني، لكي تقبض ريعها من الملتزم سلفاً، وتطلق له العنان في تحصيلها من المكلفين، وكم تحمَّل الناس من ظلم الملتزمين عند التحصيل. فقد كان هؤلاء من أرباب النفوذ الإقطاعيين. وكانوا يتفقون مع الحكام على سلب الفلاح. معتمدين طرقاً خاصة في التخمين، وفي ابتزاز المال منه بدلاً من أخذ الأعشار عيناً على المنتجات السريعة العطب، كالعنب والبطيخ. أما المواد التي كانوا يأخذون عشرها عيناً، فهي الحبوب على الإطلاق، والزبيب واللوز والجوز.

وكان في كل قرية بضعة أشخاص يسمَّون بالعوانية، اتخذوا تحصيل العشر مهنة لهم. فكان الملتزمون يستعينون بهم في التحصيل مقابل نصيب من الأرباح.

أعرف أحد المتنفذين في دوما، كان يلتزم أعشار القصبة في أكثر الأعوام، وإذا صدف أن التزمها أحد غيره، كان الملتزم يتنازل له عنها مقابل إعفائه من الدفع بتاتاً. وأذكر أنه لم يحصل منه أحد من الملتزمين قرشاً واحداً إلا أنا، فقد حصلت عند التزامي الأعشار الحصة كاملة، وقدرها أربعمائة ليرة عثمانية ذهباً. على أنني تركت أعشار الفقراء الصغار، الذين يتجاوز المترتب عليهم ٤ ليرات، مما ساعد على تنبُّه الأفكار ضد المعشرين.

حياة التسلية

شغلني تحصيل الأعشار في تلك السنة (١٩٠٩) أشهراً قليلة، وما عدا ذلك كنت أقضي أيامي في دمشق في التسلية على اختلافها. وكان ذلك بداية اصطدامات كثيرة بيني وبين والدي، بسبب القسوة التي كان الآباء يعاملون بها أبناءهم في ذلك العهد.

ومع أني وحيد والدي، فإنني لا أذكر أنه قبّلني إلا مرة واحدة، وأنا في السابعة من عمري. كنت نائماً وصحوت على نفس حار، ففتحت عيني فرأيت والدي منحنياً على فراشي يقبلني. هذا كل ما عرفتُه من قبلات والدي.

أما الضحك في وجهي فلم أعرفه منه، وقليلاً وما رأيت أسارير وجهه تنفرج عندما تبدر مني نكتة ما.

عوّدني والدي على ألا أطلب منه شيئاً مباشرة، بل بالواسطة. وكان له صديق ودود، قضى العمر في معاشرته (مثلي ومثل صديقي حسني تللو الذي لم يفارقني منذ خمسين سنة)، يدعى كمال أفندي المهايني، من أسرة المهايني الكريمة، وهي من أكبر أسر دمشق، تقطن محلة الميدان الفوقا.

وكنت، إذا احتجت إلى شيء ما، طلبته من والدي بواسطة كمال أفندي، فكان مثلاً يأخذ لي إذناً كل شهرين أو ثلاثة لقضاء سهرة في أحد المسارح، فيوافق والدي، ويرفق إذنه مصحوباً بريالين: ريال أجرة «اللوج»، وريال للشبرقة.

وكان رفاقي الذين رافقتهم منذ الصغر حتى فرّقتنا الحرب العامة الأولى هم السادة: محمد علي الدالاتي، نسيب البكري، محمد المهايني، شقيق كمال أفندي المهايني، أسعد البكري، حسن سلام، مظهر البكري، خليل ملص، سامي البكري.

هؤلاء السادة هم «الشلّة» اليومية التي لم يفترق أفرادها بعضهم عن بعض في جميع أوقات الفراغ. كان كل منا يدعو رفاقه إلى المسرح في دوره، أو نمشي على أصول التعاون (عِشْرة حلبية).

وفي رمضان إحدى السنين بعد أن أنهيت تعليمي وحزت الشهادة، طلبت من والدي -بالواسطة طبعاً- إذناً للذهاب مع رفقائي إلى «التياترو» فسمح لي. وفي اليوم الثاني كررت الطلب فنفر والدي وقال إلى كمال أفندي المهايني: بلّغ فخري أنني لاأسمح بالسهر يومياً، ولو في رمضان.

جاءني الرسول يبلّغني ذلك، فقلت له: إن سني تجاوز العشرين، وأصبحت رجلاً، يمكنني أن أدير شؤون نفسي بنفسي، وإذا كان والدي قد أحسن تربيتي، فعليه ألايخشى عليّ من شيء. وإذا كانت تربيتي عاطلة، فليس بإمكانه تقويمي بعد الآن، ولهذا فإني أعد نفسي منذ الليلة حراً أتصرَّف بأموري كما أشاء دون الرجوع إلى والدي بشيء.

وهكذا خلصت من انتداب والدي، فلم يعد يمنعني عن الخروج، حتى مات رحمه الله.

مغاني دمشق

كانت أسباب التسلية العامة في عهد شبابي محدودة، فهناك المقاهي، وهناك «التياترو» وهناك المغنيات. وقد اصطلح أهل دمشق على تسمية المغنيات البلديات بالمغاني، واللواتي يأتين من مصر بالعوالم.

عرفت في شبابي عشرات من «المغاني» اللواتي يحترفن الغناء والرقص، وكان معظمهنَّ من اليهوديات، حتى إن إحداهن «اشترتني» بربع ريال. ذلك أنه كان في دمشق عادة غريبة، تقضي على الأم بأن تبيع طفلها رمزياً من إحدى المغنيات، فيحفظه الله عندئذٍ لأهله. هكذا «باعتني» والدتي من المغنية «هانولا» بربع ريال.

من أشهر مغنيات ذلك العهد: رحلو الترك، رحلو سلطانة، بنات الشطاح، نظيرة عنبة، بدرية مواس، بدرية سعادة (وكانت جميلة العينين)، بنات مكنو، حسيبة ومريم وروجينا، وطيره، وشفيقة، وسمحة، وحسيبة أتشي، ومن أجملهن

صلحة الأبيض. وكان غواتها من أرقى الدمشقيين، حتى إن أحدهم كان ينام على عتبة بابها حتى الصباح، إذا لم تستقبله!

ومن المغنيات المسلمات «رسمية جمعة»، وكانت كفيفة البصر، تضرب بالعود ولا تحضر إلا حفلات النساء. ومنهنّ أيضاً بنات «علي عمك» وفهمية ضاربة القانون، وشقيقاتها اللواتي كن يضحكن الحضور، وبنت «أبو قفة» وهي من الضاربات على النقرزان، وبنات «مكنو»، وهن جوقة كاملة كن يقمن بأفراح دمشق، من أعراس وسهرات ويستأثرن بالأفراح الكبيرة. وهن اللائي أقمن لي فرحة العرس ولم يصعدن المسارح إلا في أيام الحفلات التي كان يقيمها فرع جميعة الاتحاد والترقي.

وكان يفد على دمشق عدد كبير من مغنيات الأروام والأرمن والأتراك، ومن شهيراتهن «كوزل دنبل»، كوزل بلانس، كوزل فاني، والجميع روميات.

وكان في دمشق من المسارح، مسرح قهوة الجنينة[١]، ومسرح الإصلاح خانة[٢]، ومسرح القوتلي[٣]. ومن أشهر أصحاب المسارح المرحوم أحمد آغا الخباز، صاحب قهوة الخباز. وكان إذا جلس أمام مدخل المسرح، لايجرؤ أحد من فتيان البلدة أن يطل برأسه على المسرح.

وكان في سوق ساروجا ومحلة البحصة وزقاق رامي عدة شبان من «الزكرت» يأخذون الغفارات من أصحاب المسارح ومن الراقصات. وإذا تمنع أحدهم عن دفع «الغفارة» انتقموا منه ومن حضور حفلاته. وكانت الحكومة تتجاهل دائماً هذه الاعتداءات، إلا في حالة واحدة جرت على يد فرحات آغا، وهو عبد من عبيد السلطان عبد العزيز المنفيين إلى دمشق.

---

(١) يعني حديقة الأمة، مقابل ثانوية جودت الهاشمي.

(٢) مسرح وسينما في سوق علي باشا، مكان سفريات أمية اليوم.

(٣) كان في زاوية جادة السنجقدار وسوق الناصري، أسس نحو سنة ١٩٠٠ واحترق في حريق الدرويشية الكبير سنة١٩٢٨م.

كان هذا العبد شرطياً جريئاً أعجز أشقياء دمشق. وقد رأيته مرة يدخل المسرح لتأديب بعض الفتوات المتسلطين على المسارح ويطردهم.

أما الكحول فكانت ممنوعة في المسارح، وكان المدمنون على الشراب يذهبون إلى «الخمارات» ويشربون كفايتهم منها قبل الدخول إلى المسارح. وكان بعضهم يخفي في جيب سترته زجاجة «مفلطحة» تسمى «بطحة» يضع فيها عوداً من القنب يرشف بواسطته الخمر من البطحة.

أما برامج المسارح فكانت واحدة تقريباً. يبدأ المنهاج بوصلة غناء من أحد الرجال. وكان أكثر رؤساء التخوت من المصريين. فيفتتح الفصل بوصلة موشحات، ثم ليالي، ثم تقاسيم ودور من النغمة التي غنوا بها الموشحات. ثم يختتمون الفصل بقصيدة على الوحدة، تفتتح بهذا البيت:

آه يا أنا، ويش للعواذل عندنا　　قم ضيِّع العذال، وواصلني أنا

أما القصيدة فمن أي بحر، ومن أي قافية، وليس لها أقل ارتباط، بالمدخل المذكور أبداً. وإنما كان هذا البيت فاتحة قصيدة ليعطي الوزن لأصحاب الآلات.

وبعد انتهاء الفصل ينزل الستار للاستراحة، ثم يبدأ الرقص، وكلما انتهت راقصة، استراحت النوبة عشر دقائق إلى أن يأتي دور رئيسة الراقصات. وتكون عادة من ذوات الصوت الرخيم، ومن ربات الصنعة، فتؤدي دورها وتغنّي قصيدة على الوحدة أيضاً.

ثم يمثل فريق من اللاعبين مع أجمل بنت بين الراقصات فصلاً هزلياً لتسلية الناس.

وهكذا كنا نقضي سهرات المسارح. واستمرت المناهج على هذا الشكل حتى مدة قريبة.

روايات الفروسية

كانت الروايات في زمننا شبه معدومة. وكان بعض الكتاب المتخرجين من المدارس الأجنبية يترجمون ما اشتهر من الروايات من تمثيلية ومن تاريخية.

أما الكتب التي كنا نعتمد عليها للتسلية فكانت سيرة عنترة، وقصة الملك الظاهر (وهي غير مطبوعة، تقع في ٩٢ جزءاً مكتوبة بالخط الثلث العريض)، وقصص أبي زيد الهلالي سلامة، والزير أبي ليلى المهلهل، وغيرها من القصص التي تُعلِّم الفروسية والبطولة.

وقد طالعت بعض هذه القصص وأنا صغير، وبعضها بعد خروجي من المدرسة. وأذكر أني لما كنت في الصف الثالث الإعدادي، جاء إلى دمشق رئيس وزراء دولة إيران، وزار المدرسة يصحبه الوالي وكبار الموظفين، ومدير المعارف حسين عوني. وكان مكاني في آخر الصف، وخلفي نافذة يستطيع الناظر أن يشرف منها على الصف كله. وكنت غارقاً في مطالعة فصل من الملك الظاهر، فلم أنتبه لمجيء الضيوف، ولا إلى الجلبة التي حدثت في الصف. ووقف الوزير والوالي يطلاّن علينا من النافذة خلفي، فوقع نظر الضيف على الكتاب الذي أقرؤه، ونظر إلى كتب الطلاب بجانبي، فاستغرب اختلافها، وسأل الوالي عن السبب، فنقل الوالي السؤال إلى مدير المعارف، فأطل عليَّ. وما إنْ رأى الرواية في يدي حتى ثارت ثائرته، وضرب على زجاج النافذة ضرباً مزعجاً نبهني من غفلتي، وصاح بصوت عال مرعب: نه دربو كتاب؟ (يعني: ماهذا الكتاب؟)

في الحال أطبقت الكتاب، ورفعت يدي نحو السماء، وقلت: دعا أفندم! دعا أفندم!

وسبل الله الستر، وجازت الحيلة، أو أن الرجل اختصرها. لاأدري.

الحكواتي

أما الحكواتي فلايزال موجوداً إلى الآن، يقصُّ على الأميين قصة عنترة والملك الظاهر، جالساً على دكة عالية بحيث يراه جميع من في المقهى، فيقرأ فصلاً من القصة، ويجبي «البخشيش».

هذه القصص وضعت على ما أظن أيام الحروب الصليبية، وفيها شيء من إثارة النعرات، كان بالإمكان تهذيبها وحذف المضرّ منها.

حياة البطالة

ذكرتُ في فصل سابق كيف أنني أصدرت مجلة «حط بالخرج»، ثم سلمتها إلى «الدده» عارف الهبل. ولقد أيقظت المدة التي حررت فيها، وتلك التي داومت فيها في جريدة «المقتبس» روح الصحافة في نفسي، فرحت أفكر بإصدار جريدة يومية.

ومن ممارستي لمهنة التحرير، أدركت أنه يتوجَّب على صاحب الجريدة قبل كل شيء أن يملك مطبعة، وأن يعرف صناعة الطباعة بالفعل لا بالنظر. هكذا أحببت أن أتمرَّن على صف الحروف، فدخلتُ بطولي وعرضي صانعاً في مطبعة «بدائع الفنون»، لصاحبها السيد تاج الدين الصلاحي.

وكان رئيس العمال آنذاك السيد سعدي العمري، فكنت أقضي كل يوم أربع ساعات في صف الحروف، وبقيت مدة ستة أشهر وأنا أداوم على العمل مجاناً حتى أتقنت شيئاً من الصنعة. ومازلت أذكر من رفاقي في المطبعة «مستو الميداني» غابت عني كنيته، ومازال حياً.

بقيت فكرة الجريدة والمطبعة تراودني حتى سافرت إلى أوربا كما سيرد ذكره. ولكني بعد رجوعي من أوربا عدلت عن الصحافة لأني رأيت أن الصحيفة التي يمكنها أن تعيش، يجب أن تكون صحيفة حزب قوي غني، أو ملكاً لشركة قادرة على تمويل الجريدة، خصوصاً في بلاد دستورية الاسم، استبدادية الفعل، كما كانت حكومة الاتحاديين التي أعقبت حكومة عبد الحميد. ولذلك نفضت الصحافة من رأسي، حتى أيام الكتلة الوطنية، إذ أصدرنا مع بعض الإخوان جريدة «الأيام»[1] كما سيجيء.

---

(١) صدر العدد الأول منها في ١٠ أيار سنة ١٩٣١م وكان أصحاب الامتياز: هاشم الأتاسي، إبراهيم هنانو، لطفي الحفَّار، عارف النكدي، سعد الله الجابري، وفخري البارودي، واستمرَّت حتى سنة ١٩٦٣م، وكانت أقوى الصحف السورية.

وأول مطبعة وصلت دمشق في ذلك العهد هي مطبعة الحكومة، وكانت حجرية، ويشرف عليها مصطفى أفندي الشقللي. وبعد مدة استحضروا لها الحروف. وكان رئيس عمالها يحيى صدقي. ومن عمالها الذين أسسوا مطابع فيها بعد مصطفى شورى، وتاج الدين الصلاحي، وسعدي العمري، وخليل الترك. وقد جاء من الآستانة، وهو الذي علّم صناع دمشق صف الحروف.

وأوّل مطبعة تجارية تأسست في دمشق مطبعة «الفيحاء» لصاحبها فهمي شورى، والثانية مطبعة «الإنصاف» لصاحبها صالح الحيلاني. وقد قلب اسمها إلى مطبعة الترقي[1] بعد حريق سوق الحميدية سنة١٩١٢.

والدي يعرقل سفري

وفي عام ١٩١٠ بعد أن أخذت الأحوال تستقر شيئاً راجعت والدي، راجياً تنفيذ وعده بإرسالي إلى الآستانة لإتمام تحصيلي، فتهرَّب طالباً التأجيل، خوفاً منه عليَّ، بوصفي ولده الوحيد. وبهذه الفكرة قضى على إتمام تحصيلي في الآستانة.

وكان أكثر رفقائي الذين خروجوا قبلي أو معي المدرسة، بل وبعدي، قد سافروا إلى الآستانة. فلما يئست من إقناع والدي بالموافقة على سفري، جعلت أضرب أخماساً بأسداس، لإيجاد طريقة تمكنني من إتمام تحصيلي، خوفاً من أن يتقدم عليَّ رفقائي الذين سافروا إلى الآستانة ودخلوا مكاتبها العالية. فلم يخطر لي أي حل، وقنطت من إكمال دراستي.

حياة المقاهي

للمحيط تأثير عظيم على الإنسان، خاصةً في سن المراهقة وفجر الشباب. والبطالة هي مفتاح الفساد. ولما كانت دمشق في أيام شبابي خالية من كل ناد علمي أو أدبي، فنّي أو رياضي، كان من الطبيعي أن ألجأ إلى المجتمعات العامة والخاصة التي سأصف كلاً منها باختصار، ليمشي معي القارئ في هذه الرحلة ويتحسَّس بما كنت أتحسس به.

(١) مايزال بناؤها ولوحتها في مدخل حي القيمرية، مقابل تلة القاضي.

بقيت مدة طويلة بلا عمل، أقضي بضع ساعات في إدارة جريدة «المقتبس» وأخرج منها إلى المقاهي. وكانت مقاهي البلد قسمين: بلدي ومدني. فالبلدي ماتزال منه بعض النماذج في ضواحي دمشق النائية، يجلس فيها الناس على الحصر والكراسي المربعة، أمام مناضد خشبية موازية للكراسي، تقدم فيها النراجيل والقهوة المرّة. هكذا يقطع الناس الساعات الطوال في لعب الضاما والدومينو والورق والنرد.

أما المقاهي المدنية فمقاعدها من الكراسي الخيزران. وفيها حسب قيمة المقهى ما يلزم من أدوات اللعب كالشطرنج، والنرد، والبيلارد، والبيزيك، وجميع أنواع ألعاب الورق. يلعب فيها الناس مختلف أنواع ألعاب الميسر الخفيفة كالبوكر والباشكا والأوتوزير.

وكان أقدم مقهى في دمشق مقهى «ديمتري»، وهو يوناني، انتقل إلى دمشق، وفتح مقهى على الطرز الحديث، فكان مجتمعاً لأرقى طبقة من طبقات الدمشقيين الذين لايرتادون «القناقات»[1] ولا يفتحون دورهم للاستقبال.

وكان مقهى ديمتري في المرجة. وفي هذه الساحة نفسها فتح الخواجة أبو خليل الشماس مقهى منظماً أسماه «زهرة دمشق»[2] استحضر له ما يلزم من أدوات اللعب، كما أنه جعل في صدره مسرحاً وعلى جوانبه ألواجاً. فكان يستعمله في الليل مسرحاً للتمثيل أو الرقص والغناء. وفي النهار للعب القمار ومختلف الألعاب.

وشارك ديمتري في عمله رجلٌ يدعى «أبو فاضل الأوبجي»، وهو قبضاي معروف، استقدمه ديمتري ليتقي به شر الرعاع وليحمي المحل من الفضوليين والمسترجلين.

---

(١) جمع قناق، وهي الدور الكبيرة.

(٢) في زاوية زقاق رامي اليسرى الملتقية مع ساحة المرجة. مقابل المنزل. وقد تحولت سنة١٩١٨ إلى دار للسينما.

وحدث مرة أن علّق أحدهم في صدر المقهى صورة للشاعر الفرنسي الكبير فيكتور هيجو. وكان ذكره يومئذ قد وصل إلى الشرق، فلما رأى ديمتري الصورة سأل أبا فاضل عنها. وكان أبو فاضل يجهل الاسم، فتظاهر بالمعرفة، وأجاب: هذا شيخ «قهوجية» باريس!

هكذا أصبح فيكتور هيجو عند رواد القهوة شيخ القهوجية. وظلت هذه النكتة موضع التندُّر زمناً طويلاً.

قهوة كركوز[1]

إلى جانب المقاهي، كنا نتردَّد على محلات «خيال الظل» المعروف باسم «قهوة كركوز». وهي طليعة السينما اليوم. فكان مدير اللعبة يضع في صدر المقهى ستاراً من قماش في وسطها قطعة مدورة من الخام الأبيض، في أسفلها رف من خشب يوضع عليه سراج من فخار ينار بزيت الزيتون. ويقف الرجل خلف الستارة التي يسمونها «الخيمة» ويمسك بيده عصا رفيعة يحرك رسوم أشخاص من جلد، إذا وضعت على الشاشة ظهر خيالها مجسماً من عكس النور عليها من الخلف. ثم يتكلم الرجل ويحرك الخيال، فيبدو وكأنه يتكلم. وكان يبدل صوته حسب أصوات الرسوم.

كان لهذه اللعبة مكانة في القديم، ولكنها تبذّلت اليوم. وأدخلوا فيها بعض الكلمات البذيئة المستقبحة، وهي على وشك الانقراض. أما في زمننا فكان «الكركوز» تسلية فكهة، يذهب إليها جميع الناس في رمضان، والأولاد في بقية ليالي السنة. وكان أبطال الخيالات يتبدلون مع الفصول.

أما أشخاص الكركوز الدائمة التي تظهر خيالاتها في كل فصل فهي «كركوز» و«عيواظ». وعليهما تتركب اللعبة. ثم «المدلل» وهو أصغر خيال في الخيمة،

(١) أصلها قره كوز، وهما كلمتان تركيتان: قره= أسود، وكوز= العين، والمعنى صاحب العيون السود.

و«قريطم» الخيال الذي يمثل الرجل المصري بكلامه، و«أبو أركيلة» قشقو بكري مصطفى، أم كركوز «بالتصغير». وللخيمة حمار يدعى «كرش».

وقد نشأت هذه اللعبة في الصين، وانتقلت إلى الهند، فإلى بلاد فارس، ثم إلى بلاد العرب، فبلاد الترك، ثم إلى البلاد الغربية.

وقد عُني المستشرق الألماني جورج جاكوب (١٨٦٢ -١٩٣٧)م بدراسة هذه اللعبة، فوقف على طبع أجزاء من كتاب «طيف الخيال» لابن دانيال.

وفي مكتبة المدرسة العلمانية الإفرنسية[1] في دمشق كتاب باللغة الألمانية يبحث عن هذه اللعبة. وفيه من الرسوم القديمة طائفة غير قليلة، بطبع ممتاز وورق جيد جداً.

ومن مشهوري رجال هذه الصنعة في زمننا خالد بن حبيب الذي كان والده حبيب من أعلم الناس بالموسيقا والأنغام، وهو أستاذ المرحوم الشيخ أبي خليل القباني في علم الموسيقا.

وليت الحكومات تلتفت إلى تنبيه اللاعبين، وإجبارهم على حذف بعض الجمل البذيئة التي يتكلمون بها، وحذف بعض الخيالات كالخيال الذي يمثل شخصية طرمان.

أنا جُنديّ

كانت الخدمة العسكرية في الزمن الحميدي إجبارية، ومدتها سنتان. ونظراً لسعة المملكة كان الجنود يفرُّون بكثرة. وكان الناس يتذرعون بكل وسيلة للتهرب من الخدمة. على أن السلطة كانت تعاقب الفار بمضاعفة مدة الخدمة، وإبعاده إلى أقطار نائية حتى يعسر عليه الرجوع إلى بلده.

وكانت الفتن قائمة دائماً، والحكومة في شبه حرب مستمرة، إن في اليمن، أو في بلاد الروم إيلي. وكان عدد القتلى كبيراً في القطع المرسلة لتأديب العصاة.

---

(١) اللاييك : Laïque.

لذلك أصبح اسم الجندية مقارناً لاسم الكوليرا. خصوصاً في الولايات غير التركية. وكان كل قادر على تقديم البدل النقدي عن الخدمة ٥٠ ليرة عثمانية ذهبية لايتوانى عن دفعه مقابل الخلاص من الجيش.

ومع أن مدة الخدمة الفعلية سنتان، فإن أكثر الجنود كانوا يغيبون فيها الثلاث والأربع سنوات، لانشغال الدولة في محاربة العصابات، وتمديد الخدمة المؤقتة بين حين وحين.

وفي عام ١٩٠٨ جاءت قرعتي، فباشرت بدفع البدل. وتمت المعاملة في ١٩٠٩ فبقي عليَّ أن أتمرن على حمل السلاح مدة ثلاثة أشهر، عينوها لي في السنة التالية.

وفي الوقت المعين، أي في منتصف سنة ١٩١٠ التحقت بالقطعة التي عيَّنوها لي، وهي: «يشوبخي أوردوي همايون، طقوزنجي فرقة، أوتوز أوجنجي ألاي، أوجنجي طابور، برنجي بلوك، برنجي طاقم، برنجي مانغة».

وكان مركز الطابور في سراي العسكرية في دمشق، وقائده البكباشي (المقدم) سعدي بك الكحالة، وهو يقيم في باب السراي، أمام مدخل سوق الحميدية الآن تماماً. وكان مركز السرية في البناية التي تقع خلف اللوازم، ومحلها دار نقطة الحليب في شارع النصر اليوم.

دخلتُ على سعدي بك، وهو صديق لوالدي، وتربطنا به قرابة بعيدة. فاستقبلني استقبالاً حسناً. وكان من أبناء قرعتي ممدوح العابد، التحقتُ وإياه في يوم واحد. وقيَّدونا في قطعة واحدة. لذلك أرسلنا سعدي بك معاً، برفقة أحد الضباط إلى قطعتنا، فسلمنا إلى «جاويش» الحظيرة التي قيدونا فيها، حيث انضممنا إلى بعض «البدلجية» أمثالنا في «القاووش»، أي المهجع.

كان الجندي المكلف يسمونه «معذباً». وكان «القاووش» يتسع لمائة جندي، أرضه من التراب. فيه «تتخيتة» للنوم والجلوس. ولكل جندي فراش من خيش

محشو بالتبن أو شبشول الذرة، و«جانطة» قمَطْر لوضع حاجات الجندي وكبّوت (يسمى باغمورلق)، وهو للارتداء والغطاء. ولم يكن في الزمن الحميدي «بطانيات» للجنود، بل كانوا يلتحفون الأردية فقط. ولكنهم بعد الحرية سلموا الجنود بطانيات.

وكان المهجع قليل النوافذ، رائحته عفنة كريهة، يزيد بكراهتها رائحة أقدام الجنود عند عودتهم من التدريب حينما يقلعون أحذيتهم ولم تكن النظافة معروفة.

وكان صغار الرتباء يتحكمون بالجنود تحكُّماً غريباً. ولا يعرف هذا إلا الذي عاناه بنفسه. وإنه لمن الضروري في رأيي أن يتمرن طلاب المدرسة الحربية بضعة شهور في القطع العسكرية. ليروا بأعينهم كيف يعامل الرتباء معيتهم من الجنود. لأن الضابط الذي يدرس بنفسه ذلك يستطيع أن يحسن إدارة معيَّته.

مهما يكن من أمر فإن مدة التدريب القصيرة أفادتني في الحرب العامة إفادة حقيقية، وقد تعلمت خلالها جميع الدروس، خلافاً لرفقائي الذين كانوا يفرون من التعليم.

لقد مارستُ جميع أعمال الجندي، من استعمال البندقية إلى حمل القروانة، وحلقتُ شعري عند حلاَّقي الجنودي الذين كانوا يجلسون في السنجقدار أمام مدخل القلعة، فكان المزيّن يسلخ الجنود كالماشية، مقابل أجرة خمس بارات، وتسمى «أم الخمسة». ومازلت أذكر كيف كان المزيِّن «يقيش» الموس على حذائه!

وكان أكثر رفقائي تملُّصاً من واجبات الجندية لأسباب صحية، السادة لطفي الحفار، وأخوه جمال الحفار، وحسن العاني، وعبد القادر أبو نصوح الدوجي، وممدوح العابد.

ويوم أنهينا التعليم وأخذت «التذكرة»، يعني شهادة إنهاء الخدمة، اشتريت علبة من القصدير، ذات شريط يدخله الجندي المُسرَّح في رقبته، فتتدلى القصديرة من تحت إبطه، ويضع فيها «التذكرة». وكان من عادة الجنود المسرحين أن يشتروا

بندقية صيد مزدوجة، ويسيروا بها في الأسواق. وقد قمتُ بهذا الدور فحملتُ «جفتاً» وقصديرة التذكرة لأُري الناس أني أنهيت خدمتي!

أذكر أنني دخلت إلى حانوت في سوق الحميدية، لأطلع صاحبه -وهو صديقي- على التذكرة، وأخبره بخلاصي من الجندية وانتقالي إلى صنف الرديف (أي الاحتياطي). وكان يجلس عنده ضابط برتبة رئيس، فنسيت أن ألقي عليه التحية العسكرية.

وبارك لي الحضور بالخلاص، ولكن الضابط حدَّجني بنظرة قاسية، وسألني: هل أنهيت تعليمك؟

فأجبت بالإيجاب، وعرضت عليه التذكرة، فقال: ماذا تعلمت؟

قلت: جميع مايلزم الجندي.

قال: وهل أتممت تعليمك حتى استحققتَ هذه التذكرة؟

فلما أجبت بالإيجاب قال: إنك لم تزل عجمياً. (وهي كلمة تعني أن الجندي لم يزل غِراً. والغرُّ هو الجندي الحديث يطلق عليه هذا النعت إلى أن يحسن التعليم ويقوم بوظائف الجندي تماماً).

سألته السبب، فأجاب: ما هو أول درس أخذتموه؟

قلت: احترام الآمرين.

قال: وأين احترام الآمر؟ (وتقال له «مافوق»).

فانتبهتُ أنني لم أؤدِّ له التحية العسكرية، فنهضت واقفاً في الحال، وأخذتُ الوضع العسكري، وحييتُه معتذراً. فضحك وقال: الآن عرفت أنك أخذت تذكرتك بحق. وصافحني. ومنذ ذلك اليوم لم تفتني فرصة للإعراب عن احترام الجميع.

اقتراح دار العجزة

دخلت السنة ١٩١١، وأنا مازلت بلا عمل، أعيش بلا غاية، وأقضي أوقاتي في السهرات الخاصة وفي المحلاَّت العامة، وكلما مرَّ الزمن ازداد خلقي ضيقاً، مع أن الله خلقني حركة دائمة، لا أحب أن أبقى دقيقة واحدة في حالة البطالة.

ولما ضاق ذرعي بالبطالة خطر لي أن أؤلف جمعية خيرية تقوم بتأسيس دار عجزة وميتماً للأطفال، فكتبت سلسلة مقالات في جريدة «المقتبس» تحت عنوان «أين من يحبون المشاريع الحيوية» عالجت فيه حالة المتسولين والعاجزين.

وكان في دمشق يومئذ جمعية للشحَّاذين في دمشق من نساء ورجال. وكان الجميعُ يطيعون الشيخ ولا يخرج أحدهم عن إرادته، وكان للشيخ زبانية لتأديب المخالفين من زعران أهل هذه الحرفة. فأكثرتُ من الكتابة عن المتسولين المحترفين، الذين يوجد بينهم أغنياء حقيقيون. ورحت أفضح أسرارهم في كتاباتي فقامت قيامتهم وجاءني شيخ الشحاذين مع بضعة أشخاص من «وجوه» هذه الحرفة يطلبون إليّ -أو يأمرونني أمراً- بأن أكف عن التعرض لهم، وإلا قتلوني. وكان تهديدهم لي جدّياً، فأقلعت عن الكتابة بهذا الموضوع وتركت المشروع، لأني لم أجد فرداً واحداً أتعاون معه على القيام به. وأخذت أطبع على حيطان دمشق -بواسطة لوحة من القصدير المحفور- عبارة «تعلم يا فتى فالجهل عار». وإني أذكر جيداً أنني لم أدع حائطاً من حيطان الشوارع والحارات، حتى «الدخلات» الصغيرة في أي محلة من محلات دمشق، إلا وكتبت عليها هذه الجملة.

وفي عام ١٩١٩، بعد الحرب، عاودتُ الكرة في هذا البحث في جريدة «المقتبس» فكتبت مقالات متسلسلة تحت العنوان السابق، ولكن ذلك لم يفدني، ولم أتمكن من تأسيس غرفة واحدة، فعدلت وبقيت أنتظر فرصة أخرى، حتى سنحت في سنة ١٩٤٠، فأعدت الكرة، وتأسست دار العجزة والميتم كما سيجيء ذكره[١].

(١) كان مقرُّه في مبنى المدرسة العمريّة بالصَّالحية.

زواجي

كانت والدتي وجدتي لوالدي قد فاتحتاني سنة ١٩١٠ بالزواج فرفضت البحث في ذلك، وقلت: إنني لن أتزوج قبل إتمام تحصيلي. ثم أعادتا الكرة بعد ذلك ببضعة أشهر، فأصررتُ على الرفض، ولكنهما ظلتا مع ذلك تبحثان عن فتاة مناسبة لي.

في سنة ١٩١١ عادتا إلى ملاحقتي، وقالتا: إذا وجدنا لك فتاة صالحة خطبناها، وسيجري «كتب الكتاب». فإذا ذهبت إلى التحصيل تبقى الفتاة بانتظارك، فيجري العرس!

وهكذا أقنعتاني، فطلبت إليهما في أول الشروط أن تكون صاحبة أخلاق حسنة، وأن تعرف القراءة والكتابة بصورة جيدة! وتتقن إدارة البيت.

وهكذا راح أهلي يخطبون لي. في ذلك العهد لم يكن الخطيب يرى خطيبته، بل يكتفي بوصف قريباته لها. فيقلن له: عيونها كذا، شعرها كذا، وجهها كذا، طولها كذا. وعلى الوصف يتوكل الرجل على الله ويعقد العقد، وسعدك يا أبا السعود.

وعلى هذه الطريقة جعلت جدتي ووالدتي تصفان لي البنات اللواتي خطبتاهنّ لي، إلى أن سمعتُ من ابنة خالي بوصف قرينتي الحالية، كريمة المرحوم أحمد أفندي الدالاتي، فطلبتُ إلى والدتي خطبتها فأبت جدتي، بدعوى أن خال والدي خليل أفندي البكري خطبها لأحد أولاده، فتمنَّع أبوها ولذلك لايمكن لجدتي أن تقدم على هذا العمل.

أصررت على طلبي. وكان والدي صديقاً للمرحوم أحمد أفندي الدالاتي، ولم يكن قد بقي عنده غير فتاة واحدة عزباء، هي أصغر أولاده. وقد طلبها الكثيرون من أهل دمشق فرفض والدها زواجها.

ولما لمس والدي إصراري حار بالأمر، وقال: لاأريد أن تقوم بيني وبين أحمد

أفندي الدالاتي ببرودة أو عداوة. ولذلك فإني لن أطلب منه ابنته خوفاً من الرفض، فإذا رفض فستكون بيننا عداوة أبدية لاسمح الله!

بقيت القضية بيننا، جدتي في عناد، ووالدي على الحياد، وأنا في إصراري على رأيي بازدياد، إلى أن علم بالأمر محمد أفندي المهايني -صديقي وابن عمة الفتاة- فتدخل في الأمر وسعى مع شقيق الفتاة منير الدالاتي، لإقناع والدة منير بقبول هذه الخطبة. وعلمت أيضاً من المهايني أن الدالاتي أفندي راضٍ عني منذ سمع خطابي في مكتب عنبر عن إعلان الحرية. وفهمت أننا إذا خطبنا الفتاة فإنه لن يتأخر. وعلى الأثر تقدم باسم والدي أحد أصدقاء الطرفين سعيد أفندي العسلي، وخطب لي الفتاة من أبيها، فوعده بالجواب بعد ثلاثة أيام ليستخير الله.

وذهبتُ إلى قصبة دوما في أثناء هذه المدة، وفي اليوم المعيَّن ذهب العسلي لأخذ الجواب، فإذا به يظفر بالموافقة. وفي الحال دعوا والدي حالاً، وأحضروا أحد المشايخ وعقدوا العقد وأنا أنتظر في دوما. وإذا «بصراحيَّتيْ لموناضة» أي شراب الليمون، تصلانني إلى دوما، في صينية من الفضة محاطة بقطعة من التول الحرير، مربوطة بشريطة حريرية خضراء، دليلاً على عقد العقد.

وقبل وصولهما إلى الدار، جاءني المبشِّر يركض يطلب مني بشارته، ولاتسل عن الفرح الذي أصابني فقد أصبحت زوجاً بحمدالله، ومع ذلك لاأعرف الزوج التي اختاروها لي، ولاتمكنتُ من رؤيتها إلا يوم عرسي كما سيجيء[1].

ومن الغريب أني قبلت بالزواج وأنا دون عمل، وليس لي وارد يكفيني وحدي، فضلاً عن الزوجة. ومن السخف أن يتزوج المرء إذا لم يكن ذا صنعة يكفيه واردها لفتح بيت. ومن العار أن يتكل الولد على ثروة أبيه مهما كان غنياً فيتزوج. وهو مفلس. ولذا فإني أنصح كل شاب ألا يتزوج إلا إذا كان له من الوارد ما يكفيه وزوجه، والأسرة التي ستتشكل منهما.

---

(١) أثنى البارودي على زوجه، وقال إنه عاش معها ٤٢ عاماً، صبرتْ خلالها على تصرُّفاته وعبثه ورثاها بقصيدة في ديوانه: تاريخ يتكلم، صفحة ٨٦. وقد تُوفيت سنة ١٩٥٤م.



تحسين بك قدري الحاجب لجلالة الملك المعظم

مُجتمعُ الخاصَّة في دمشق

أسباب التسلية:

ما دام حديثي قد تناول المقاهي والمحلات العامة في عهد شبابي فإنني سأكمله الآن بحديث عن المجتمعات الخاصة. فقد كان للدمشقيين مجتمعات خاصة، شتاءً في الدُّور وصحواً في البساتين. وكانوا يسمّون الدور التي يجتمعون فيها «قناق» وهي كلمة تركية أصلها «قوناق» يعني الدار. أخذها الدمشقيون عن الأتراك واستعملوها «للبراني»، أي لمحل اجتماع الرجال.

وكان أكثر القناقات يبعد عشرات الأمتار عن دار سكن صاحب القناق، فيختلف إليها أصدقاؤه الخصوصيون وزوّاره، ويعقدون «الأدوار» وقد اصطلحوا على إطلاق اسم «الدور» على اجتماع «شلة» من الرفاق من طبقة واحدة، فيقضون سهراتهم في أحد القناقات أو البيوت. وكان لكل فرد «دور» معين، فتكون الأدوار إما يومية أو أسبوعية. فإذا كانت يومية يكون الدور الأول عند زيد في اليوم الفلاني، وفي اليوم الثاني عند عمرو، والثالث عند بكر، إلى أن ينتهي الدور عند آخر فرد من أفراد الشلة، ويعود من جديد.

وكانت أسباب التسلية في الأدوار بسيطة، يدور أكثرها على المقرعة، كلعبة «عبَّك»، وهي أن يخبئ أحدهم خاتماً مثلاً أو حاجة صغيرة، في «عب» أحد الرفاق، إذ يدخل يده في جيوب الحاضرين، ويترك الحاجة في جيب فلان، فإذا أخطأ يقرعه مقرعة على كفه، ثم يسأل الثاني... الخ. ومن يحزر يقوم ويستلم المقرعة مكانه. وهكذا يُقضي معظم الوقت بضرب المقارع!

لعبة السَّلَطَة:

ومن ألعاب التسلية لعبة السلطة . فيقف أحدهم وبيده المقرعة ، ويعطي كل فرد من الأفراد اسماً البقول التي يعمل منها السلطة ، وتسمى هذه البقول «زرزاوات» ، ثم يقول : «إني أريد أن أعمل صحناً من السلطة ، وعندي كل شيء من الزرزاوات إلا البقدونس» .

ويكون الجميع منتبهين فيقول من تسمّى بالبقدونس : بقدونس في ، ولكن ملح ما في» فيقول من تسمّى بالملح : «ملح في ، ولكن كزبرة ما في» . وهكذا فالذي ينتبه ويجيب بسرعة دون توقف نفد من ضرب المقرعة . وإذا تأخر ضربه الواقف مقرعة على يده . وهكذا يمضي وقت طويل في ضرب المقارع .

لعبة المروحة

هذه اللعبة لعبة ضرب أيضاً ، ولكن ضربها صفع بالكف على ظاهر الكف ، لا ضربُ مقارع .

يقف صف من اللاعبين بحسب اتساع المكان ، ويقف خلف الصف صف آخر بعدد أفراد الصف الأول .

يضع أفراد الصف الأول أيديهم على رقابهم مشبكة الأصابع بحيث تلتصق الكفوف برقبة اللاعب ، ويهز أفراد الصف الثاني أيديهم المرفوعة هز المراوح ، وتبقى أوجه الصف الأمامي متجهة الى الأمام . ثم يبدأ اللعب بأن يصفع لاعب من الصف الثاني رفيقاً واقفاً في الصف الأول . وعندئذٍ يلتفت المضروب ليحرز اليد الضاربة فإن أخطأ عاود الصفع ، وإن حزر انتقل الصف الأول مكان الصف الثاني ، وهكذا حتى يمضي ردح من الزمن والصفع قائم!

هكذا كان الوقت يسير وألعابنا ضرب وصفع . وكم كنت أحاول أن أغير شيئاً من أساليب التسلية بقراءة شيء من كتب التاريخ أوكتب الأدب ذات الفائدة ،

فلا أنجح إلا نادراً. وما تزال الى اليوم الألعاب عند بعض طبقات الناس تسير على هذا الشكل، فنحن نهزل ونضرب، وغيرنا يشيّد ويجد. . .

الطقّة

قلنا إن الأدوار كانت يومية أو أسبوعية، ووصفنا اليومية كما مرَّ. أما الأسبوعية فتقضي بأن يبقى الدور عند زيد طوال الأسبوع. وفي آخر يوم من أسبوع الدور يقدم صاحبه الى رفاقه ما تيّسر من الطعام الخفيف، كالجبن والشاي وبعض الحلوى والفواكه. على أن بعضهم، خاصة من حديثي النعمة كانوا يبالغون في تقديم الأشكال والألوان، من أعمر الموائد. وكم جلبت هذه العادة الشجار بين الأصدقاء، إذ يريد كل منهم أن يقدم طعاماً أحسن من غيره، كأنها مباريات في الأكل. وليتهم كانوا يتبارون في تقديم المبرات الى المؤسسات العامة كالمستشفيات والمياتم ودور العجزة وغير ذلك. ولكن ما العمل وبلادنا ويا للأسف لم تعتد حتى الآن على القيام بمثل هذه الأعمال؟ وكم رأينا وارثاً غنياً يصرف الليرات بالألوف على أشياء تافهة، ويضنُّ على وطنه بليرة سورية لأي مشروع خيري أو اجتماعي. فلا حول ولا قوة إلا بالله!

قناق البكري

من القناقات المشهورة قناق آل البكري. وكانوا ممثلين في شبان، ذوي أعمار متقاربة، هم رشدي أفندي وأنور أفندي ومدحت أفندي. وكلهم أولاد خليل أفندي البكري. كانوا مشهورين بالفتوة، ولهم ولع بالصيد والقنص ولعب الشطرنج وكشّ الحمام. ولم يكن قناقهم يخلو ليلة من الزوار. ولا بأس من ذكر شيء عن سهراتهم ليطلع القارئ على لون من حياتنا في ذلك العصر.

وكانت السهرة تبدأ من الساعة السابعة مساءً تقريباً. وكلما جاء أحد من الرفاق، قام له الجميع. وبعد أن تقدم إليه القهوة -المرة طبعاً- يشترك في الحديث مع الحضور، وهو يدور عادة حول الصيد، وتربية الحمام والشطرنج، فيروي كل واحد أطرف ما جرى له من الحوادث.

تربية الحمام

كانت تربية الحمام تشكل صنعة قائمة بذاتها لم تزل شائعة إلى اليوم على أيدي «الحميماتية»، الذين يجمعون أنواعاً من طيور الحمام، ويسكنونها أماكن خاصة في أعالي الدور، في محل يسمى «حضير»، وهو بناء منفرد كالغرفة، داخله مربعات خشبية تغطي الحيطان، فيوضع في كل مربع زوج من الحمام، وكل نوع له اسم خاص، فمنها: البربريسي، والأخضر، والأبلق، والأزرق، والأبيض، والمرقع، والحلبي، والبغدادي، والقلاب. والأبلق منه أبلق بحلسة، وأبلق بخضرة، وغير ذلك من الأنواع.

هذه الطيور لها ساعات معينة لإطعامها ولإخراجها من الحضير. ولا بدَّ لكل حضير من باحة سماوية تطير من عليها الطيور وتعود إليها. والحميماتية قسمان: محترف وغاوٍ. فالمحترف يكون على الأكثر من أصحاب الرجولة، يجمع أقوى أصناف الطيور وأرخصها ثمناً ويدرّبها على الطيران، ولهم في تدريبها أصول وعادات، سأكتب فيها كتاباً خاصاً إذا ساعدني الوقت.

وللحميماتية آلات للصيد من حبال المرس، منها طارات بمرس تسمى شبكة، تشبه بضفر حبالها شبكة صيد السمك. ومنها آلة ثابتة تسمى «سقلب»، وهي الأخري من نوع الشبك، ولكنها مثبتة بعصي رفيعة على حافة ظهر الحضير، فعندما تهبط الطيور العائدة من التمرين، يقلب الرجل السقلب عليها إذا كان بينها طير أوطيور غريبة، فيصيدها ويبيعها، أو يعيدها إلى أصحابها مقابل مبلغ من المال يتفق عليه بينهما، ويسمى هذا المبلغ «الفكاك». وقد يبلغ ١٠ ليرات ذهباً. وهناك محترفون يعيشون من اقتناص حمامات سواهم، ثم يرجعونها مقابل الفكاك.

وكثيراً ما كنت أحضر إلى حضير أولاد خالي، وأقضي الساعات بالفرجة على «كشّ الكشة»، واختلاط الكشّات في السماء، واهتمام أصحابها بإبعاد طيورهم عن سماء الحضير. من ذلك أن صاحب الطيور المدربة، إذا كان ساكناً في محلّة أبي جرش في الصالحية مثلاً، يستطيع إرسال كشة «طيوره» إلى سماء الميدان

الفوقاني، أو إلى سماء باب شرقي. والكشة هي اسم مجموعة الطيور التي يطلقها صاحبها، سواء أكان عددها خمسة أو خمسين.

وللحميماتية المتخصصين معرفة تامة بأشكال الطيور. فإذا أراد أحدهم خلط كشته بكشة غيره، يصفّر للطيور فتطير وتحلّق فوق داره، ويحمل بيده «كشاشة» وهي عصا، يزيد طولها عن الثلاثة أو الأربعة أمتار، في رأسها شلة من الخرق، يحركها للطيور فتعرف من حركتها الاتجاه الذي يراد أن تتبعه فتسير فيه. وإذا عاكسته، يضع الرجل في «المدّاحة أو الصبّان» قشرة ليمونة معصورة ويضربها بها. وكثيراً ما يصيب طائراً فيرميه، وبهذا تذل الكشة وتتجه الى الناحية التي يريدها.

وعندما تصل الكشّة إلى كشة أخرى طائرة، أي إلى الكشة المرسلةإليها، تختلط الطيور وتدور مجتمعة طول المدة التي يريدها صاحبها.

والحميماتي يعرف من مكانه أنواع الطيور المختلطة وقوة أفرادها. ومتى رأى ضعف الطير الذي يريد صيده أخرج طيرة أنثى من الحضير، وقبض عليها من تحت جناحيها وجهل يهز بها، وهي ترفرف بجناحيها، إلى أن يرى طيوره اتجهت نحوه وقربت من داره، فيلقي الطيرة أمام باب الحضير ويختفي في مكان لا يظهر منه. فتهبط الطيور، وبينها الطير الغريب الذي اصطحبها. وبمهارة زائدة يرمي عليه السقلب أو الطارة ويصيده. ولا تسل عن الفرح الذي يصيبه عندما يصيد طيراً ثميناً!

وكان رزق عشرات الحميماتية في زمننا على الله، وعلى صالح بك العظم، الذي كان له غرام زائد في هذه اللعبة. ولا أستطيع أن أحصي الأموال التي دفعها فكاكاً عن طيوره. ولكن بإمكاني أن أقول إنه دفع مدة غوايته ما يزيد عن عشرة آلاف دينار ذهباً. وكان حديثه بين الحميماتية لا ينقطع مدةحياته، وما يزالون الى اليوم يتندرون بأحاديثه.

الشطرنج

قلت إن الشطرنج كان موضوع الحديث في القناقات. وبعد أن يشبع الحضور من الكلام عنه يحضرون الرُّقَع ويتبارى اللاعبون، كل طبقة مع الطبقة المعادلة لها.

وكان من مشاهير اللاعبين في دمشق في ذلك الزمن الخصي سعيد أفندي، وهو أحد عبيد السلطان عبد العزيز، نفاه السلطان عبد الحميد مع من نفى من رجال معية عمه. ومن الدمشقيين المشهورين بهذه اللعبة محمود أفندي حمزة مفتي دمشق الشهير[1]، والسيد توفيق، والسيد رسمي، أولاد الميداني. وكان يعجبني في هذه اللعبة التي تعلّمتها أن اللاعبين كانوا لا يلعبون على رهن، أي لا يقامرون بها، بل كانوا يلعبون على أنواع الفاكهة، يأكلونها في آخر السهرة.

وهكذا كانت تُقضى ليالي القناقات في الألعاب، وفي النرد والورق. ومن ألذ ألعاب الورق لعبة «أبو الفول»، وهو إخراج جميع الصور، وترك صورة واحدة بين الورق، وتفريقه على الحاضرين، فيصيب اللاعب بضعة أوراق يزاوج بينها، ويرمي الأزواج. وما زاد يسحب الواحد من الثاني بالدور ليزاوجوا الأوراق المفردة. ومن بقي بيده الصورة يغنون له بقولهم: «أبو الفول عليك فطور»، ويصفقون، وهكذا تنتهي السهرة!

النور في الشوارع

قبل تمديد الكهرباء في دمشق[2]، كانت الشوارع تنار بمصابيح البترول، وكان أكثرها يُطفأ لأن الأولاد يضربون ألواح البلور بالحصى فيكسرونها، ويدخل الهواء

(١) محمود بن محمد حمزة، مفتي دمشق ونقيب الأشراف فيها. كان له دور بارز في حماية المسيحيين في حوادث الستين، وله في الحادثة شعر مشهور، وكان ماهراً في الرماية والصيد والرياضة وله ما يزيد عن ثلاثين مؤلفاً. توفي سنة ١٨٨٧م عن ٦٦عاماً.

(٢) دخلت الإنارة الكهربائية وخطوط الترامواي إلى دمشق في شهر نيسان سنة ١٩٠٧، في عهد السلطان عبد الحميد، ووالي دمشق الفذّ: حسين ناظم باشا، وقد أُلغيت حافلات الترام من دمشق سنة ١٩٦٢م.

فيطفئ النور. وكان الناس يسيرون وفي أيديهم مصابيح من ورق، يضعون فيها الشموع تنير لهم الطريق، تسمى «فنار». وقد مرَّ وقت منعت فيه الحكومة سير الناس بعد صلاة العشاء بدون مصابيح.

ومن الطرائف أن صالح بك العظم، وهو من أعظم أبطال دمشق، كان في شبابه مغرماً بإحدى اليهوديات. وقد سهر عندها في إحدى الليالي، يرافقه السيد سليم الميداني، وهو من نوادر زمانه.

وبعد منتصف الليل بساعتين أوثلاث، خرجا من حارة اليهود عائدَيْنِ. وبينما كانا يجتازان محلَّة مأذنة الشحم، صادفا دورية البوليس، تقدم رئيسها ورفع مصباحه ليرى المارين بلا مصباح، فلما تميَّز صالح بك، وهو يترنّح، قال له: ياسيدي أنت ابن الحكومة، وأنتم تضعون القوانين، فلماذا تخالفها؟

قال: بأي شيء أخالفها؟

قال: إنك تسير بلا مصباح، وهذا لا يجوز.

قال: مصباحي معي، اذهب في طريقك!

وسأله الشرطي عن مصباحه، فأدار له ظهره. ورفع ذيل سترته وقال: هذا مصباحي!

ومشى صالح بك، وخلفه السيد سليم، فقال له المفوض: وأنت يا رجل، أين مصباحك؟

قال: أنا سائر على ضوء البك!

فضحك رجال الدورية، وذهب كل واحد في سبيله!

التشليح في الحارات

كان الأمن شبه مفقود في تلك الأيام، وكثيراً ما كان اللصوص يسلبون مَن يستفردونه في المحلات النائية من البلدة. ولم يكن في دمشق في الليل محلٌّ أمين،

إلا المواقع الممتدة من موقع السنانية الى باب الجابية، فالسنجقدار، فساحة المرجة. أما بقية الأحياء فكان المار فيها، خصوصاً بعد منتصف الليل، يحتاج الى حراس وخفراء.

مرّ شرطي يهودي مرة في العمارة، فصادف أبا فياض البغل -وهو أحد الفتيان المشهورين بالرجولة- يُعربد وفي يده خنجر، يعترض به المارة ويضربهم بقبضة الخنجر على رؤوسهم، ولا يجرؤ أحد على معارضته. فلما رأى الشرطي اليهودي تقدم إليه وضربه على رأسه بالقبضة ضربة قوية طفر منها الدم، وغسل وجهه ورداءه.

ولما رجع الشرطي الى داره، ورأته زوجته، ولْوَلَتْ وصاحت: ويه... شو صابك؟!

قال: البغل ضربني!

قالت: ويه عليك، «شو فوّتك عالخان؟»

قال: ولك ليس الذي ضربني بغل حيوان، بل هو بغل إنسان!

فقالت له: إذن اذهب واشلح بذلة السلطان مادمت لا تقدر على حمايتها!

القبضايات

كلمة مأخوذة عن التركية، معناها الخال الغليظ «قبادايي»، وتطلق عندنا على كل موصوف بالرجولة، أو «زكرت». وفي بغداد يسمونه «أبو جاسملر». وفي حلب يسمونه «الحاج حمده». وهناك رجال يدّعون هذه الصفة زوراً، وهم من الزعران المعروفين بالـ«بابا حسن».

ويسيطر القبضايات عادة على المحلّة، ويضعون أنفسهم في خدمة وجهاء المحلة من باشاوات وبكوات وأفندية.

كان معروفاً عن أهل دمشق في ذلك الحين أنهم متحدون، يطيعون زعماءهم، وينتصر بعضهم لبعض ضد الغريب، عاملين بالحديث: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»، بعكس هذه الأيام التي عزّت فيها الصداقة والوفاء. وأضرب على ذلك المثل التالي:

حدثني الشيخ حسن النحاس قال: في أيام راشد ناشد باشا[1]، اختلف المفتي ونقيب الأشراف في دمشق. وكان المفتي من العلماء المشهورين، ونقيب الأشراف لا يحمل من العلم إلا العمامة الخضراء. وكان سبب الخصام استهتار النقيب بمنصبه وبواجباته الدينية.

وكان مدير الأمن العام يسمى «ألاي بكي»، وهو أكبر ضابط في الجاندرمة، أي الدرك. فوقع بينه وبين النقيب نزاع شديد. وتربّصَ بالنقيب الدوائر، حتى أخبروه أنه في بستان من بساتين دمشق مع خليلة يحبها، فانتهز الفرصة وذهب الى البستان بقوة كبيرة، واعتقل النقيب وخليلته وعاد بهما الى السجن.

وذهب أحد المنافقين إلى المفتي ليبشره بسجن عدوّه، فلما سمع الخبر نهر الرجل وكذّبه أمام الحاضرين، وأرسل خلف السَّجان حالاً، ولما جاء قال: ستصلك سيدة بعد قليل، فضعها حالاً مكان السجينة التي أرسلوها إليك اليوم. وإياك أن يفهم أحد، وإذا فُهْتَ بكلمةٍ فليس لك مقام في هذه البلدة!

ووعد السجان بتنفيذ الأمر، لأن مقام المفتي كان أعظم مقامٍ في الدولة، يعني شيخ الإسلام في العاصمة والمفتي في عاصمة الولاية.

ثم أرسل المفتي دون تمهُّل رسولاً دعا زوجة النقيب، فحضرت سريعاً،

(١) حكم دمشق مرّتين: الأولى سنة ١٨٧٦ لمدة ثمانية شهور، والثانية دامت أكثر من ثلاث سنوات بدءاً من سنة ١٨٨٤م.

ودخلت الى الحرم فأفهمتها زوجة المفتي القضية، وأرسلوها الى السجن، ووضعوها محل الخليلة المسجونة.

وبعد أن اطمأنَّ المفتي للعمل أرسل واستدعى جميع وجهاء الشام، وكان بينهم الشيخ عبد الله الحلبي شيخ الشام، وأعلم علمائها في زمنه. وأخبرهم أن العداوة بين النقيب وقائد الدرك توترت الى درجة تجاسر فيها «الألاي بكي» على سجن النقيب وزوجه: هذا في سجن الرجال، وهي في سجن النساء، وأن الحال مع هؤلاء الحكام لم يعد يطاق، فثار ثائر القوم، وتشاوروا ماذا يعملون؟ فقرَّ القرار بعد المشاورة على مراجعة الوالي لإخراج النقيب، ومجازاة المفتري.

وهكذا ذهب كل واحدٍ الى محلّته و«دبُّوا الصوت»، وأوعزوا الى القبضايات أن يُهيئوا أنفسهم وجماعتهم، وأن ينتظروا الأوامر التي تصدر عن المفتي، فإن سمع الوالي شكواهم وأخرج المساجين وجازى المفتري كان به، وإلا فعليهم أن يهجموا على السجن ويخرجوا النقيب.

وبالفعل ركب العلماء والزعماء دوابهم وذهبوا إلى دار الوالي، وكان ذلك عند منتصف الليل. وكانت دار الوالي في البنايات المجاورة لجسر الصالحية، التي فتحوا فيها شارع الرئيس والشارع الجديد. ولما وصلوا إلى دار الوالي أيقظه «الحرم آغاسي» وأعلمه بمجيء زعماء دمشق، فخرج مضطرباً، فقدموا له مفاتيح الدور وأوراق «الطابو». يعني أوراق التمليك، وقالوا: نحن لا نبقى في هذه البلاد عرضة للظلم والجور!

سأل عن السبب، فأخبروه أن «الألاي بكي» سجن النقيب وزوجه، وأنهم لا يرضون إلا بإخراج السجين وطرد المفتري من سلك الدرك، وسجنه مكبَّلاً بالحديد في قلعة بعيدة، ليلقى جزاء الافتراء.

فهدّأ روعهم وطمأنهم، وأمر باستحضار الألاي بكي، فجاء مسرعاً، ولما رأى هذا الجمع حار في أمره، وسأله الوالي بحضور الجميع: لماذا سجنت النقيب وزوجته؟

قال: يا أفندينا (وهذه كلمة تطلق على السلطان وعلى وكيله في الولايات والأيالات): إني وجدته بحال مريبة مع مومس في أحد البساتين، فأودعتهما السجن إلى أن يجري التحقيق معهما!

فقال المفتي: يا دولة الباشا إن المرأة التي كانت معه هي زوجة النقيب لاخليلته، وهي بالسجن الآن، فإذا تحقق لكم هذا أرجو إصدار أمركم بإطلاق سراحهما ومجازاة المفتري.

فأرسل الوالي زوجته مع بعض الحراس إلى سجن النساء، وكان في باب البريد، فأخرجت المسجونة وحضرت بها الى دار الوالي. وأخبرته أن المسجونة هي زوجة النقيب. فأمر حالاً بإطلاق زوجها، وقطع خرج الألاي بكي، وأمر بسجنه مكبلاً، واعتذر عن هذه الهفوة.

وفي اليوم الثاني جاء النقيب إلى دار المفتي للشكر، فلم يقبله وقال له: إن العداوة التي بيننا لم تزل كما هي.

وبعد بضعة أيام ركب المفتي بغلته وسار إلى دار النقيب. ولما علم هذا أن المفتي في طريقه الى داره ركض حافياً لاستقباله. فاختلى المفتي بالنقيب وقال: إن عداوتنا لم تزل باقية، وإني أتيت إليك لنذهب إلى الوالي ونستعطفه حتى يطلق سراح المظلوم الذي سجنه لأجلك يا ظالم!

وسارا سوية الى السراي، ودخلا على الوالي. فاستقبلهما بالحفاوة، فقال المفتي: يا مولانا إن أصل النقيب أجبره على الحضور بين أيديكم ليطلب منكم العفو عن الألاي بكي. وقد أخبرني أنه منذ ذلك اليوم إلى اليوم لم يغمض له جفن من تأثره، وأنه عفا عن هذا الذنب. وهو يطلب منكم العفو وإطلاق سراحه وإرجاعه إلى رتبته، على أن يكون مقامه في غير هذه البلدة.

فأثنى الوالي على علو النفس، و«هذه الأصالة والنجابة» وأمر بإطلاق سراحه وأرسله بوظيفته الى مدينة حماة.

وهكذا بقي راشد ناشد باشا طوال مدة ولايته لا يرى إلا تكاتف الزعماء والعلماء وكلمتهم واحدة. حتى إنه لما خرج من الشام وخرج الناس لوداعه عند جسر «توره» بكى، فسأله أحدهم: لِمَ تبكي يا أفندينا، أعلى فراق دمشق؟

قال: لا، بكيت لأني طول مدة إقامتي فيها لم أقدر أن أفرق بين اثنين من أهلها!

أما المفتي فقد أوعز إلى النقيب بالاستقالة سَتْراً لطابقه وخوفاً من سقوط الاعتبار لمقام نقابة الأشراف. فاستقال النقيب. وكانت استقالته سبباً للصلح بينه وبين المفتي.

من هذه القصة نعرف مقدار تماسك الدمشقيين في ذلك الزمان. أما اليوم فما لي أن أقول إلا: لا حول ولا قوة إلا بالله...

ليالي الأنس

كان والدي رحمه الله من أصحاب القناقات المشهورة. وعنده كل ليلة كيف وطرب. ومنذ وعيت على الدنيا وأنا أسمعُ الغناء في قناق والدي. إذ كانت له تقريباً جوقة خاصة، أفرادها من أبرع الموسيقيين في ذاك العصر.

وكانت سهرات والدي العامرة ليلية تقريباً. وجوقته مركبة من عمر الجراح القانوني[1]، ومن أخيه إبراهيم العواد. وأحياناً يأتي معهما أخوهما الثالث محمّد الجراح، العازف الوحيد على الكمان في عصره.

ولما اختل إبراهيم العواد، استبدل والدي به بديع محسن. وكان من أجمل شبان عصره. أما المغنّون فكانوا: الشيخ عبد الله أبو حرب[2]، والشيخ رشيد

(١) عمر بن صالح الجرّاح، من كبار العازفين على القانون بدمشق، وكان يساعد إخوته الثلاثة محمد وحمزة وابراهيم، اجتمع في مصر بالفنان عبده الحامولي وأعجب به. توفي في دمشق سنة ١٩٢١م عن٦٩ عاماً.

(٢) عبد الله بن عبد الرحمن. من تلامذة أبي خليل القباني ومن أعمدة الغناء المشهورين في دمشق. توفي فيها سنة ١٩٠٨ عن ٧٢ عاماً.

عرفه[1]، وهما من المداومين ليلياً. وكان الغناء القديم كله موشحات وأدوار وقصائد على الوحدة.

ولكثرة سماعي لهذه الأغاني في كل ليلة تولّدت ملكة السماع لدي. وكنت أصلاً أميل الى الموسيقا. ولعلي ورثت ذلك عن جدي لوالدتي أمين العلمي، الذي كان من الموهوبين بصوت حسن مع عزف لطيف على الناي والفلوت. وكان جدّي حتى وفاته من زبونات القناق الدائمين، وكذلك كمال أفندي المهايني، الذي لم يترك والدي منذ شبابه حتى فرّق بينهما الموت. فكانا يجتمعان يومياً في السفر والحضر، في الليل والنهار. وقلَّ أن ترى صداقة كصداقتهما التي كانت مضرب المثل في دمشق.

وكان من هذه الشلّة السيد رشيد الحنّاوي، من وجوه التجار ومن ذوي الذكاء النادر. وكانت السهرات تضم أظرف الندماء المشهورين في دمشق، كالشبؤون، وعبده الحمامي، وكزابر، وغيرهم ممن خصّهم الله بخفة الروح وسرعة النكتة، كما أنّ أكثر الموسيقيين كانوا كذلك من أخف الندماء روحاً وأسرعهم نكتة. وعندما يجتمع هؤلاء وهؤلاء معاً في ليلة أنس، لا يستطيعُ الإنسان مهما كان منقبضاً، إلا أن يتبذّل ويساهم معهم في النكات. وسأضع كتاباً عن ظرفاء دمشق في القرن التاسع عشر، إذا مدَّ الله بالعمر، أذكر فيه كل نديم ظريف مع شيء من نوادره، كحَسَن حمدالله، وسليم شاكر، وبكران، وأبي علي أنبوبا... وغيرهم.

وكان لوالدي في قصبة دوما ندماء ظرفاء، لا يقلُّون خفة عن ظرفاء دمشق المذكورين. كان والدي يقضي نهاره في العمل ويعود مساءً الى دمشق. فإذا قضي عليه المبيت في دوما كان يأتيه الندماء، ومنهم مصطفى صلاح وعبد الحميد شاكر، ومصطفى حسّون وعبد الله الحلاج...، وغيرهم. ومن أظرف الندماء في ذاك

(١) من تلاميذ القباني أيضاً، توفي في دمشق سنة ١٩٠٧ عن ٧٦ عاماً.

العصر عبد النافع أبو غنيم. وكان يجمع والدي في الأعياد والمواسم بين ظرفاء دمشق وظرفاء دوما فيقضون ساعات فريدة.

ومن مشاهير المغنّيين في دوما آنذاك عبد المولى. وكان يغني على طريقة القبضايات، مواويل بغدادية وشروقية وعتابا، يصحبه على الناي سعدو حسّون. ومن لطائف ما وقع من النكات، نكتة عملها أبو غنيم عبد النافع، ما زال الناس يتندّرون بها الى اليوم.

حكاية القاضي والفقير

كان زاهد أفندي الإلشي قاضياً في دوما. وهو من المشهورين بخفة الروح. جاءه محمد عبد النافع أبو غنيم يوماً بعرضحال يقول فيها: إن الله سبحانه وتعالى خلقه بغير إرادته، ودفع به الى خضّم هذا العالم دون أن يستشيره، وحكم عليه بقدرته أن يتزوج ففعل. وأنعم عليه بأولاد من ذكور وإناث ما يزيد عددهم عن تلامذة مدرسة ابتدائية. ومن كثرتهم أفلس. فكانوا سبباً لمصيبته. ولذلك فإنه يرجو حضرة القاضي جلب المدَّعى عليه ليقاضيه ويسأله: لماذا خلقه؟ ولماذا قطع رزقه؟ حتى إنه أوعز إلى أصحاب الحوانيت من التجار أن لا يسلّفوه حاجةً مهما كان ثمنها. وهو يطلب الإنصاف من القاضي لأنه لم يعد يحتمل مرارة هذه الحياة.

أخذ القاضي المعروض وذهب الى القائمقام. وكان الأمير أمين أرسلان على ما أظن. فأطلعه على القصة، وقال له: سأنظر في قضيته بعد إتمام القضايا التي بين يدي اليوم، وأطلب إليك أن تحضر الجلسة.

وهكذا كان. فعقد القاضي جلسة خاصة، ومنع حضورها إلا على كبار موظفي الدولة. ثم طلب المدّعي وهو يتكلّف الجدَّ، وسأله عن دعواه، وطلب إليه أن يُحضِر المدَّعى عليه، فأجابه: إنه حاضر ناظر في كل مكان!

ثم قال: إن قصتي بيدك مكتوبة!

فأمره أن يرويها ثانية، فأعاد شكواه، واصفاً البؤس الذي يحيط بأسرته من كثرة أفرادها. فقال له القاضي: منذ متى هذه العداوة بينكما؟

قال المدّعي: منذ مدة طويلة!

فقال القاضي: منذ تلك المدة الى اليوم، كم قاضياً جاء الى دوما؟

قال: كثيرون!

فقال القاضي: لماذا لم تتقدم إليهم بهذه الشكوى، لينصفوك في دعواك؟

فأجاب: إن الذين تقدّموك لم يكونوا مثلك أصحاب جرأة ومتانة، والجميع كانوا يخافونه. ولهذا لم أقدّم لأحد شكواي. ولما رأيتك أنك الوحيد الذي لايخافه، أتيتك بشكواي طالباً منك الإنصاف!

فصعق القاضي، وصعق الحاضرون. وبعد أن ذهبت موجة الدهشة قال القاضي: هل تريد الصلح مع خصمك؟

فلما أجاب بالإيجاب، قال القاضي: إذن تعال في المساء إلى داري!

وفي المساء ذهب عبد النافع الي دار القاضي، فقدم إليه خمسة دنانير ذهبية، وأعطاه طحيناً ومؤونة الدار لمدة سنة من زيت ودبس وبرغل وزيتون، وقال: اكتب براءة بينكما.

فكتب له براءة. فوضعها القاضي في جيبه وقال للشهود الحاضرين بعد أن أشهدهم عليها: إني سأُوصي بإنزالها في قبري. وإذا حاسبني الله فسأعطيه هذه البراءة الشاهدة يتخلص ذمّته، ليعفو عنّي!



فارس بك الخوري وزير المالية

وداعاً يا دِمَشقُ[1]

ذكرتُ أنَّ والدي بعد أن كان يعدُني بإرسالي الى الآستانة، نَكَلَ وأراد أن يزوّجني ليفرح بي. وعقد نكاحي كما جاء سابقاً. ومضت سنة ١٩١٠ وأنا بدون عمل. ورأس العاطل كما لا يخفى هو محطة الشيطان. وبإمكاني أن أقول إنني لم أترك ناحية من نواحي «الجهل» إلا جربّتُ حظي فيها، حتى مللت، فتقدمت باستدعاء إلى مدَّعي عام الاستئناف، طلبت فيه قبولي في قلم محكمته مداوماً بدون راتب، عساي أتمكن من التمرُّن على الكتابة التركية الرسميَّة فيساعدني ذلك في مستقبلي.

قُبلت وداومت. ولكن دوامي لم يكن يأخذ جميع وقتي. بل كنت غير مجبر على قضاء جميع أوقات الدوام في العدلية، بل كنت أذهب حسبما أريد. ولما كانت كتابتي التركية بالنسبة الى كتابة الآخرين من الكتَّاب أصلح من كتابتهم كان رئيس الكتُاب يعتمد عليَّ بتبييض ما يلزم. وعلى هذا بقيت مداوماً إلى أن فررت إلى أوربا كما سيجيء.

والدي في الآستانة

وفي عام ١٩١١ حصل لوالدي أشغال خاصة في الآستانة، فسافر إليها في أوائل كانون الثاني. وكان بعض رفقائي في المدرسة وأكثر أبناء الصفوف الذين تخرجوا بعدي سافروا الى (إسطنبول) الآستانة. وبقيت مبلبل الفكر، أضرب

(١) بداية الجزء الثاني من المذكرات المطبوعة سنة ١٩٥٢.

أخماساً في أسداس للخروج من هذه الورطة الوبيلة. وكنت أفكر في أكثر أوقاتي بالحالة التي وصلتُ إليها. وقد خطر لي خاطر كان شغلي الشاغل من بعد سفر والدي. وكانت نفسي تُحدّثني بلزوم تنفيذ هذه الفكرة، وهي أن أسافر إلى أوربا لدراسة الزراعة في إحدى مدارسها. ولطالما منعني والدي عن السفر الى الآستانة. وراجعت الأستاذ محمَّد بك كرد علي بهذه الفكرة فاستصوبها وشجعني عليها. ومازلت أفكّر بها حتى تجسَّمت في رأسي.

وصرتُ كالمأخوذ، إنْ قمت أو قعدت، إن نمت أو صحوت، لا أفكر إلا بالسفر. وجعلت الخيالات تمرُّ في مخيلتي مرور مناظر السينما. فلقد كنت أفكر في أيام المدرسة الماضية ثم ينتصب أمامي المستقبل. فمرّةً أرى نفسي في مدرسة زراعية في فرانسا، وأخرى أرى نفسي في دمشق. ثم تمرُّ أمامي مناظر حياة عائلية فيها أولادي يطلبون مني «خرجية» وأنا فقير، مرة أرى السعادة في يدي وهي شهادة المدرسة الزراعية. ثم يمرُّ في مخيلتي المجد والعلاء ومراتب العلم والأدب. وأخيراً تمكنت الفكرة مني، وعزمت على السفر الى فرانسا والدخول في مدرسة زراعية فيها، لأني رأيت بعد شدة التفكير أنني لا يمكنني سحب فلس واحد من كدّ يميني في هذه البلدة، لأن الناس كانوا يعيِّرون أبناء «الذوات» إذا اشتغلوا، فكيف أشتغل وأنا فخري بن محمود البارودي ووحيده، أيُّ عمل يليق بي القيام به دون أن يعيِّرني الناس فيه؟ أي صنعة أقوم بها دون أن ينقذني المجتمع فيها. ها هم أبناء الذوات أكثرهم يعيشون. في دور أهلهم، يتناولون رواتبهم من آبائهم وهم في جهلهم يسبحون. أكبر شاب منهم لا يُحسن قراءة رسالة أو كتابة مكتوب. فهل أبقى مثلهم أمدّ يدي لوالدي أشحذ منه راتبي الشهري بدلاً من أن تكون بيدي صنعة أساعد والدي من نتاجها. هذا بعض ما تراءى لي.

فوطّدتُ العزم على السفر، وجمعتُ ما قدرت على جمعه من المال، فبلغ مائة وثلاثين ليرة إفرنسية ذهبية. دفعتُ ديوني منها، واشتريت أدوات طبخ وضعتها في صندوق خشبي صغير. ونقلت جميع ملابسي التي أخذتُها معي من

«الجوّاني» دائرة الحرم إلى «البراني». ووضعتها في الحقيبة التي اشتريتها خصيصاً لهذه السفرة.

حضّرت الأشياء. ويوم الجمعة الواقع في ١٥ شباط سنة ١٩١١ وصلتني برقية من والدي من إسكندرونة يشعرني فيها بأنه سيصل الى دمشق الأحد مساءً. وخوفاً من أن يصل والدي إلى دمشق قبل مغادرتي إياها أسرعت بإتمام جميع ما يلزمني، وقطعت علائقي، ودفعت ديوني التي لا تزيد عن بضع ليرات. وأخذت البرقية الى خال والدي «عطا باشا البكري»[1] وعدت الى الدار. وأطلعتُ سيدتي الجدة لوالدي ووالدتي على البرقية، وقلت لهما إني سأذهب الى دوما لأرى الأعمال وأعود غداً لأخبر والدي بعد وصوله بحسن سيرها.

وأمرت الحوذي بإحضار العجلة (العربة) ونقلت الأمتعة إليها دون أن يشعر بي أحد. وبعد أن خرجنا من المحلّة إلى الشارع قلت: اذهب إلى فندق «أوتيل فيكتوريا». وكان مكانه مقابل البنك السوري اليوم على ضفة بردى الثانية[2]. ووضعت الحقيبة والصندوق في الفندق، وقلت للحوذي اذهب الى الدار بعد قليل وأخبرهم أني بقيت في الضيعة لأشغال ضرورية، وغداً صباحاً تعال الى الفندق، وذهب الحوذي بالعربة وبقيت في الفندق وقضيت تلك الليلة فيه وصحوتُ في الساعة الرابعة، وارتديت ملابسي بسرعة. وطرق النادل «الكرسون» الباب ليوقظني حسب طلبي في المساء فوجدني جاهزاً، فأحضر لي عربة أجرة، ونقل أمتعتي إليها. وكان الثلج يتساقط والبرد شديداً والشوارع مظلمة، وليس فيها مصباح مضاء. وكان النور الكهربائي مقطوعاً من التكية كما فهمت من شرطي المحطة بعد وصولي.

---

(١) عطاء الله بن أسعد البكري الصّديقي، من أعيان دمشق، توفي سنة ١٩١٥، وأعقب فوزي ونسيب وسامي ومظهر، وكلهم ساهموا في الكفاح الوطني، منتخبات التواريخ لدمشق، ص٨٢٠-٨٢١.

(٢) في موقع بناية الحايك اليوم. يُنسب الى ملكة بريطانيا ڤيكتوريا ١٨١٩-١٩٠١، وقد هُدم الفندق، وأُطلق اسمه على الجسر المجاور له: جسر ڤيكتوريا.

وكانت شوارع دمشق في تلك الأيام لا تختلف عن شوارع القرى. ولم تكن البلدية تعتني إلا بالشوارع التي تحيط بدائرة الحكومة، أما بقية المحلات، خصوصاً النائية كمحلّة الميدان وقبر عاتكة وأمثالهما، فإنها كانت مهملة يخجل الإنسان أن يمرّ فيها من الوحول.

وبعد ساعة من خروجنا وصلنا الى محطة القدم. ويعلم الله ماذا لقيت والحوذيّ من البرد في هذه المدّة القليلة. وكان وصولنا قبل وقت حركة القطار بمدَّة، فوجدت الكثيرين من الركاب ينتظرون القطار. وكانت طرقات المحطة غير مُعبَّدة، وليس فيها رواق يمنع الأمطار عن المنتظرين. وبقينا في المحطة والمظلات في أيدينا تحمينا من الثلوج.

وفي الساعة السادسة تماماً تحرك القطار الى حيفا. وسبب سفري الى حيفا أن طريق بيروت كان مسدوداً من الثلوج، وبقي أربعين يوماً مسدوداً بين بيروت ودمشق.

سار القطار بنا، وكدنا نموت من البرد، لأن أحد ألواح الزجاج مكسور، وليس في العربات مدافئ عامَّة «شوفاج سنترال». وكانت عربات الركوب قليلة والركاب كثيرين. ولم أتمكن من إيجاد محل. وقد تحايلنا على النافذة المكسورة وسددناها ببعض الأمتعة حتى منعنا عنا دخول الهواء المثلوج.

والغريب أن إدارة السكة كانت بأيدي الحكومة، لأن خط حيفا والمدينة هو خط حكومي (مؤمَّم)، فإذا شكونا أمرنا لا يسمع أحدٌ شكوانا، لأن إدارة الخط إدارة حكومية[1]. وتحمَّلنا برودة هذه السفرة إلى حيفا بكل نفس ذائقة الموت. والخط الحجازي مصلحة خاصة، سيأتي لها بحث خاص فيما بعد. وكانت مناظر

---

(١) الخط الحديدي الحجازي، وقف إسلامي كبير، نُفِّذ في عهد السلطان عبد الحميد، واحتفل بتدشينه رسمياً في دمشق سنة ١٩٠٨، ووصل أول قطار قادم من دمشق الى المدينة المنوَّرة يوم ٢٢آب ١٩٠٨م. ويبلغ طوله الأساسي ١٣٢٠كم، وله فروع عدَّة، منها فرع حيفا، وقد خربت أجزاء كبيرة منه إبّان ما سميّ بالثورة العربية الكبرى، ثم شُكّلت لجان لإعادة تسييره، ويبدو أنه لن يسير...

الثلوج المتساقطة على الحقول والجبال رائعة جداً. ولما وصلنا إلى جسر المقارن انقطع الثلج. وفي المساء وصلنا الى مدينة حيفا.

حيفا

بلدة جميلة من ألطف البلاد العثمانية الساحلية. ومناظرها بديعة. وجبل الكرمل يسلب اللب. وهي بلدة زراعية تجارية، ولكنها كانت متأخرة كبقية البلاد العثمانية، وشوارعها ضيقة فيها من الوحول ما يشوّه جمالها يزيل بهجتها. وللأسف لم أجد فيها فندقاً إلا فندق «يعقوب ليفي». ولم تكن الحالة بيننا وبين اليهود متوترة. وكنا نعاملهم كبقية العناصر العثمانية. وبعد أن استرحت قليلاً خرجت الى السوق وتناولت طعامي في دكان شوأّء، دكان قذرة على «طاولة» من الخشب «مزفّتة» من الدهن الذي عليها.

وجعلت أدور في البلدة لقضاء السهرة، فلم أجد مقهى لائقاً بالمسافرين. ووجدت مسرحاً يضربون على بابه بآلات موسيقية عسكرية «كلارينيت وبوكلي وطبل وترامبت» فدخلتُ مع الداخلين، ودفعت الأجرة نصف بشلك. وكان اللاعبون جوقة موسيقية تمثيلية مصرية. ولكن الجميع كانوا من الرجال. وبعد أن أسمعونا شيئاً من الغناء خرجَتْ راقصة ممشوقة القوام، وأجادت الرقص وأحسنته أيما إحسان، مما استلفت نظر الجميع. وبعد نزول الستارة خرجت تلمُّ الإكرامية (البالصة)، فصار الناس يداعبونها. وإذا بها شاب صوته عريض يقلد النساء بالرقص، على رأسه شعرٌ مستعار. وقد فهمت أن ظهور الراقصات على المسرح لايجوز، وهو ممنوع بأمر القائمقام، ومسموح للرجال تقليد النساء، وكان هذا في البلاد العثمانية معروفاً مشهوراً. والأتراك يسمون الرجل الذي يمثل دور البنات«زينة».

ثم لعب الممثلون دوراً هزلياً ختموا فيه الليلة. وعدتُ الى الفندق. ولما صحوت في الصباح الباكر ذهبت أولاً الى الميناء، وسألت عن البواخر التي تسافر ذلك اليوم الى الاسكندرية، فأخبروني أن إحدى بواخر الشركة الخديوية

المسمَّاة«قُصير» ستصل العصر الى حيفا وتقلع منها في الساعة الرابعة عربية ليلاً، أي في الساعة العاشرة زوالية مساءً. فعُدت الى البلد وأكملت ما ينقصني من الحوائج، خصوصاً أدوات طبخ الطعام التي حملتها من بلادي الى أؤربا، وعادت معي الى دمشق دون أن احتاج إليها إلا في طريقنا من فيينا إلى الآستانة عند رجوعنا كما سيجيء ذلك فيما بعد.

ثم ذكرت لأحدهم ما لاقيت الأمسِ من العناء في تناول طعام العشاء فقال: أصلحك الله، إن في البلدة مطعماً نفيساً يسمى «مطعم الكازار». وهو مطعم نظيف في موقع جميل يطل على البحر، حسن الرياش، وخدامه آية في النظافة، مما غيَّر فكري في حيفا. فذهبت الى الكازار ورأيته حقيقة كما قال الرجل. فتناولت الطعام، وخرجت أفتّش عن محل (عبد الله أفندي مخلص)[1]، وأنا ألوم نفسي لتسرُّعي بالحكم على مطاعم حيفا بالأمس. وقلت: على المرء أن لا يحكم قبل أن يحقق.

وعبد الله مخلص من أصدقاء محمد بك كرد علي[2] الذين يعتمد عليهم كل الاعتماد. وهو من أدباء العرب وعلمائهم. وكنت أحمل إليه كتاباً من صديقه كرد علي يوصيه بي خيراً. وأرشدوني إليه في الميناء. وكان مديراً «العنبر» مستودع السكة الحجازية. فلما قرأ الكتاب رحَّب بي ترحيباً قلبياً، وأجلسني الى جانبه، وأحضر لي القهوة.

وأخبرته خبري فجعل يؤانسني ويشجعني على المضي في طريق العلم. واستعلم عن قدوم الباخرة «القُصير»، وعرف أنها ستصل العصر. فأرسل بصحبتي أحد الكتاب المدعو رضا أفندي. وسرنا إلى «الآجنته الخديوية» مركز فرع الشركة في حيفا لقطع تذكرة سفر. فتمنَّع الموظف الإنكليزي عن إعطائي التذكرة لأني من دمشق.

---

(١) أديب عربي وعضو في المجمع العلمي العربي بدمشق، وله مؤلفات مطبوعة. ولد سنة ١٨٧٨م وتوفي سنة ١٩٤٧م.

(٢) علامة الشام، ورئيس المجمع العلمي العربي فيها، وصاحب خطط الشَّام، تُوفي سنة ١٩٥٣م.

وكانت الحكومة المصرية لا تقبلُ دخول أحد الشاميين إلى القطر المصري خوفاً من أن يكون الشامي آتياً من الحجاز. وكانت بلاد الحجاز موبوءة في ذلك العام. وكان الخوف من دخول جراثيم الكوليرا الى القطر. وعدت إلى عبد الله أفندي مخلص. فقام وغاب مدة قليلة وعاد ومعه أوراق رسمية تثبت أني من موظفي الخط الحجازي، ومن الذين لم يذهبوا إلى الحجاز في هذه السنة.

وبناء على هذه الأوراق أخذت تذكرة سفر مع حسم ٤٠ بالمئة، لأني من مستخدمي سكة الحجاز!!!

وبينما أنا في الميناء بين العنبر والآجنته وإذ بسامي باشا مردم بك، وهو من وجوه دمشق، مع ابن عمه راشد باشا وبعض الدمشقيين، مثل صادق أفندي جبري، والدكتور سليم أفندي صبري، وغيرهم من التجار الذين فاتتني أسماؤهم، عرفوا بسفري إلى أوروبا، ولا أدري من أين فهموا أني ذاهب دون إذن والدي. فتجمهروا علي وجعلوا ينصحونني بالعودة لأخذ إذن والدي وبعدها أسافر. وأصروا عليَّ بذلك، ولكني لم «أخزِ» الشيطان على رأيهم، وبقيت مُصراً على السفر، وهكذا كان.

الى يافا

في الساعة الرابعة وصلت الباخرة، وألقت مراسيها خارج الميناء. ونزل الركاب بالرغم من هياج البحر. وكان بين الركاب بعض الدمشقيين الذين ركبوا من بيروت، أخبروني أن والدي وصل إليها عائداً من الآستانة (إسطنبول)، وأن الطريق بين دمشق وبيروت سدَّته الثلوج. وبينما نحن في هذا الحديث وإذا بقارب عليه علم يضطرب في البحر وتتلاعب به الأمواج، ينقلب بمن فيه في منتصف الطريق بين الميناء والباخرة. وبادر الملاحون لإنقاذ الغرقى فأنقذوهم جميعاً. وكان هذاالقارب قارب البريد الروسي، والعلم الذي كان يرفعه هو العلم الروسي.

جرى هذا أمام الناس، فأحجم الكثيرون عن السفر خوفاً من هياج البحر، كما أنهم لم يتمكنوا من تحميل الحمضيات أو صناديق التجارة لهياج البحر. وجاء

عبد الله أفندي مخلص إلى الميناء . وبواسطته تمكنتُ من إيجاد ملاحين يوصلونني الى الباخرة، وكانت أجرة الراكب في مثل هذه الأحوال ليرة افرنسية ذهبية . وملاحو حيفا مشهورون بهذه الصنعة، يفوقون البيروتيين واليافاويين بالمهارة وشدة البأس والقوة .

وعندما أنزلنا الأمتعة إلى القارب وقفت أودّع الدمشقيين . وقد أعاد الجميع عليَّ الكرَّة يرجونني تأخير سفري الى أن يهدأ البحر، فلم أقبل خوفاً من أن يحضر أحد من دمشق، أو يأتي تلغراف إلى الحكومة بلزوم منعي من السفر، فيتأخر سفري . وقلت : لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا . وودَّعت الجماعة وركبتُ القارب، وكان فيه سبعة ملاحين، أكثرهم رؤساء . وأحد الرؤساء نادى ابنه فجاء وركب في المؤخرة لإدارة الدفة . وسار بنا القارب قبل غروب الشمس، وجميعُ الناس الواقفين على رصيف الميناء جعلوا يدعون الى الله . وكلما جدَّف الملاحون وتقدموا خمسة أمتار يأتي الموج ويردنا أربعة أمتار إلى الوراء .

وعلى الرغم من أني لم أركب البحر في عمري لم أخف، ولم يصبني الدوار، وكنت أشجع الملاحين وأحدثهم . وهم يضحكون كأنهم ذاهبون الى متنزَّه . وقد بُحَّ صوتي من شدة الصياح، لأن هدير الأمواج كان يذهب بالصوت أدراج الرياح . ودخلت العتمة وكثر الضباب وبعدنا عن البلدة . ولم يعد يظهر لنا إلا نور مصابيحها . وكانت أنوار الباخرة تظهر لنا من بُعدٍ .

وبينما نحن سائرون باتجاه الباخرة، إذ بالقارب يتحوَّل سيره وينحرف قليلاً عن اتجاهه . فنبَّهت ابن الريّس إلى ذلك فقال لا تخف، نحن ذاهبون إلى مستودع هنا في البحر لنأخذ بعض الملاحين من هناك إلى البلدة . وبدلاً من أن نأخذهم في الرجعة نأخذهم الآن ليساعدونا بالتجذيف . فقنعت وصرنا نمر بقوارب مربوطة بالصخور . فسألت عنها فقالوا إن الملاحين يربطون قواربهم قرب مستودع الكلس أو الفحم (لم أعد أذكر) خوفاً عليها من الاصطدام بالصخور إذا هم أبقوها في الشاطئ، لأن ميناء حيفا كانت تخيف البحارة، وليست مثل ميناء الإسكندرية أوبور سعيد مثلاً .

وبقينا نسير مدة غير قليلة بين الصخور إلى أن وصلنا إلى المستودع، وهو قائم في البحر على صخور مرتفعة عدة أمتار عن سطح البحر، واصطدم القارب بجانب المستودع، فجعل ابن الريِّس يشتم بعبارات بذيئة لم أسمع مثلها في عمري. وخاف الجميعُ من الغرق. وبعد قليل سمعنا لغطاً فنادى أحد الملاحين فأجابوه، فتقدمنا بحذر من محلهم، والبحارة يتحاشون اصطدام القارب بصخرة أو بجانب المستودع، إلى أن وصلنا إلى المستودع. فنزل سبعة أشخاص الى القارب وجعل يجذف كل اثنين بحذاف، وعدنا الى البحر واتجهنا نحو الباخرة. ولولا اتساع القارب ومهارة الملاحين لما وصلنا سالمين.

ولم نكد نقترب من الباخرة حتى سمعنا سلاسل السلم وهو يرتفع، فجعلوا يصيحون بأعلى أصواتهم على الطائفة الذين عرفوا بوصولنا، فأعادوا السلم وصعدتُ إلى الباخرة وأصعدوا الحقائب والأغراض. وأردت إعطاءهم الأجرة فأبوا إكراماً لعبد الله أفندي، ولأني ذاهب في طلب العلم. فشكرتهم ونقدت الذي أصعد حقائبي ريالاً مجيدياً بخشيشاً، فتمنع أيضاً، ولكني أقسمت فأخذه وودَّعتهم. وعادوا بالسلام الى حيفا.

ورؤساء الملاحين الذين رافقوني في تلك الليلة هم السادة: الريس محمود رنّو، الريّس أحمد حسن رنّو، السيد أسعد أبو زيد، السيد أحمد أبو زيد، السيد حسن الحاج إبراهيم، السيد محمد الحاج إبراهيم. فلهم الشكر أولاً وآخراً على هذا المعروف الذي يجب أن يسطَّر لهم في هذه المذكرات. ورحم الله المتنبي حيث يقول:

لا خيلَ عندكَ تهديها ولا مالُ فليسعدِ النطقُ إن لم تُسعِدِ الحالُ

فإلى الأحياء منهم شكري، وإلى من قضى منهم الرحمة والغفران.

في الساعة السابعة والنصف زوالية من ذلك اليوم أقلعت بنا الباخرة من حيفا وهي باخرة صغيرة ليس فيها شيء من الحمولة. وما كدنا نبحر حتى اشتد البحر وهاج، وجعل يلعبُ بالباخرة كما تلعب الريح بالريشة، وقد تحمَّل الركاب،

حتى بعض البَّحارة منهم، آلاماً شديدة من الدوار. وذهب كل راكب إلى فراشه، وذهبت الى «قمرتي» ونمتُ إلى الصباح نوماً متقطعاً، حيث صحوت في الساعة السابعة من يوم الاثنين ٢٠ شباط ١٩١١. وصعدتُ الى الظّهر فوجدت الباخرة متجهة إلى يافا، والمدينة قريبة منا. وبعد ساعة تقريباً ربطت الباخرة بعيداً عن الميناء. وكان البحر ساكناً. وقال الملاحون إن البحر منذ عشرين يوماً لم يسكن. ولم تقف باخرة في يافا لشدة هياجه. وهذه أول باخرة تقف منذ عشرين يوماً. فحمدنا الله، وأقبل الركاب والتجار.

واشتغل الملاحون بنقل صناديق البرتقال. وما زالوا يعبئون الباخرة الى أن امتلأت عنابرها وامتلأ الظهر حتى وضعوا صناديق البرتقال في جوانب الممرات، مما ساعد على تحمل الباخرة لهياج البحر، لأنها كانت فارغة وكانت العواصف تلعب بها، أما بعد الحمولة فكان البحر بالرغم من هياجه أقل تأثيراً بمداعبتها.

ومما يُذكر أن الباعة المتجولين صعدوا من القوارب الى الباخرة يحملون بضائع مختلفة، أكثرها من مصنوعات القدس وضواحيها. وهي من خشب محفور وأصداف مرصوفة ومسابح وصلبان وغير ذلك من المصنوعات التي يعدها متدينو المسيحيين من الآثار المقدسة.

وركب في الباخرة كثيرون من زوار القدس من الاوربيين الذين كانوا منقطعين في القدس منذ عشرين يوماً للنوء الشديد الذي حصل في ذلك العام. وفي الساعة التاسعة زوالية[1]، أقلعت بنا الباخرة من يافا. وفي الساعة التاسعة من صباح الثلاثاء الواقع في ٢١ شباط ١٩١١ ظهرت لنا مدينة بور سعيد المصرية.

مدينة بور سعيد

في الساعة الواحدة بعد الظهر ربطت الباخرة في الميناء، ونزل أكثر الركاب رأساً الى الرصيف دون استعمال القوارب. ونزلتُ مع رفيق تعرفت عليه في

(١) كان أهل دمشق وجميع العثمانيين يستعملون الساعات العربية في معرفة أوقاتها. وقد اتبعت الوقت على الساعة الزوالية منذ ركوبي من حيفا فتنبَّه.

الباخرة يُدعى كرياكو بك، وهو أحد موظفي وزارة الزراعة في الآستانة. أردنا التفرج على البلدة فحصلنا على رخصة من موظف جالس خلف منضدة من خشب، وأمامه حاجز من الخشب «كالدرابزين»، أخذنا إليه حمّال في صدره قطعة نحاس محفور فيها رقمه، وكفلنا عند هذا الموظف بأننا سنعود بعد الفرجة على البلدة. وبعد أن تثبت الموظف من أننا لم نكن في الحجاز سمح لنا بالخروج. فخرجنا من باب يحرسه رجل يسمُّونه (عسكري)، أعطيته ورقة (العتاقة) التي أخذناها، فسمح لنا بالمرور، فخرجنا ودرنا في هذه البلدة اللطيفة التي أثرت مناظرها بي تأثيراً كبيراً لأني لم أكن خرجتُ قبلاً من دمشق. وجعلت أقارن بين نظافتها ووساخة دمشق، وقلت: ليت ربي يرزق دمشق رئيساً لبلديتها، فيجعلها كبور سعيد.

ووصلنا في سيرنا إلى دائرة البريد، وكانت تسمَّى «دائرة البوسطة»، فكتبت تحارير إلى والدي وأصدقائي ووضعتها في صندوق البريد، وأتممنا الفسحة وتفرجنا على الحدائق والشوارع.

جلسنا في أحد المقاهي نتناول كأساً من الشاي، وإذ بجوقة موسيقية مؤلفة من نساء ورجال دخلت المقهى وجعلت تعزف القطع الموسيقية الإفرنجية، مما لم يكن لي عهد به. ودارت إحدى النساء وبيدها صينية على الجالسين تستجدي منهم الأجرة، ويسمّونها «البلصة أو البالصة»، وانتقلت الجوقة إلى مقهى آخر. وعدنا إلى الباخرة واشتريت في طريقي عصا من جلد داخلها قضيب حديدي. وهي ثقيلة جداً أفادتني في الرحلة كثيراً كما سيجيء. ومن الضروري لكل إنسان أن يحمل بيده عصا قوية. والعصا نصف سلاح.

وصلنا الباخرة، وجاءنا الكفيل يطلب أجرته فنقده كل واحد منا فرنكاً وذهب شاكراً، بخلاف دليل إسكندرية الذي سيأتي خبره قريباً.

أقلعت الباخرة في الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين، وسارت ببطء، وانتشر الركاب أفراداً وجماعات في الممرّات وعلى السطح منهم من راح

يتمشّى، ومنهم من جلس يتمتع بالمناظر، ومنهم من أخذ يغني دمدمة، أو يصفر. والباخرة تبتعد، ثم أسرعت بالسير، وبدأ الليل يخيم. ودخل الركاب متتابعين الى صالونات الباخرة، منهم من يطالع، ومنهم من يلعب الورق أو الشطرنج. وقضينا سهرة لطيفة وقد اجتمع فريق كبير في إحدى زوايا صالون الطبقة الثانية، وجعلوا يتحدثون وكل من عنده حكاية لطيفة أو طرفة طريفة يلقيها على المسافرين، وهم يضحكون ولا شك أن السفر أكبر مدرسة للإنسان. ورقي البشر يظهر في مثل هذه السفرات وكلما طالت السفرة ظهرت الأخلاق على حقيقتها.

والمسافر لا بد له من أن يجتمع ويتعرف الى أناس مختلفين، منهم اللطيف ومنهم الثقيل. وويل لمن يصطحب ثقيلاً في سفره. لاشك في أنه (يعدم عافيته معه)، ووصيتي لكل من أراد السفر أن يختار الرفيق قبل الطريق، خصوصاً في السفرات البعيدة. والرفيق ضروري في مثل هذه السفرات لأن الإنسان معرَّض للحوادث. والسعيد من يتمكن من إيجاد الرفيق الموفق. وكثرة الرفقاء في أي سفر بلاء، خصوصاً إذا كانت مشاربهم مختلفة أو كان بينهم من صحته منحرفة.

الإسكندرية

في الساعة السادسة من صباح يوم الأربعاء في ٢٤ شباط ١٩١١، أيقظني «الكرسون» مُعلناً وصولنا إلى الإسكندرية، فأسرعت بجمع حوائجي ووضعها في الحقائب، وأفطرت ثم وقفت على سطح الباخرة أتمتّع بمناظر المرفأ والسفن والحركة في هذا المرفأ الجميل.

ورست الباخرة جانب الرصيف في الساعة التاسعة، ونزل الركاب. ولما صرنا على البر سألت عن البواخر المسافرة الى مرسيليا وأوقاتها، فأعلموني أن باخرة ألمانية ستقوم مساء اليوم إلى مرسيليا، اسمها «البرنس هنري»، فسررت وذهبت قبل أن أخرج أمتعتي من الباخرة «القصير» إلى الأجنطة الألمانية وقطعت تذكرة. ونقلت أمتعتي من باخرة الى باخرة بسرعة. ولماكان لدينا وقت طويل للسفر طلبت من مدير الميناء إذناً بالسماح لي بالخروج إلى الاسكندرية للتمتُّع

بمناظرها، والتفرج عليها، فسمح لي وخرج معي نيقولا كرياكو بك، وتقدم منا دليل أحبَّ أن يدلنا على البلدة، فأبى رفيقي كرياكو بك ولكني أصررت، وأخذنا الدليل وسرنا في البلدة بعد أن كفلنا الدليل لدى الموظف في المرفأ، على أن يعود بنا قبل أن تُقلع الباخرة. ولم يسمح لنا الموظف بالخروج إلا بعد أن اطلع على أوراقنا، والمستندات التي تشعر بأننا سنغادر الإسكندرية، أنا إلى مرسيليا، وكرياكو إلى الآستانة.

وعلى هذا خرجنا نتمشى في الشوارع، واستأجرنا عربة ركبناها ودرنا في البلدة مقدار ساعة. وطلب كرياكو مني أن نتمشى لأن السائح يتمكن في السير من رؤية البلدة أكثر من الراكب، فأجبته إلى طلبه. وقد لاحظت كثرة الباعة المتجولين يحملون في أيديهم الحوائج الخفيفة، كالأقلام والأمشاط وغير ذلك. وإذا عرفوا أن المشتري غير مصري يطلبون ثمن الحاجة أضعافاً مضاعفة. ومهما أنقص المشتري من الثمن يجد الحاجة باهظة. وقد طلب مني أحدهم سبعين غرشاً ثمن قلم حبر، فرفضت. وما زال ينزل من الثمن حتى أخذته بعشرة قروش فتأمل.

والفقراء كثر، خصوصاً الأولاد كانوا يسيرون حفاة عراة الرؤوس، يلحقون السياح يطلبون الصدقة بإلحاح بصورة بشعة، كما هو الحال في بلاد الشرق.

بلدة الاسكندرية بلدة جميلة لا يمكن وصفها بمجرد مرور طريق، ولكن يمكنني أن أقول إنها ثغر جميل (باسم) فيها حركة عظيمة. اشتريت منها بعض الكتب. وبينما نحن في الطريق مررنا بمصرف «كريدي ليونيه»، فقال كرياكو بك إن لي أموالاً مودعة في البنك، مرادي سحب شيء منها. ودخلنا المصرف وطلب سحب المال، وطلبوا منه أشخاصاً يعرّفونه، فقال للدليل: تعال معي لنحضر لهم من يعرِّف بي. وخرجنا من المصرف. وجعل كرياكو يسير بنا من محل لآخر، والدليل يسأله: إلى أين أنت سائر؟ فيقول: إلحقْ، إلى أن وصلنا أمام بناية عظيمة، فقال له: وصلنا، انتظروني هنا لأحضر أصدقائي. ودخل من الباب، (ويا إيدكم)، وخرج من باب آخر. وانتظرنا مقدار ربع ساعة والبك لم يحضر، ودخلنا

نفتش، ولكن «أين فطيم بسوق الغزل؟» وبعد أن درنا جميع الوكالة غرفة غرفة ولم نجد له أثراً عرفنا أنه محتال وجد وسيلة للهرب «ففركها». ولا تسلْ عن الدليل الكفيل وما أصابه من الانزعاج. فلطم وجهه حتى كاد أن يدمي خدوده وجعل يصيح، وخرج الزبد من فيه، وأخذ بتلابيبي وقال وهو يبكي وينوح: أنت المسؤول عن رفيقك: (يا لله وياي َللقسْم)، واجتمع حولنا الناس. وما أقنعته بلزوم السير إلى المرفأ لإخبار مديره بالأمر إلا بألف جهد جهيد.

ولما وصلنا أعاد الرواية (وزاد بالزعبرة) أمام الموظف الذي كفلنا عنده، وجعل ينادي: يا عسكري، وجاء شرطي أسمر طويل فشكاني إليه. وأخبرته الخبر، وقلت: مادام هذا الدليل يعرف البلدة كان عليه أن يدخل مع الرجل، مادام يعرف أن هذه البناية لها أبواب عديدة. وكرياكو رومي وأنا عربي، ولا رابطة بيننا غير معرفة الطريق، فما ذنبي إذا هرب منه؟ وهنا تداخل أولاد الحلال وقالوا: أرضه. قلت: بماذا أرضيه؟ فقال أحدهم: (بكم جنيه). وهنا بدأت الرواية تتجدَّد، وزاد الرجل بالصراخ. وبالرغم من أني قبلت أن أدفع له نصف (بينتو) أي نصف ليرة افرنسية ذهباً، فإنه لم يقبل إلا أن نذهب الى القسم فقلت: يا الله الى القسم، أيوجد هناك قطع راس؟ ولما عرف مني الجد تراجعَ وقبل النصف (بينتو) وهو يشتم كرياكو بكل مسبَّة بذيئة. وبعد أن انتهت هذه المشكلة صعدت إلى الباخرة الجديدة.

الباخرة هنري

هذه الباخرة من بواخر شركة «نورد دوتشر لويد بريمن»، واسمها البرنس هنري، وفيها ٣٤٣ قمرة لعموم الدرجات: «بريمو» أولى، وعدد قمراتها ٢٨٠. و«سيكوندو» ثانية، وعدد قمراتها ٤٥، وثالثة وعدد قمراتها١٨. والأسرة في القمرات: ففي الأولى سرير أو سريران، وفي بعضها ثلاثة حسب طلب الراكب. وأسرَّة الدرجة الثانية أربعة أو ستة. والثالثة أسرّتها ستة أو ثمانية. والأسرّة في القمرتين الثانية والثالثة فوق بعضها. أما في الأولى ففي كل قمرة من ٢ الى ٣ أسرّة وجميعُ القمرات فيها مغاسل تامة، وكلها نظيفة. وغير هذه الدرجات يوجد

السطح، ويسمّونه ظهر الباخرة. والسفر عليه في الصيف لطيف جداً. أما في الشتاء فهو مزعج لما يصيب الراكب من تبدل الأنواء من الدوار.

الصالونات وغرف الطعام

ولهذه الباخرة في كل درجة صالون للجلوس يختلف باختلاف الدرجات. وأحسنها «البريمو» فيه مناضد مختلفة مفروش برياش ثمينة، وفيه آلة للموسيقا«بيانو» كبيرة يعزف عليها من شاء من الركاب، وتقدم في الصالونات جميع أنواع الألعاب كالورق والشطرنج والداما والدومينو وغيرها من الألعاب المخصصة للصالونات، من البريتش للبوكر إلى غير ذلك.

وغرف الطعام نظيفة. والدرجة الأولى أوانيها جميلة ثمينة. وعلى كل وحدة من أدوات المائدة علامة الباخرة متخذة شعاراً للأواني وجميع أدوات الباخرة. والشعار هوحرفا (ب. هـ. P.H)، وهما أول حروف البرنس هنري.

كان لكل درجة ممرَّاتٌ خاصة مع ملاعب على سطح الباخرة، وفي الممرّات توضع للركاب كراسي بحربَّة تفتح وتغلق وتمدد حسب طلب الراكب. منها ما يحضره المسافر صحبته، ومنها ما يعطى من قبل إدارة الباخرة مقابل فرنكين أجرة الكرسي من الإسكندرية الى مرسيليا. والفرنك معادل ربع ريال عثماني. وعلى جانب كل كرسي إطار صغير ثابت من النحاس يوضع فيه بطاقة (كارت) يحمل اسم مستأجره أو صاحبه.

التسلية على ظهر الباخرة

ويوجد على الظهر ملاعب للدرجات الثلاث فيها أنواع من اللعب، منها لعبة فاتني اسمها لم أقيده بمفكرتي. وهي عبارة عن مربعات مخططة في الأرض وأقراص من خشب رقيقة مبسطة بشكل دائرة تضرب بعصوات في أسفلها قطعة من خشب مبسطة بقدر الكف، فتدفع الأقراص الى المربعات. و«الشاطر» من اللاعبين من لا يمكّنْ خصمه من وضع أقراصه في المربعات، بل يسعى بضرب أقراصه لإخراج أقراص اللاعب الآخر. وقد دخلت في هذه اللعبة. وبأقل من ربع ساعة

أصبحت بطلاً فيها. وهناك لعبة أخرى، وهي عبارة عن أكياس صغيرة مملوءة رملاً ترمى من بعد الى مربعات غير مربعات اللعبة السابقة. في هذه المربعات أرقام، لكل مربع رقم، يرمي اللاعب بالكيس، فمن وصل كيسه أبعد من غيره يكون هو الرابح. وهذه لعبة لإظهار القوة. غيرها: خشبةمستطيلة بثخن عشرة سم، في وسطها عمود رأسه كالأهرام، بارتفاع متر في جانبه عددمن حلقات الليف شبيه الكعك. يرمي اللاعب من بُعد مخصوص بالحلقة، فالذي يدخل أكثر من غيره حلقاً من الليف في العمود يكون هو الرابح.

والخلاصة: كان هناك عدة ألعاب لا لزوم لذكرها كلها. وأكثر الركاب يشتركون باللعب نساء ورجالاً، ولا يمتنع عن اللعب إلا من يجهل الألعاب. ولاأفتخر إذا قلت بأني تعلمت جميع هذه الألعاب وأتقنتها، وكنت محور اللعب طول هذه الفترة. ويوجد من الألعاب غير ما ذكرت لعبة سبق الخيل، وهي من أخشاب على شكل الفرسان تصفُّ في مربعات ستة، بعضها جانب بعض، لكل فارس بيت خاص كبيوت الشطرنج. وكل فارس يحمل رقماً. وبهذه اللعبة شبكة من شريط مخروطي كساعة الزجاج الرملية لها طرفان، مثقوبة من المنتصف عند اجتماع رؤوس المخروطين، تدار بدولاب، فيها ثلاثة فصوص من فصوص النرد كبيرة الحجم، يحرك دولابها بالدوران. ومتى وقف الدولاب تسقط الفصوص المسدسة الأوجه، وتستقر في أسفل الشبكة، فالرقم الذي يكون في الوجه الأعلى من الزهر يسير فارسه قاطعاً المربعات بمقدار أعداد الرقم. فإن وقف الزهر على رقم ثلاثة أو أربعة وستة مشى الفارس ذو الرقم الثالث وذو الرقم الرابع وذو الرقم السادس.

وإذا جاء الثلاث زهرات رقم واحد يسير فارس الرقم ثلاثة بيوت من بيوت ذلك الرقم، والذي يسير الفارس أحد الخدم ينقل الفُرسان في البيوت الى أن يسبق أول، فارس، فيكون الرابح للسبق، ولهذا السبق أوراق تباع للمتفرجين يتراهنون فيها على السابق مقابل مبلغ طفيف يجمعُ في نهاية الشوط مجموع الدراهم المدفوعة ثمن أوراق اللعب، ويحسم منها ١٠ بالمئة لإدارة الباخرة، والباقي يعطى

للرابحين، أي لمن يحملون أوراقاً برقم الفارس الفائز، وهذه اللعبة مسلية ولكنها على كل حال لعبة قمار.

في البحر الأبيض المتوسط

قلت إن الباخرة تحركت بنا في السّاعة الثانية من بعد ظهر الأربعاء في اليوم الثاني والعشرين من شهر شباط ١٩١١ من ميناء الاسكندريّة. وكان البحر غاية في الهدوء، والهواء عليلاً، والركاب يمرحون في المماشي وعلى ظهر الباخرة يسيرون أزواجاً وفرادى، وتقدم مني شابان يتكلمان اللغة العربية جيداً باللهجة المصرية، وقدّما لي أنفسهما: أحدهما يدعى «المسيو باروخ بنطاطا والثاني يدعى باصيل بصالتي»، وكلاهما يهودي، وجلسنا في الممشى نتمتع بمناظر البحر والتموّجات الخفيفة، ونتحدث أحاديث مختلفة. وبقينا على هذا المنوال إلى أن حان وقت الطعام، فتناولنا العشاء وصعدنا الى الصالون، وهناك اجتمع جميع ركاب الدرجة الثانية، وبدأ التعارف بين الركاب، وكان بينهم رجل ألماني بدين يدعى «الهربريك» خفيف الروح جداً، لم يترك فرصة إلا اقتنصها للتفريج عن المسافرين وتسليتهم. وبالحق فلقد كان سلوتنا من الإسكندرية إلى مرسيليا.

وبعد التعارف مع بعض الركاب انتحى كل جماعة منهم ناحية وجعلوا يلعبون الورق والشطرنج والنرد. ودار باروخ ورفيقه باصيل على الحاضرين يسعَوْن لتشكيل لعبة «بوكر»، فتوقفوا لإيجاد بعض اللاعبين. وسألوني: هل تلعب البوكر؟ قلت: لا قالوا: تعال نعلمك إياها. قلت: لا أريد. قالوا: لماذا قلت: لأنها في البدء لعبة بوكر، ولكنها في النهاية«بوق يير» ومعناها باللغة التركية: أكل هواء...

وكان بجانبي رجلان يسمعان حديثنا، فضحكا، وكلّماني باللغة التركية، وهما روميان. وكان هذا الحديث ورفضي اللعب سبباً لعقد أواصر الصداقة بيننا. أحدهما يدعى قسطاكي أفندي، والثاني جورجي أفندي. وقد قضيت أكثر أوقات السفر من الإسكندرية الى مرسيليا بصحبتهما.

وتقدم مني شاب إيطالي، وعرّفني بنفسه يّدعى «المسيو ميشيل سبيرناك»،

يتكلم اللغة الافرنسية بصعوبة. هذا الشاب جاءني يوماً الى غرفتي -وغرفة البواخر تسمى «قمرة»، وجلس عندي يحدثني بلغة إفرنسية مكسّرة، ومع الأسف كانت إفرنسيتي مكسَّرة أكثر منه. . وبعد فترة من الزمن أخرج من جيبه رسوم بنات عاريات بأوضاع مختلفة، ورسوم أخرى فيها مناظر فحش. وأفهمني أن الباخرة سوف تقف في نابولي، وأنه يعرف نابولي، وله فيها صديقات من هؤلاء النسوة. وقدم نفسه لي كدليل خير يحب خدمة الإنسانية مقابل أجر طفيف لا يزيد عن الخمسين فرنكاً، مقابل تعريفي بإحدى الفتيات الجميلات. فصرفتُه بالحسنى، وتجنَّبته بعد ذلك. وعندما نزلنا في نابولي «فركتها» منه، ولم أصاحبه في الجولة التي جُلْتُها فيها كما سيجيء.

الشطرنج

ومن الألعاب المحببة الى المسافرين لعبة الشطرنج. والذين كانوا يلعبونها أكثرهم من الطبقة الغنية. وقد جلس الى جانب لاعبَيْن يلعبان بالشطرنج. وقضيت وقتاً طويلاً جانبهما وأنا أتفرج دون أن أتكلم كلمة واحدة. ولم «أدودب» لا مع هذا ولا مع هذا. و«الدودبة» في لغة الشطرنج هي أن يساعد المتفرج أحد اللاعبين بإلفاته الى لعبة إذا لعبها يكون له منها فائدة. وأكثر المتفرجين في بلادنا «يدودبون». والذي رأيته في أوربا «لا يدودب» أحد مع أحد إلا إذا كانوا شلة أصدقاء مرفوعة بينهم الكلفة.

وبعد أن انتهيا من لعبهما سألني أحد الجالسين، وهو رجل ألماني يدعى «الهر باربو»: هل تلعب الشطرنج؟ قلت: قليلاً. قال: أتحبُّ أن تلعب «دقّاً» دستاً بالشطرنج؟ قلت نعم. فلعبنا، واجتمع حولنا اللاعبون للتفرُّج. ولعبنا دستاً خرجنا به (باطة). ثم آخر غلبني فيه. وانتصف الليل، وجعل الركاب ينسحبون إلى قمراتهم. وكان البحر هادئاً، والباخرة تسير بسرعة يُسمع لمراجلها صوت ضعيف. وكان اهتزازها خفيفاً فلم يؤثر الدوار على أحد، وانسحبتُ الى قمرتي ونمت بهناء.

صحوت باكراً، ولما ارتديت ملابسي وجدت في رقبتي بعض الحرارة من قبة القميص (الكوتشوك) فلم أضعها، وتركتها مع «الكرافات-قمطة الرقبة» لأريح رقبتي. وذهبت الى غرفة الطعام لتناول الفطور(كسر الصفرة). ولم أكد أن أصل إلى المكان المخصص لي وأتقدم للجلوس وإذ برئيس الخدم (شيف دو تابل) يتقدم مني بلطف ويشير الى رقبتي قائلاً: أظنك نسيت القبة. قلت: لا. وأريتُهُ حبوب الحرارة الظاهرة في رقبتي. قال: بإمكانك أن تلفها بشيء يستر الرقبة، لأنه لا يجوز الجلوس على المائدة بين الركاب بدون (قبة وكرافات). فرجعت الى القمرة ووضعت قبتي وعدت.

وبعد الطعام قضينا الوقت على سطح الباخرة وفي الممَّرات بالرغم من برودة الطقس. وأخيراً أخذت كتاباً وجلست في مقعدي أطالع. وكان الركاب منتشرين في الباخرة، منهم من يدمدم، ومنهم من يصفر لحناً، ومنهم من يقرأ أو يحدِّث رفيقه. وقرب الساعة العاشرة صباحاً جاءني «الهرباربو» طالباً اللعب بالشطرنج، فقمت الى الصالون وجلسنا نلعب دستاً.

وبينما كنا نعلب وإذ بسيدة تدخل، يصحبها زوجها وابنتها، ووقفوا يتفرجون على اللعب. وكان الألماني يتكلم الافرنسية بصعوبة. كذلك كانت إفرنسيتي. ولذلك كان تفاهمنا بالإشارة. وبعد عشر نقلات في الأحجار أخذتُ الدست بغلطة غلطها الرجل. وعند الإفرنج لا يجوز الرجوع في اللعب خلاف العادة عند العرب، فإنهم يرجعون في ألعابهم إذا كان الاتفاق بين اللاعبين على ذلك.

فلما أخذت الدست(الدق) صفقت بيدي وطالعت من القاموس كلمة انتقام، وقلت له: أخذت بثأري منك، وجعلنا نضحك جميعاً من تكلمي بالإشارة. وقالت لي السيدة: أتحب أن نلعب دستاً، ولو لم يكن بيننا معرفة؟ فقلت: بكل سرور. قالت: أنا مدام المسيو فيليب، وهذه ابنتي. قلت: وأنا المسيو فخري، وخطيبتي في بلدتي. فضحكنا وجلست، فغلبتني دستين، وأخذت دستاً

واحداً، وقمنا على أن نعود إلى اللعب مرة ثانية لأخذ الثأر. وظهر أن زوجها يلعب أكثر منها لأنه نبهها إلى بعض الألعاب، أي (دودب) معها. ونبّهتُهُ إلى لزوم الوقوف على الحياد، وإذا شاء لعبنا سوية في وقت آخر، فقبل.

وكانوا من ركاب الدرجة الأولى، فذهبوا بعد اللعب. وقمت إلى الظَّهر أستروح الهواء. وجلستُ أطالع في كتاب تاريخ العباسيين. و«غرقت» بالمطالعة، ومرت أمامي تلك العصور الزاهية، ثم أدوار الانحطاط. فتركت الكتاب وجعلتُ أفكر بأمتي العربية، وهل يعود لها عزها فترجع أمة حية بين الأمم، أم نبقى عالة على البشرية نأكل ونشرب وننام كالحيوانات. وبقيت سابحاً بهذه الأفكار الى أن نبّهني إعلان النادل بضرب جرس الطعام: فنزل الركاب جميعهم إلى الموائد.

ومن نعم الله عليّ أنني كنت ممن اعتاد أن يأكل على الطريقة الغربية. وكان في زمننا الطعام يوضع على صينية كبيرة من نحاس، يجلس حولها أفراد الأسرة، إما على الأرض فوق بساط أو حصير، وإما على كراسي صغيرة. ولم تكن أدوات السفرة معروفة لدى الدمشقيين. ولم يكن معروفاً غير الملعقة. أما الشوكة (الفرتيكة) المعدن فلم تكن معروفة إلا عند الطبقة الراقية، ولم تكن السكاكين عندنا توضع على الموائد.

وكان على المائدة إناء خردل بعيد عن الرومي. فقام ومدّ يده لأخذه فأصابت إبريق الماء فوقع على المائدة. وساح الماء على المنضدة، والتفت الجالسون نحو الرومي، والماء يتجه نحوهم، وخجل الرومي خجلاً ما بعده خجل. وبعد الطعام بينما كنا نسير في الممشى وإذا برئيس الخدم يتقدم من رفيقي الرومي ويختلي به في أحد جوانب الباخرة. ثم يتركه ويعود إلينا الرومي ويخبرني أنه تلقّى درساً في آداب الطعام من رئيس الخدم لا ينساه مدى حياته.

والذي فهمته منه أنه قال له: إن الجالس على مائدة الطعام لايجوز له أن يقوم ليتناول شيئاً من الأدوات على المائدة، كما أنه لا يجوز له أن يمدّ يده بأكثر مما تصل إليه. وإذا لزم أحدهم شيء بعيد عنه، كالمملحة أو أي شيء غيرها، وكان في جانبه

أعظم الرجال قدراً أو أعظم السيدات مكانة، مسموح له بأن يطلب منهم مايريده أو ممن هو أقرب الى الأداة المطلوبة من الجالسين. وقد أخذت عبرة من هذا الدرس ولم أقع في خطأ مثل هذا، ولله الحمد.

والعادة في اللغة الديدن. سميت بذلك من العود أي الرجوع، لأن صاحبها يعاودها ويرجع إليها مرة بعد أخرى. وقد عرفوها بحدود كثيرة مرجعها جميعاً الى الأعمال المتكررة التي يألفها الإنسان والحيوان جماعات وأفراداً. وقد قالت العرب: العادة خامس طبيعة. وقالت الإفرنج: العادة طبيعة ثانية.

والعادة خاصة وعامة. فالخاصة تخص كل فرد بأحوال معلومة. والعامة تشمل أمة بأسرها، أو طائفة من طوائفها، أو شعباً من شعوبها، أو قارة من القارات الأرضية. ولهذا أصبح لكل شعب عادات خاصة به تسوقه الى هذه العادات حالات المكان والزمان. فيألف من المطاعم والمشارب والمساكن والأخلاق والأهواء ما تسوقه إليه حاجته بادئ ذي بدء، ثم يألف تلك العادات حتى تصير ملكة فيه. ومتى رسخت العادة في قوم أصبحت سنة له، وصارت عرفاً عاماً، ثم قانوناً مشروعاً وإن لم يصدر به مراسيم وقرارات حكومية مصدقة من المجالس. ولهذا اعتبر المشترعون العرف المبني على العادة العامة بمنزلة لا تنزل عن الشرع المشروع.

ومع أن القوى الطبيعية متفاوتة بين فرد وفرد آخر من بني الإنسان، ولكن ائتلاف كل قوم على عادات مخصوصة يضرب حجاباً ظاهراً على ذلك التفاوت ويجعل منه نوعاً من التناسب يستحسنه الذوق وترتاح إليه النفس. وعادات الأمة هي أساس أخلاقها وآدابها. لذلك يجب على السائح مراعاة عادات أهل البلاد التي يزورها، ومشاركة أهلها بما لا يمس بأمور دينه، ومن خالف عادات القوم الذين يمرُّ بهم يكون عرضة للهزء والسخرية وليتجنب السائح في الاجتماعات العامة الحركات غير اللائقة والهزء والسخرية بعوائد الأقوام، خصوصاً طقوسهم الدينية مهما كان فيها من الشواذ. وإذا ظهر من السائح حركة استهزاء بقوم، وتعدى عليه بعض الرعاع فلا يلومَنَّ إلا نفسه.

وسأذكر بعض العادات بصورة مجملة عند مروري في كل بلدة من بلدان القارات الأربع: أوربا وأمريكا وإفريقيا وآسيا، حسبما تقتضيه الظروف.

إلى نابولي

في اليوم الأول من ركوبنا الباخرة من الإسكندرية تقدمت مني سيدة افرنسية نَصَفٌ تسحب كلباً صغيراً من نوع «بولدوك Bouledogue» من أكثر ما خلق الله من الكلاب حركة و(أشطنها). تقدمت السيدة وطلبت مني بلطف أن أساعدها بجلب مقعد بحري لتجلس عليه فأسرعت وأحضرت مقعداً وفتحته وقدمته لها، فشكرتني وجلست جانبي وحضنت الكلب وجعلت تقبله وهو يلحس وجهها وشفتيها. فأنفتُ من ذلك ونفرَتْ نفسي منها وعددْتُ مساعدتي لها عملاً إنسانياً. وقلت بنفسي: هي ساعة وتمضي. ولم أعلم أنها مثل (الدبّيقة) سوف تعلق بي إلى آخر السفرة. وكلبها المدلل لم يكن لينزل من حضنها. فكانت تقبله ويلحس وجهها وشفتيها، ولا تتركه ثانية واحدة بعيداً عنها.

وقد صدف أن أفلت منها مرة وجلس بحضن رجل نهر به ورماه أرضاً. ولما رأته صاحت وقامت قيامتها وملأت الباخرة زعيقاً، وحضنته وجعلت تقبله وتراضيه كأنه طفل «حردان».

هذه السيدة استلطفتني، مع أني استثقلتُ دمها وعقلها. فجعلت تتعقبني من مكان إلى مكان. وكلما جلست جانبي أبحث عن طريقة للابتعاد عنها. وقد أسميتها «أم دوك». ومشى هذا اللقب عليها بين الركاب. وقد أحسَّت المسكينة بنفور الناس منها فصارت تجلس في زاوية تطالع بكتاب وتداعب ابنها المحروس دوك الذي أبغضته بمقدار حبي للجمال.

ومن العجائب أن الأخ حسني أفندي تللو المشهور بحبِّ الجمال يحوي عنده كلباً من هذا النوع. ولعل له به غرضاً لا نعرفه، ولله في خلقه شؤون.

أهوال البحر

في اليوم الثاني من ركوبنا البحر اشتدت الأنواء (وكبر البحر)، وجعلت

الأمواج تلعب بالباخرة لعب القط بالفأر، وداخ أكثر الركاب. فمنهم من انسحب إلى قمرته، ومنهم من جلس على كرسيه في الممرات دون أن يحفل بالعاصفة. ويظهر أن بعضهم كان يكابر بالمحسوس ليرينا أنه لا يأبه لشيء مما يجري. ولكن لم يطل الحال حتى هرب جميع الركاب إلى قمراتهم وأكثرهم مصاب بالدوار.

وفي اليوم الثاني هدأ البحر قليلاً، وبقينا إلى المساء لا نرى إلا الماء والسماء. وفي الساعة الخامسة ظهرت لنا أراضي صِقِلّيّة «سيجيليا-Sicile»[1] عن بُعد، فصعد أكثر الركاب الى سطح الباخرة ينظَرون بالنواظير. والسائح الذي يركب البحر لابد له من ناظور جيد ليقرب له المسافات البعيدة. وبقينا مقدار ربع ساعة نتطلّع الى سواحل صقلية. ثم بدأت تظهر لنا أراضي «كالابريا» عن بُعد. وبعد قليل دخلنا «بوغاز مسّينا». وهو مضيق بين أراضي صقلية وكالابريا. وبقيت الباخرة في المضيق أكثر من ساعتين ونصف، والنوء شديد. وقد ذكرتنا هذه الليلة بليلة الباخرة قُصير بين حيفا ويافا. بل إن هذه الليلة كانت أشد، حتى إن الموج كان عند ميل الباخرة على أحد جانبيها يضرب من فوق السطح. وعندما تستوي الباخرة تسيل المياه من الجانب الآخر، وتحمّل الركاب ما لا يوصف من الصعاب.

ولما خرجنا من المضيق اعتدل النوء وهدأ الاضطراب وعادت الباخرة إلى سيرها الاعتيادي. وعاد الركاب الى ألعابهم.

وفي الساعة العاشرة من صباح يوم السبت الواقع في ٢٥ شباط قرع جرس الطعام، فنزلنا إلى الغرفة متسائلين عن سبب تقديم الوقت. فقالوا إن الباخرة ستصل الى ثغر نابولي، وهو من ثغور إيطاليا الجميلة. والركاب الذين يريدون الفرجة على نابولي يجب أن يتناولوا طعامهم باكراً. فتناولنا الطعام بسرعة، وكتبت اسمي مع من يريد النزول إلى نابولي. ولم يكن في ذلك الزمان «جواز سفر-Passeport»، ولم يُطلب مني الجواز إلا عند دخولي إلى الآستانة في عودتي من أوربا، كما سيجيء.

---

(١) فتحها القائد العربي أسد بن الفرات سنة ٨٣٠م، وبعد ثلاثة قرون احتلّها النورمنديون وغيرهم، وهي اليوم جزء من إيطاليا.

وفي الساعة الحادية عشرة بانت لنا نابولي. وكلما تقدمت الباخرة كانت تظهر لنا اليابسة. ونابولي ثغر من أبدع ثغور البحر المتوسط، وهي غاية في الجمال بمناظرها الطبيعية. فكأنها عروس قائمة على ساحل البحر المتوسط، فيها أشجار باسقة وبساتين بديعة. وقرب الظهر وقفت الباخرة في الميناء. وتقرب مني «المسيو سبيرناك» الإيطالي يريد أن نتزل معاً فيكون دليلي في نابولي فرفضت بصراحة. واستأجرت عربة بواسطة شرطي واقف أمام رصيف المرفأ، وأريته الساعة وأن مرادي أن أدور البلدة في العربة. فتفاهمنا بالإشارة، وأفهمني أن أجرة العربة «فرنكين بالساعة». فركبت ومشى الحوذي يريني البنايات والهياكل القائمة في الشوارع، ويشرح لي بالإيطالية عنها دون أن أفهم منه شيئاً.

وبعد ثلاث ساعات عاد الى الميناء، وكانت الساعة حوالي الرابعة. ولم يزل لدينا من الوقت ما يسمح لي بالفرجة. فسرت على الرصيف متنقلاً. والذي رأيته في نابولي جمالها وانتظام شوارعها والأشجار القائمة في الشوارع الواسعة وقصرها المزخرف الذي يشبه القلعة، وهو ما يسميه الافرنسيون «لو كاستيل نوفو».

ومن أجمل ما رأيته في نابولي سوق الملك. وهو بناية على هيئة الصليب مبنيَّة على شكل خطين متقاطعين مسقوفة بالزجاج. وداخل الخطين المتقاطعين ساحة مدورة. والحوانيت على طرفي أركانها الأربعة. وفيها مقاهٍ للاستراحة. ولها أربعة أبواب يحار المتفرج بما يراه في هذه السوق من المصنوعات البلّورية والنحاسية والمعدنية والأواني الخزفية والثريات والشمعدانات الثمينة التي قلَّ نظيرها في الدنيا.

ويشعر السائح من النظرة الأولى أن أكثر أهل إيطاليا من الفقراء. ومن يدقق النظر في وجوه الطبقة العاملة يرى فيها الشحوب ظاهراً. واستجداء الإيطاليين السكاير من السياح مباح. ولا يجد الإيطاليون أي عار بطلب السكاير من الغرباء. وهذا مارأيته في كل مرة زرت فيها إيطاليا.

والدليل على كثرة الفقراء في ذلك الزمن وقوف عشرات النساء على رصيف الميناء، ينتظرن الشبان الأغراب للاجتماع إليهم وكسب بعض الدراهم من بيع أنفسهن في سوق اللذة.

جلست في مقهى، فاحتاط بي ست سيدات، كل منهنّ تدعوني لزيارتها. ولما رأين رفضي طلبن مني أن أضيّفهنّ بكأس من الجعة «البيرة»، فلم أتمكن من الرفض. وضيَّفتُهنّ بما طلبن، وتمشيت إلى مطعم قريب وقلت: ما دمت الآن في إيطاليا فلأجرب أكلتها الوطنية. وقلت لرجل واقف «مسيو منجريه معكرونة» فضحك ودلّني على مطعم قريب. وهناك طلبت بالاشارة صحناً من المعكرونة، فأحضروه لي بعد ربع ساعة مع صحن من الجبن المبروش. وبالحقيقة وجدت بهذا النوع لذة فائقة لا نعرفها في المعكرونة التي نأكلها في بلدنا.

وللطليان اعتناء تام بهذا الطعام، ولهم في طبخه عدة طرق. وإني أقول: كما أن «الكبّة» هي الطعام الوطني للسوريين، فالمعكرونة هي الطعام الوطني للإيطاليين والبطاطا للافرنسيين.

إن الإيطاليين مشهورون بدقة الصناعات، وبينما أنا أتنقل في الميناء مرَّ بي عدد من الشبان يحملون هياكل من (جبصين) أو من الرخام الأبيض والملون وغير ذلك من أفواه السكاير وعلبها، مصنوعة أحسن صنع. والأواني البلورية المركبة مع المعادن، إن من أواني الزينة أو من أواني الاستعمال. وهي غاية في الإبداع والجمال، وهي من أشهر الصنعات في إيطاليا. كما أن أهلها مشهورون أيضاً بالموسيقا وصُنع أوائلها على اختلاف أنواعها. وعندما جلست في المقهى كانت أجواق الموسيقا المركبة كل جوقة من عدة أشخاص والتي لا يقل عدد إحداها عن الخمسة موسيقيين تمرُّ من أمامنا، ويركبون الزوارق ويدورون حول البواخر، فيقف الركاب يتفرجون على الأجواق ويسمعون أنغام موسيقاها وغناء أفرادها نساءً ورجالاً، فيرمي الراكب بما تجود نفسه الى الجوقة فتقع الدراهم في الزوارق فيلتقطها رئيس الجوقة ويقدم الشكر للمحسن.

وهناك أطفال صغار، أكبرهم في سن المراهقة، وأصغرهم لا يقل عن السابعة من عمره، يلقون أنفسهم في البحر ويغوصون لإخراج ما يرميه إليهم الراكب من الدراهم فيخرجون القطعة في فمهم، ويتسابقون عليها بالغطس، مما يضحك الإنسان ويؤلمه في آن واحد. لأن نزول هؤلاء الأطفال في البحر في مثل هذا الطقس لتحصيل شيءمن الدراهم يدمي القلوب. وويل للإنسان الذي لا يتألم لشقاء أخيه الإنسان.

أما أهل نابولي فكانوا أسرق من الفأر، وأحرق من النار. وايطاليا كانت مشهورة بتصدير اللصوص إلى العالم. وإذا لم يكن الغريب واعياً فلا شك أنه يكون عرضة حتى لسرقة قبعته.

ومما وقع لي أنه كان في رجلي عندما نزلت إلى نابولي «كندرة صب» خوفاً من الطين. ولماجلست في «القهوة-المقهى» ناديت ماسح أحذية (بويه جي)، وبعد أن مسح حِذائي أعطيته كندرة الصب ليمسحها، فمسحها ووضعها في جانبي وذهب. وما كاد يتواري عن عيني حتى التفت فلم أجدها. وعبثاً حاولت البحث عنها. وقد راجعت البوليس الواقف فلم أقدر أن أفهمه مقصدي ولا فهمت منه ما قاله. وطلبت عوضي من الله وعدت إلى الباخرة، ووقفت مع الركاب على السطح نتفرج على الميناء وعلى العمارة الإيطالية الراسية في هذا المرفأ.

ومما لفت نظري لما كنت أدور في البلدة شاب واقف أمام منضَدة موضوعة في عربة يجرها حصان، عليها صندوق كبير، في داخله آلات لم أرها، يقف بين الحين والحين في الشارع ويتكلم بسرعة كالخطيب المفوه، يعلن عن شيء. ولم أفهم من كلامه شيئاً. وأخيراً يأخذ ورقة بيضاء بقدر الكف يبلها بالماء، ويدخلها بثقب مستطيل، ويدير دولاباً فتخرج الورقة من جانب الصندوق المقابل مطبوعة ملونة مثل ورقة «البنك نوت».

وكان الشارع يمتلئ عند وقوفه لإلقاء خطبته. وقد طارت ساعات بعض

المتفرجين من ركاب الباخرة، الذين وقفوا للتفرُّج بين الناس. وأحمد الله أني كنت راكباً في العربةآنذاك فحمى الله ساعتي من السرقة.

قضينا آخر سهرة في الصالون على العادة، وودَّعنا بعضنا عند منتصف الليل. وذهب كل منا إلى قمرته. وفي صباح الاثنين صحوت باكراً وجمعت أمتعتي ورتبتُها في الحقائب وجلست في الممشى مع الروميين ننتظر بصبر فارغ أن تظهر لنا مرسيليا. وبعد أن تناولنا الفطور أخبرنا الخادم أن مرسيليا ظهرت من بُعد. فصعدنا ووقفنا نتفرج إلى أن دخلت الباخرة الميناء ورمت مراسيها جانب الرصيف.

مرسيليا

ومرسيليا من أكبر ثغور فرنسا، والحركة فيها تدهش النظر. نقلنا أبصارنا في هذا الميناء، ورأينا حركة الملاحين الدائمة، وكثرة الزوارق واللنشات والبواخر. وفي ناحية من الميناء قسم من الأسطول الإفرنسي، وحداثتُه قريبة من بعضها، وجماله يبهر النظر.

وما كادت الباخرة تقف حتى هُرِع الركاب إلى النزول، ومررنا بالكمرك، وبعد التفتيش خرجنا إلى البلدة، وركبت عربة يجرها حصان مفرد. وأكثر عربات فرنسا كانت بحصان واحد. وطلبت من السائق أن يأخذني إلى «أوتيل» قليل التكاليف (بون مارشيه). فأخذني إلى أوتيل صغير، وضعتُ فيه أمتعتي واسترحت قليلاً، وطلبت من صاحبه أن يدلني على «القنصلية» العثمانية، فدلَّني عليها، وكانت قريبة من الفندق. فذهبت لأرى القنصل، وكانت الساعة قد قاربت الحادية عشرة. ولما وصلت وجدت معاون القنصل، وهو شاب تركي يدعى لطيف أفندي. حييته برفع القبعة وأرجعتها إلى رأسي، وإذا به يصرخ بصوت مزعج سمعه الناس من الشارع: قبِّعتك قبعتك وكانت كلمته بالافرنسي: «Votre chapeau» قلت بالتركية: ما لها قبعتي؟ قال: اقلعها عن رأسك وتعلَّم المدنية. قلت: أتريد أن أتعلم المدنية بهذه العقلية؟ إن هذه المعاملة هي ثقيلة، ونحن لسنا عبيدكم، بل نحن أسيادكم، رواتبكم منا نحن أبناء الشعب، وأنتم الموظفين لستم إلا خدماً للشعب. وبما أن اسمك لطيف كان يجب عليك أن تكون معاملتك للناس، خصوصاً لرعايا

الدولة لطيفة، مثل اسمك. ولكن بكل أسف أقول: إن معاملتك ثقيلة غليظة، وليتهم سمّوك: غليظ أفندي بدل لطيف أفندي، وتركته مدهوشاً وخرجت وأنا أرتعد غضباً من هذه المعاملة.

وكان في الباب بضعة أشخاص من المراجعين، منهم الترك ومنهم العرب. ركض إليّ أبناء العرب يشكرونني على هذا الموقف الذي رأوه مني تجاه هذا المتعجرف، وأخبروني أن معاملته لأبناء العرب دائماً بمثل هذه الفظاظة، وأنه يقدم أبناء الترك ويقضي حوائجهم بأسرع من البرق، ويؤخّر أبناء العرب أياماً لا لسبب بل لإظهار تحكمه.

هذا ما رأيته من أحد صغار موظفي الأتراك في «قنصلاتو» مرسيليا، مع أن المشهور عن موظفي خارجية الدولة العثمانية أنهم من ألطف الناس وأدمثهم أخلاقاً. وما كنت أدري أني أرى بينهم رجلاً فظاً من فصيلة «غليظ أفندي».

السفراء والقناصل في زمننا

السفير: Ambassadeur في اللغة الرسول المصلح بين القوم، جمعه سفراء. واصطلحت عليه الدول لممثل دولة أخرى تنتدبه حكومته للإقامة في عاصمة الدولة المرسل اليها، وهو نائب ملكه أو رئيس جمهوريته عند هذه الدولة. وشخص السفير محترم لا يمسّ، لأنه يمثّل ملكه. وهو معفىً من جميع الأحكام المحلّية في المملكة التي يُرسل إليها.

والإعفاء يشمل أعضاء أسرته، فهم فيه سواء لا يُسجنون ولا يحجز عليهم أبداً مهما أتوا من الذنوب. وهو الحاكم المطلق على أفراد رعيته وجالية بلاده. فإذا حدث من أحدهم ذنب يوجب العقاب كان السفير هو الذي يعاقب. وفي مقر السفارة سجن لحبس المجرمين من رعية دولة السفير. وكان للدول الأجنبية في الدولة العثمانية امتيازات للأجانب لا يمكن لأحد أن يعبث بها مهما كان شأنه.

حديقة الحيوانات

تركت «القنصلية» وعدت إلى الفندق، واسترحت قليلاً وأنا أفكر بمعاملة

لطيف أفندي لأبناء العرب. ولما لم يكن لي من غرض في القنصلية قررت أن لاأراجع قنصلاً تركياً في عمري. وخرجت للتفرج على مرسيليا ودرت بعض شوارعها فوجدت أجملها وأكثر حركة فيها شارع البورصة، وفيه أكثر المسارح وقاعات الملاهي، وسألت عن أحسن مسرح، فدلّوني على مسرح اسمه «ڤاريتيه-Variété». وقد دهشت من الحركة في هذا الثغر، وجعلت أتفرج على الحوانيت والمخازن وأنواع البضائع وحسن تنسيقها في الواجهات. ولم أكن أعرف أحداً في هذه البلدة. ولكن من حسن حظي أني التقيت رجلاً من أبناء العرب من الذين رأيتهم في القنصلية العثمانية. فسألته عن أحسن «الفُرَج» في هذه البلدة فقال: جنينة الحيوانات، وقال: إذا شئت صحبتك إليها.

فذهبنا وقضينا فيها ثلاث ساعات رأيت فيها أجناس الحيوانات والطيور والزواحف وغيرها على اختلاف أنواعها. وسررت جداً من هذه النزهة وعدت إلى الأوتيل، وتناولت الطعام واسترحت قليلاً، وخرجت إلى شارع البورصة، وما زلت أتنقل في هذا الشارع وأنقل نظري من عربة إلى سيارة. وكانت السيارات لم تزل في بدء عهدها، ومن واجهة حانوت إلى سيدة متأنقة، إلى أن دقت الساعة التاسعة فتوجّهت إلى التياترو.

تياترو الفاريتيه

هذا التياترو من أرقى مسارح مرسيليا، ولكنه يأتي بالدرجة الثالثة بعد مسارح باريس. قطعت «البيليت» ودفعت خمسة فرنكات، وجلست في مكان متوسط. وأجرة المقعد تبدأ من «الفرنك إلى الاثني عشر فرنكاً». والحساب آنذاك على السعر الذهبي. وموقع الفرنك الواحد إما في آخر طابق، وهو الرابع، وإما في آخر الجالسين في الطابق الأول حيث يقف المتفرج طوال الليل على أقدامه.

وفي هذا المسرح «بوفات» يَؤُمّها المتفرجون في أوقات الاستراحة «انتراكت» واللباس عادي. وكانت المقاعد في تلك الليلة مشغولة جميعُها، والذي فهمته من

المسيو جورج نادر في اليوم الثاني أن جميع مسارح مرسيليا دائماً تكون ملأى بالمتفرجين، وأكثرهم من الأغراب الذين يصلون مرسيليا في كل يوم.

كراند بال ماسكه

في الساعة التي نزلتُ فيها الى مرسيليا وقع نظري على إعلان كبير يُعلن عن حفلة راقصة كبرى مقنَّعة (كراند بال ماسكه). ولم أكن في عمري حضرت حفلة رقص. وكنت أقرأ في الروايات عن المراقص المقنّعة والسافرة والخيال يتسع لمثل هذه الأبحاث خصوصاً إذا كان قلم الكاتب سيالاً. وكانت نفسي مشوقة لإطفاء الظمأ لرؤية الحفلات الراقصة التي طالما كنا نتغنى بها على السمع. والحفلة موعدها يوم الخميس ٢ آذار ١٩١١، وستقام في مسرح الأوبرا في مرسيليا. وكنت أينما سرت أجد على الحيطان في كل شارع إعلان الـ(كراند بال) فلم يعد يغيب عن فكري خاطر الاشتراك بهذه الحفلة.

وقد سألت صاحب الأوتيل عنها ففهمت منه أن لها ألبسة خاصة، إما لباس تنكّر وإما لباس أسود. ولم يكن معي (بذلة سموكن Smoking) ولا أريد شراء (بذلة) جديدة. وعلمت أنّه توجد محلات خاصة لإيجار هذه البذلات. فذهبت إلى أحدها، وصاحبته سيدة نَصَفٌ. ولما رأتني غريباً لا أحسن التكلم، وعرفْت أني أريد استئجار بذلك لحضور الحفلة أسرعت فأخرجت لي عدة أنواع من الألبسة المزركشة التي يلبسها المهرِّجون في المسارح النقالة. قلت: لا أريد هذا، بل أريد بذلة سوداء. فأحضرت لي المطلوب. واتفقنا على خمسة فرنكات أجرة البدلة في تلك الليلة. ولما كنت أتكلم وأراجع الكلمات في القاموس تجمَّع حولنا بعض عاملات الخياطة اللائي يعملن عندها، وعددهُنَّ يزيد على العشرين، وجعلن يسمعن كلامي. وبأقل من عشر دقائق صرنا كالإخوان. وسألتني: هل أنت ذاهب وحدك، أم معك رفيقة؟ قلت: وحدي. قالت: يوجد آنسة تريد حضور الحفلة، وليس لها (كفاليه)، يعني رفيق، فهل تريد مرافقتها؟ والأجرة لا تزيد شيئاً، حيث

بالتذكرة الواحدة يدخل الشخص والشخصان. وبما أنك وحيد فبنفس الأجرة يمكنك اصطحابها. قلت: هل هي لطيفة؟ قالت: نعم، وسترى.

وخابرت بالتلفون سيدة أعلمتها أنه يوجد طالب زراعة وحيد يريد حضور البال، فهل تريدين أن تصحبيه؟ فقبلت مع الشكر. وبعد مدة قليلة دخلت سيدة بدينة قلّ أن يوجد مثلها في مرسيليا. فقدمتْنا صاحبة المحل إلى بعضنا وهي تدعى (المدموازيل مرغريت براك) وصاحبة المحل تدعى (المدام جانيت روبي).

معمل الخياطة

معمل المدام روبي صغير بالنسبة لمصانع الخياطة الكبرى. فيه نحو عشرين آنسة، كل واحدة لها (ماكنة خياطة). والذي يلفت النظر أن جميع البنات كنّ مشغولات في تصليح الأثواب المؤجَّرة إلى الذاهبين للحفلة. والمستأجرون ينتظرون في غرفة خارجية. وكل منهم يُحبُّ أن يأخذ ثوبه قبلاً. بينما كانت الآنسة مارغريت ترتدي ثوبها المصنوع خصيصاً لها، وهو من أفخم الأثواب الخاصة(بالمرافع-Carnavals) مصنوع من ألوان مختلفة يُضحك من النظر إليه، زادها سمناً على سمنها. وقد تأخرنا عن الساعة التاسعة. فجعلت أستعجل رفيقتي، وهي تتأنى بارتداء ثيابها. وفهمت أنها تتأخر قصداً حتى تتم صاحبة المحلّ أعمالها وتذهب معها. وكانت آنستان من الصانعات أحضرتا لنفسيهما لباساً خاصاً لتلك الليلة. وهذا اللباس هو بشكل بذلات القرون الوسطى. وعلى أطراف البذلات أجراس صغيرة من تلك التي توضع في رقاب القطط. والقبَّعات كانت على طراز قبعة نابليون، ووُضع على دائرها من هذه الأجراس. فكانت البنت إذا تحركت انبعثت منها أصداء ناعمة من تلك الأجراس تلفت النظر.

وفي نحو الساعة العاشرة توجهنا بالموكب مشاة من شارع البورص إلى الأوبرا. وأخذت الآنسة مرغريت من أحد الأولاد الصغار تذكرة دخول، وقالت لي: ادفع له ثمانية فرنكات. وكان ثمن التذكرة عشرة فرنكات إذا اشتراها المرء من شباك الأوبرا. وقد فهمت أن إدارة الأوبرا تعطي الفقراء تذاكر للبيع تحسم لهم فيها

مقداراً من المبلغ المحدد كمساعدة لهم على فقرهم . وهذه الحال رأيتها في كثير من المسارح في فرنسا .

وصلنا لساحة الأوبرا ، وإذا بالأضواء تسطع فيها كالشموس ، والناس مصطفّون على أطرافها يتفرجون على الداخلين . فمنهم من يأتي بالسيارات ، أو بالعربات ، والكثرة مشاة على الأرجل ، ونحن منهم طبعاً .

وكنا نسير مزدوجين اثنين اثنين ، في صف مستطيل . وقد انتظم في صفنا بعض المتفرجين فصرنا (طابوراً) نمشي مشيةً عسكرية . والناس تصفّق لنا ، إذ كنت رفيع القد أرتدي البذلة السوداء وعلى رأسي قبعة سوداء مرتفعة ، وتسمى(هودفورم) وهي القبعة الرسمية . وكانت رفيقتي الآنسة مرغريت بثوبها المنفوخ المخطط آيةً بالثخانة . وقد استلفتنا الأنظار بهذا السير المنتظم المضحك .

ظل التصفيق من المتفرجين الواقفين في استدارة الساحة متواصلاً إلى أن دخلنا الأوبرا ، وكان كل واحد منا يضع على وجهه قناعاً مستعاراً يستر فيه القسم الأعلى من الوجه ويسمى بالافرنسية(Masque) .

وفي الأوبرا كانت الجوقة الموسيقية داخل المسرح أفرادها جالسون على المقاعد ، والمقاعد بشكل مدرج بحيث يظهر الجميع للنظارة .

وقد رفعت المقاعد من الطابق السفلي وأصبحت قاعة للراقصين .

قاعة الرقص

كانت القاعة المعدة للراقصين بديعة جداً ، يطلّ عليها المتفرجون من جميع الجهات . فالرقص كان يجري في القاعة الأرضية ، وكانت الألواج ومقاعد جميع الطوابق ملأى بالجالسين ، وأكثرهم مقنَّع . ولا تقع العين إلا على أزواج من النساء والرجال . فالجالسون في الألواج ، وجميعهم من الأغنياء ، مع كل شلة منهم سفط فيه أنواع الألعاب الصغيرة ، كالخشاخيش والزمامير ، والصفافير والمصفقات ق الكرّ ، وأوراق الثلج (Confetti) وبالونات مطاط من التي يلعب بها

الأولاد، يرمون هذه اللُّعب بين آونة وأخرى، فيلتقطها الراقصون ويزمّرون بها، ويرسلون البالونات في جو الصالون بعد نفخها ويصفرون بالصفارات وأوراق الكرّ، فهي عبارة عن بكرات من الورق يمسك اللاعب بطرف البكرة ويرميها إلى بُعد، فيكر الورق منها بأشكال مختلفة كل بكرة بلون، فيلتفُّ الراقصون بهذا الورق دون أن يحصل لهم منه أذى. كما أن ورق الثلج وهو ورق صغير مدور مثل الأوراق التي تبقى في أسفل الثقابة التي تثقب الأوراق لتوضع في الإضبارات. وعندما يُلقى من الأمكنة العالية بأشكال مختلفة تقع عليه الأضواء (فيرصف) ويكون له لمعان بديع. وهو يتساقط فوق الرؤوس. ومن كثرة ما ألقي من هذا الورق في تلك الليلة منع الراقصين من الرقص لكثرة ما اجتمع منه في الأرض، حتى أوقف الرقص إلى أن جمعوا ما تكدس من الأوراق وأعادوا الجمع ثلاث مرات.

وقد اشتركت موسيقا الجيش بهذه الحفلة وعزفت بعض الألحان الشجية رقصوا عليها بسرور. والرقص على أنغام الموسيقا النحاسية يُهيج الراقصين أكثر من ألحان الموسيقا الوترية التي عادت بعد انتهاء الموسيقا العسكرية.

رقصة الكادريل

ومن أجمل الرقصات التي رأيتها رقصة تسمى الكادريل. يمسكُ الراقصون أيدي بعضهم فيصبحون حلقة، ويرقصون بخطوات موزونة ويدورون في القاعة. والراقصون يجب أن يكونوا من الجنسين الخشن والناعم على التوالي. وفي هذه الرقصة تجري مداعبات لطيفة عندما تشتدُّ الرقصة. فأصحاب الروح الخفيفة يأتون بحركات تضحك الحاضرين. والمرء في مثل هذه الحفلات يحسب نفسه مقصّراً إذا كان بإمكانه إضحاك الناس ولم يفعل.

وبما أني لم أكُ أعرف الرقص فلم أشترك في أي رقصة، بل كنت أسير بين النظارة والمتفرجين، وأرجع الى المكان الذي جلسنا فيه حين دخولنا. وقد وضعت كل سيدة من اللائي كنَّ معنا حقيبة يدها، وبرامج الحفلة على مقاعدهن، وبذلك حفظن المقاعد. فكنت أسير وأرجع الى المكان، وهو في الطابق الثالث، وأجلس

قليلاً للاستراحة، ثم أدور في المقاصير والممرات فأرى الناس كالطيور المزدوجة، كل اثنين منهما على غصن يتناجيان، وأنا وحيد أسير بمفردي أنتظر انتهاء رفقائي من الرقص لنجتمع.

ومن أبدع ما جرى في تلك الليلة أن رفيقتي مارغريت طلبتْ مني أن أرقص فاعتذرتُ فأصرَّت متعجبة من امتناعي. قلت: السبب الوحيد هو أنني لا أعرف الرقص. فنظرت اليَّ بدهشة متعجبة قائلة «تيه ن»[1]، وهي كلمة تعجب يقولها الافرنسيون إذا فاجأهم خبر غير منتظر.

ولما أكدتُ لها الأمر وفهمتْ الحقيقة مني بعد صعوبة بالتفهيم لعجزي باللغة، قالت: إذاً اسمح لي أن أجد لي مراقصاً يراقصني، قلت: تفضَّلي. فقامت. وبعد بضع دقائق وإذا بالضجة والتصفيق ينبعثان من جميع الجهات، والناس جميعهم ينظرون إلى جهة واحدة وإذ بالمدموازيل مرغريت ترقص مع رجل بدين، فكانا أضخم راقصين في تلك الحفلة، وقلَّ أن يُرى مثلهما بهذه الضخامة لابحفلة مرسيليا بل في الدنيا على ما أظن، وكانت دقائق لطيفة سُرَّ لها جميع الحضور. وبعد انتهاء الرقصة صعدت مع راقصها إلى أن أوصلها إلى عندنا وهي تعبة تنفخ كالبقرة وتمسح العرق المتصبّب من جبينها. وانحنى الرجلُ البدين مودِّعاً وأدار ظهره للذهاب من عندها، وقمتُ بسرعة وأخذتُ مروحتها وفتحتها ووقفت على مقعد في جانبها، وجعلتُ أُهوّي لها وهي ثخينة ضخمة وأنا رفيع «ممروت». وهكذا ضجَّ الناس بالتصفيق، وقضينا سهرة من ألطف السهرات، وكنت آسفاً لعدم تمكني من الرقص تلك الليلة.

والرقص والموسيقا عنصران تأسسا على الوزن، ولهذا فقد عاشا معاً منذ عُرِفا، ولا أريد أن أبحث عن تاريخ الرقص، بل سأذكر الأنواع التي كانت مستعملة في تلك الأيام. وأنواع الرقص كثيرة: التاريخي، الديني، المسرحي، التمثيلي،

---

(١) tiens

«رقص القصور الملكية-باله دوكور»، الرقص الشعبي، الجمعيات، ويقال له رقص الصالونات، وأنواعه كثيرة. والتي كانت منتشرة تلك الأيام هي «البولكا، مازوركا، كادريل، ڤالس». وبعضها يستعمل حتى الآن كالڤالس مثلاً. وسأرجئ الكلام في هذا البحث إلى الأبحاث القادمة.

الوداع

في الساعة الثانية بعد منتصف الليل جعل الناس ينصرفون إلى بيوتهم. وقد تعب رفاقي من الرقص. فعزمنا على الذهاب، وعرفوا أني مسافر هذا الصباح إلى مونت بيليه. فعزموا على مرافقتي إلى المحطة. وبعد أن بدلنا لباس السهرة ذهبنا إلى مطعم قريب من الفندق، تناولنا فيه شيئاً من الطعام. وأحضرتُ حقائبي، وفي الساعة الخامسة كنا في المحطة وقد بقي لحركة القطار ربع ساعة وضعت حقائبي فيها في إحدى العربات. ولما صفَّر «الكمساري» ودَّعتهم. وبكت السيدات فأبكينني، وأحسست كأني أودع أسرتي، كما أني لحظتُ وكأنهنَّ يودعن قريباً لهن، وهذا من خلق الإفرنسيين في بلادهم، ولقد رأيت من شعبهم نساءً ورجالاً من العطف والنبل بقدر ما رأيت من مستعمريهم نساءً ورجالاً من الفظاظة والغلِظة.

وفي الأبحاث الآتية سيطلع القارئ على حوادث كثيرة تثبت أقوالي في الحالتين.

سار بنا القطار وأنا أُشير إليهم بمنديلي وهنَّ يشرن إليَّ، إلى أن غبْنَ عن عيني، ووصلتُ إلى مونت بيليه قرب العصر يوم الجمعة في ٣/ ٣/ ١٩١١.

مونت بيليه

وصلت مونبيليه، وكان بانتظاري صبحي بك الحسيبي، أحد طلاب المدرسة الزراعية. وكنت أعلمته من مرسيليا عن ساعة وصولي. وبدلالته قضيت الليلة الأولى في أحد الفنادق. وفي اليوم الثاني نقلني إلى بانسيون عند سيدة عجوز ليس في الدار غيرها «سامحه الله على هذه الاستفقادة».

وبلدة مونت بيليه واقعة في جنوبي فرنسا. وهي مركز مقاطعة الهيرول. تبعد عن باريس ٧٥٢كم. نفوسها كانت تقرب من الثمانين ألفاً. وتعد أول بلدة للعلوم في فرنسا. فيها معاهد كثيرة: معهد للآداب، وآخر للعلوم، وللصيدلة، وللطب. ويقال إن بناية المعهد الطبي هي من بقايا آثار العرب الذين احتلوا هذه المدينة عندما احتلوا إسبانيا. وفيها من المعاهد أيضاً معهد للصناعة وآخر للتجارة. وفيها مركز جمعية الطب والجراحة، ومجمع علمي تأسس سنة ١٨٤٧.

مياهها العذبة تأتيها من قرية «سان كليمان». والمياه تمرُّ في قناة فوق قناطر كقناطر المياه في حماة. وهي التي ترفعها إليها النواعير. وفيها موقع بديع يسمى البيرو، وهو من أجمل باحات المدن، في أقصاه قصر قديم مبني في القرن السادس عشر يدعى «شاتودو»، يقع في الجهة الغربية للمدينة.

وفيها متحف صغير. وبالرغم من صغره بالنسبة إلى غيره من المتاحف فإن فيه من الآثار أشياء قديمة ثمينة جداً لا يوجد لها نظير. تأسس سنة ١٨٢٥.

وفي ساحة المدينة مسرح يسمى «كراند تياتر» أي التياترو الكبير. وبالرغم من اسمه فهو مسرح صغير بالنسبة للمسارح الكبرى في فرنسا.

وكان في فرنسا ثلاث مدارس زراعية كبرى: في مونت بيليه، وفي كرينيون، وفي رين. وهذه المدارس من أعظم مدارس العالم الزراعية. يخرج الطالب منها بشهادة مهندس زراعي. ويوجد غيرها مدارس زراعية من الدرجة الثانية تسمى «فيرم إيكول» سيأتي البحث عنها.

مدرسة مونت بيليه الزراعية

هي من المدارس الكبرى في فرنسا، ذات ثلاثة صفوف تدرس جميع الدروس الزراعية الآتيةُ: الزراعة العامة، النباتات، الآلات الزراعية، المروج والمراعي، الحيوانات وتربيتها، الدواجن، الكروم، صنُع الخمور بجميع أنواعها، الألبان بجميع أنواعها، طبقات الأرض، الري، مصارف المياه، الأمراض النباتية،

لمحة مختصرة عن امراض الحيوانات، وهذه اقل من دروس البيطره والصنائع الزراعية . . . وغير ذلك من الدروس اللازمة لمهندس الزراعة .

في اليوم الثاني من وصولي إلى مونت بيليه انتقلت إلى غرفة استأجرها لي صديقي الحسيبي بأربعين فرنكاً مع الطعام لمدة خمسة عشر يوماً عند سيدة تدعى مدام أليس دوموندا، تسكن في شارع «دوله ربيريهRue de l'Herberié»، وهي أرملة موظف توفي قريباً، جاءت معه بحسب وظيفته من بلدتها نيس . وكانت تنتقل معه من مكان إلى مكان حسب اقتضاء الوظيفة ولا أدري وظيفته، ولكن الذي يظهر من أثاث الدار أنه كان في وظيفة لائقة .

البانسيون

البانسيون هو عبارة عن غرفة مفروشة للإيجار يستأجرها الطالب بمبلغ يتفق عليه مع صاحبة المنزل . والبانسيونات قسمان : عادي، و«بانسيون دو فاميل» عائلي . والعادي هو استئجار الغرفة بفرشها دون طعام . أما العائلي فهو استئجار الغرفة مع الطعام والغسيل وجميع ما يحتاج الإنسان . فيكون في غرفة كأنه في داره . وهذه البانسيونات كثيرة في فرنسا . وأكثر أصحابها من النساء الأرامل اللائي يفقدن أزواجهن . وهذه البانسيونات منها ما فيه الراحة، ومنها ما فيه العذاب . وهذا حسب طبائع صاحبة الدار . وسأذكر بعض الحوادث عن أخلاق أصحاب البانسيونات التي سكنتها في ليون وباريس .

أما المدام أليس هذه فكانت عجوزاً طيبة حسنة الأخلاق عاملتني معاملة الأم لولدها . أولادها الأربعة موظفون كل منهم في ناحية . وليس معها في الدار غير ابنها الكبير . وهو رجل في نواحي الأربعين من عمره، طيب العنصر حسن التربية، قضيت معهما أحسن وقت مدة إقامتي عندهما .

قهوة دوليسبلاناد

قهوة لطيفة نظيفة في شارع (ماركادييه)، كنا نجتمع فيها أوقات الفراغ مع

الطلاب العرب والعثمانيين. وقد تعرفت إلى شاب تركي يدعى جواد بك، من ألطف شبان الترك كان يحصّل الزراعة مع الحسيبي، وشاب دمشقي يدعى ميشيل النحاس، كان يحصل الهندسة الصناعية، وشاب مصري ينادونه «السي مكيد» يعني السيد عبد المجيد خفيف الروح جداً كان يخفف عنا آلام الغربة.

وهذه البلدة هادئة ساكنة بعكس باريس. وليتني تمكنت من إتمام دروسي فيها. ولكن ما الفائدة وليس كل ما يتمنى المرء يدركه.

المدرسة الزراعية

في اليوم الثالث من وصولي ذهبت مع السيد الحسيبي إلى المدرسة وقابلت المدير وطلبت قيدي بين الطلاب. ولما كلمني ووجدني مقصراً باللغة قال: لا يمكنه قبولي إذا لم أحسن التكلم والقراءة بالإفرنسية، وعليه طلب مني أن أداوم على مدرسة ابتدائية في تلك البلاد. ولما عرفت أنه لا يمكنني الدوام في هذه المدرسة، جعلت أبحث عن مدرسة متوسطة يقبلونني فيها إلى أن أحسن القراءة والتكلم بالإفرنسية، فأرشدني إلى مدرسة زراعية في ليون تدعى (إيكول فيرم)، فعزمت على السفر إلى ليون.

وقبل انتهاء الخمسة عشر يوماً التي استأجرت فيها الدار أعلمت المدام أليس بالأمر، وأفهتهما عذري واضطراري للسفر، فقبلت العذر وأرجعت لي الفرق عن الأيام السبعة الباقية، لأني قضيت في مونت بيليه أسبوعاً في المراجعة، ولما انقطع أملي غادرتها إلى ليون لدخول مدرستها. وركبت القطار باكراً، وخرج لوداعي السيد الحسيبي. والمدام أليس وابنها «السيد مكيد». ورأيت من هذه السيدة في هذا الأسبوع عطف الوالدة ووداع الأم للولد، فكنا نبكي كلنا عند الوداع. ولا أزال أذكر ما أصابني من التأثر البليغ من هذا الوداع، والإنسان أخو الإنسان أينما كان، وليت أطماع السياسيين تزول من الرؤوس ليعيش البشر إخواناً على وجه هذه البسيطة. ولكن ما العمّل وأطماع الطماعين تزعج الخلق على مرّ السنين.

القطارات في فرنسا

القُطُر في فرنسا منظمة بالنسبة إلى القطار الذي نعرفه في سورية، وهي: «رابيد، سريع»، لا يقف إلا على المحطات الكبرى. وإكسبريس هو أقل سرعة من السريع ولا يقف إلا على المحطات الكبرى والمتوسطة. والقطار العادي يقف على جميع المحطات. والأجرة تختلف باختلاف القطر. ويجتمع الإنسان في القطار بأشخاص مختلفين من جميع الأمم. وعلى المسافر أن يحترم جميع الركاب مهما كانت طبقتهم وسنهم. وعند الصعود والهبوط من القطار وإليه، يجب التأني بالمسير، وعدم دفع الناس للوصول إلى المقعد بسرعة.

والأحسن للمسافر في القطار أن يصل قبل ربع ساعة من قيام القطار إلى المحطة ليتمم نواقصه ويجد مقعده بسهولة وراحة فلا يعكر على غيره بالدفع و«الدفش». ومن عادات الأوربيين في القطار إحناء الرأس بالسلام عند الدخول والخروج من عربات القطر خصوصاً إذا كان في العربة سيدات.

ومن أقبح العادات قلع الحذاء أثناء السفر. وإذا كانت رائحة أرجل المسافر كريهة فإنه يؤذي الركاب ويسلب راحتهم وهذا لا يجوز مطلقاً أن يكون.

ومن المعيب أخذ الكلاب في القطر وإركابها في عربات الركاب. وبإمكان المسافر أن يشحن كلبه بقفص في «الباكاج» عربة الشحن، فيضع له طعامه والماء، ويستلمه في محطة البلدة الذاهب إليها. وكثير من الحكومات الأوربية تمنع ركوب الكلاب مع المسافرين في القطار.

والتدخين ممنوع في القطر، ولكن بعضهم يدخن رغم المنع إذا كانت نوافذ العربة مفتوحة، خصوصاً في الشتاء. فإن الدخان يؤذي الركاب، وعلى الأكثر السيدات منهم. ولذا على المسافر مراعاة هذه العادة والاستئذان من المسافرين بالتدخين قبل البدء فيه. وإذا سأله أحدهم عدم التدخين يجب أن يمتنع لأن بعض الأمراض يضرها دخان السكاير، خصوصاً مرض الربو «آسم». وفي بعض القطارات يمنع التدخين. ومن أراد التدخين فليخرج إلى الممشى.

وذكروا أن سيدة في قطار طلبت من أحد الركاب عدم إزعاجها بالتدخين، وكان بيده غليوناً يدخن فيه، فلم يلتفت الى احتجاجها، وأعادت الطلب بشدة فلم يأبه لها. فأخذت الغليون من يده وألقته من نافذة القطار وهو في سيره. فلم يغضب الرجل لكنه مدّ يده وأخذ كلب السيدة الصغير وألقاه من النافذة. فقامت قيامة صاحبته. وجاء شرطي القطار، واجتمع الركاب من كل صوب. وكانت المحطة قريبة. وما كاد القطار يقف وينزل الشرطي والمتخاصمين إلى رصيف المحطة لإجراء التحقيق حتى رأوا الكلب الصغير يركض نحو المحطة وفي فمه الغليون. فأخذت السيدة كلبها والرجل أخذ غليونه، و«قاموا الدق مانعاً، واحدة بواحدة».

ليون

في الساعة الثانية بعد نصف الليل وصل القطار إلى ليون وكان البرد قارساً جداً، والرياح الباردة تسلخ الوجوه. ليس معي ترجمان ولا أعرف اللغة، ولم أصادف أحداً أعرفه. وتقدم مني رجل لا يحمل أي (شارة) علامة على عضده أو في صدره كالحمالين أو الأدلاء الرسميين، وسألني عما أريد، قلت: أريد فندقاً رخيص الأجرة «بون مارشيه». قال: تفضل. وكنتُ وضعت الحقيبة وصندوق أدوات الطعام عند حارس الثياب «كار ديروب»، فسلمته الحقيبة والصندوق ودفعت الأجرة ثلاث «سوات-السو واحد من عشرين من الفرنك» عن كل واحدة ليحفظهما لي إلى الغد. وأخذت وصلاً مهره بختم الغرفة. وسرت مع الدليل إلى خارج المحطة فوجدت عربات الأجرة منتظرة الركاب، وأكثرها بحصان واحد.

وسرنا على الأقدام وأنا أحمل بيدي علبة القبعات. وكنت اشتريت من الإسكندرية ثلاث قبعات، إحداها «ميلون-نصف رسمية» وهي تشبه بطيخ الشمام، والثانية قبعة عادية، والثالثة للسفر «كسكيت». ووصلنا إلى أوتيل جانب المحطة، والمسافة بينهما لا تزيد عن المئة وخمسين متراً. وأخرجت فرنكاً لأعطيه إياه فلم يقبل، وطلب عشرة فرنكات. مع أن أجرة الغرفة في الفندق فرنكان. قلت:

لماذا العشرة؟ قال: أجرتي. وجعل يعلّي صوته. ولم أقدر أن أتفاهم معه. وكلما أشار له البواب بالسكوت زاد بالصراخ حتى أقلق سكان الفندق.

ولما رأى البواب أن الرجل «فاجر» دفعني وإياه إلى خارج الفندق وألقى بعلبة القبعات إلى الخارج وأغلق الباب. وبقيت على الرصيف والهواء العاصف يسفع الوجوه. وعندما وقعت علبة القبعات على الأرض فتحت وخرجت منها القبعات ودارت القبعة «الميلون» على حرفها، والشارع منحدر، وكانت شدة الهواء تدفع القبعة، فلم أتمكن من اللحاق بها إلا بعد جهد جهيد. والرجل يركض خلفي. أخذت القبعة بعدما امتلأت بالوحول.

والتفتُّ إلى الرجل وقلت: وأخيراً ماذا تريد؟ قال: أجرتي. قلت: إما أن تأخذ فرنكاً وإما تفضّل إلى مخفر الشرطة. وإذا أبيت فليس لك من دواء إلا هذي العصا. فاضطرب الرجل عند سماعه كلمة الشرطة، وقبل بالفرنك. أخذه ومضى يشتمني بكلمات لم أفهمها. وكانت شتائمه لي بصوت عالٍ. فتركته يهذي ومشيت نحو مقهى قريب وأنا أضحك.

وجلست في المقهى أستريح، وطلع الصبح، وسألت صاحب المقهى عن محلات أبناء العرب في ليون فقال: اذهب إلى الجامعة. وبقيت في المقهي إلى الساعة الثامنة والنصف.

ثم ذهبت إلى الجامعة. وجلست أنتظر خروج الطلاب إلى الساعة الحادية عشرة. وإذ بشبان خارجين بينهم شاب أسمر طويل. فتقدمت منه وقلت: السلام عليكم، فردَّ السلام، وتقدم مني وصافحني بشوق ومرارة. والتفَّ حولنا بضعة طلاب جميعهم مصريون. وتعارفنا «على الواقف» وقالوا: هيا إلى المقهى. وكان بالقرب من الجامعة مقهى يدعى مقهى السلام.

وماكدت أخبرهم خبري حتى تكاثر الطلاب المصريون وأصبحوا مقدار عشرة شبان. وكلما جاء واحد يعرفني به الشاب الأول واسمه سي فؤاد. وعرفني بشاب يدعى محمود فخري، وهو ابن أحد أغنياء القاهرة، جاء لدرس الحقوق في ليون، دعاني لتناول الغداء، وتلطّف بأن يكون دليلي.

وكثرت أسئلة هؤلاء الشبان عن حالة البلاد العثمانية والحرية والدستور. وكلهم متعطش لسماع أخبار العثمانيين. وجميعهم من أنصارهم، يكرهون الإنكليز. وكانت الروح الوطنية تتوثب في صدور هؤلاء الشبان المصريين الذين يستفسرون عن الانقلاب العثماني بكل تلهف ويسمعون كلامي بكل شوق وارتياح. وبعد أن قضينا ساعة في الحديث تفرق الطلاب. ووعدني فخري بأنه سيجد لي في الغد «بنسيوناً» عند أسرة كريمة ليوفر عليَّ شيئاً من أجرة الفنادق.

ثم أخذني إلى فندق قريب بتُّ فيه ليلتي. وفي ظهر اليوم الثاني جاءني حسب الوعد، وأخذني إلى دار سيدة تدعى مدام ماري شوبان، تسكن في شارع «بوبوكو» وهي آية في الشناعة. وابنتها صورة طبق الأصل عن والدتها. استأجرت الغرفة بثمانين فرنكاً مع الطعام والغسيل في الشهر، مشترطاً تركها بعد خمسة عشر يوماً إذا لم أجد فيها الراحة، ودفعت مقدماً عشرين فرنكاً على الحساب. وفي اليوم التالي ذهبت إلى مدرسة فيرم إيكول.

وهذه المدرسة من المدارس المتوسطة تُعلم الطالب الزراعة العملية مع قسم بسيط من العلوم النظرية، ومعناها مدرسة المزرعة: ذهبت إليها مع المدام بلانش كومبو وصديقي فخري محمود. وكان المدير بانتظارنا بناء على وعد مع المدام بالتلفون. وبعد التعارف طلبت دخولي في المدرسة، وقدمت له شهادة المدرسة الإعدادية. فقال: أرجو أن تترجمها وتصدقها من قنصلكم في ليون. ودعانا لزيارة المدرسة. فصحبناه ودار بنا على جميع الصفوف، وعلى الإصطبل ومحل الدواجن وحديقة المدرسة، وأرانا الآلات الزراعية الميكانيكية الحديثة. واحتفل بنا جداً ووعدني بقبولي بعد ترجمة الشهادة.

وفي هذا اليوم بعد رجوعنا إلى ليون زرت القنصل وقدمت له الشهادة طالباً ترجمتها والتصديق على الترجمة. وكان القنصل العثماني قنصلاً فخرياً من تجار ليون الإفرنسيين. ولما لم يكن لديه ترجمان يُحسن الترجمة. وطلب مني ترجمتها ليصدِّق عليها. وذهبت أبحث عمَّن يحسن الترجمة وكنتُ كتبت كتاباً الى أحمد قدري أحد طلاب الطب في باريز من أبناء دمشق أعلمه بقضيتي، وطلبت منه

ترجمة الشهادة وتصديقها من السفارة. فأخذت الجواب بعد يومين يطلبني فيه إلى باريز ليدخلني في مدرسة كرينيون، لأن فيها مدرسة كمدرسة ليون، وأكون بقرب الطلاب السوريين. فعزمت على السفر إلى باريز وبدأت أقطع علائقي من ليون. وقبل الرحيل منها لا بد من ذكر شيء عما رأيته فيها.

مدينة ليون

ثالث مدينة في فرنسا، وهي مركز إقليم الرون. يمرُّ فيها نهران: الرون والسين. نفوسها تقرب من نصف مليون «آنذاك». فيها جامعة كبيرة تُدرَّس فيها الفروع الآتية: الحقوق والطب والصيدلة والعُلوم والأدب والبيطرة. وفيها مدرسة عسكرية للطب، وفيها معاهد علميّة كثيرة، منها معهد للرياضة، والتجارة العليا، والكيمياء الصناعية، والحياكة، ومدرسة إعدادية للاستعمار تسمى:

"École De Préparation Coloniale"

أُسست سنة ١٨٩٩، وفيها معهد للفنون الجميلة، ومعهد هندسة. وفيها معهد موسيقا «كونسرفاتوار» أُسس سنة ١٨٧٢ أسسه المسيو «مونكن Mongin» رئيس الأوركسترا في الأوبرا. وهذا المعهد مربوط «بكونسرفاتوار باريز» ولهذا المعهد بناية لا بأس بها فيها ١٢ قاعة للدرس، منها قاعتان كبيرتان للاجتماعات، تتسع إحداهما لأكثر من ثلاثمئة شخص.

وفي ليون ١٢ مدرسة تجهيزية، ثلاث للذكور وأربع للإناث وأربع مختلطة. كما أن فيها مدرسة صناعية للميكانيك. أكثر هذه المدارس رأيتها من الخارج، وبعضها زرتها مع محمود فخري. ولا يمكنني أن أبحث عنها بالتفصيل لأني لم أدرس أحوالها بدقة. والذي يمكنني أن أقوله إن رؤية هذه المدارس والمعاهد وانكباب الطلاب على تحصيل العُلوم فيها جعل في نفسي حافزاً يدفعني لإتمام التحصيل لأخدم أمتي المسكينة.

وكم كان الخيال يتجسَّم في رأسي فأرى نفسي ساعياً لفتح المدارس والمعاهد في بلادي مُجداً في دفع الطلاب للتحصيل للنهوض ببلادي والسير بها في موكب الحضارة. وإني أحمد الله بأنني لم أمت حتى رأيت بأم عيني أمثال تلك المعاهد والمدارس في دمشق تقوم بدلاً من «الخجوات والكتاتيب».

مدام شوبان

صاحبة «البانسيون» بقيت معها خمسة عشر يوماً. ولا بدَّ لي من ذكر كلمة عنها. إفرنسية كالإفرنسيات العريقات «بالنروزة». ورغم اللطف الذي تتظاهر به فأقل كلمة كافية لأن «تطلع خلقها». قلت: إني كنت اشترطت أن أكون حراً بعد الأسبوعين إذا لم أجد في دارها راحتي. ولمّا أخبرتها أني مسافر إلى باريس قامت قيامتها. والمصيبة عجزتُ عن تفهيمها مرادي لعدم معرفتي اللغة الإفرنسية، وراحت تعاتبني وتمنُّ عليَّ بما قامت نحوي من الخدمات خارجاً عن الشرط، وهو أنني سألتها في يوم عن محل لرفو الثياب، وأريتُها طرف سترتي وقد أصابها العث وأكل منها بمقدار ظُفْر الإنسان. فقالت: لا لزوم للرفّاء، أنا أرفوها لك، وبالفعل أصلحت السترة «الله يستر عليها»، وشكرتها على ذلك.

وعندما عرفت أني سأغادر الدار قالت: ألم ترتح عندي؟ ألم يكن الطعام جيداً ونظيفاً؟ ألم.. ألم..؟ ألم أرفو لك السترة دون مقابل وأضع الخيط من عندي؟ قلت: بلى، وقد شكرتُك آنذاك. قالت: إذاً لماذا أنت ذاهب؟ وجعلت ابنتها «تتزوَّر» أكثر من أمها، حتى إنها من شدة تأثرها بكت وكادت تبكيني. ولم أقنعهما بأني مسافر إلى باريس حتى أتيت بفخري يشهد بذلك. وبعد أن أقسم بشرفه صدقتاه، وغادرتُ الدار على ستر وسلامة.

وكان في غرفتي مصباحان أشعلتهما في الليلة الأولى، وإذ بالسيدة تنبهني إلى لزوم الاقتصاد بالنور وذلك بإطفاء المصباح الواحد إذا لم يكن عندي ضيوف لأن المصباح الواحد يكفيني للمطالعة وإشعال المصباحين يُعدُّ تبذيراً وإسرافاً. فأجبتها إلى طلبها وسرت حسب إشارتها إلى أن غادرتُ الدار.

وكانت المدام شوبان تشعل في المطبخ مصباحاً غازياً. وفي أحد الأيام رأيتها تفتل أوراقاً من الجرائد وتجعلها رفيعه على شكل السهام. هذه الأوراق تضعها في المطبخ بأداة كالكنانة معلّقة جانب المصباح. فإذا ما أعتم الوقت أخذت ورقة وشعلتها من «الطباخ البريموس» وأنارت فيها المصباح. فقلت لها: لماذا تعذبين نفسك بهذا العمل والكبريت رخيص؟ فضحكت وقالت: يا ولدي أنا فارغة الآن، والجرائد لم يعد لي حاجة بها. فإذا استفدت من هذه الأوراق بعض الفرنكات في السنة فبإمكاني أن أشتري بكل فرنك صحناً أو كأساً من البلور أفيد منها في الدار أوفرها من ثمن الكبريت. وما دام الطباخ مشعلاً فلماذا الإسراف في الكبريت، وكبريتة فوق كبريتة يجتمع منها علبة بل علب، فسكتُّ وقلت: ويل للمسرفين. وفكرت بهذا الحادث عندما احتل الإفرنسيون سورية وقلت: أي وقعة سوداء مع أمة نساؤها توفر الكبريتة لتربح منها فرنكاً في السنة.

وتصادف وجودي في ليون في منتصف الصوم عند الكاثوليك، فحضرت المرافع في ليون ويسمونها (كافا لكاد دو ميكاريم). يفطرون بها ويستبيحون الخلاعة، ويكثرون من عمل المساخر. وقد ضربوا الخيام وأقاموا أسواقاً في الباحات والطرق التي حول بنايات الجامعة ونقلت البضائع على أنواعها لهذه الخيام. كما أنهم أقاموا سرادقات كثيرة من سرادق «السيركات» عرضوا فيها كثيراً من الألعاب «البهلوانية» والتمثيلية والمضحكة والكركوز الأفرنجي المسمى marion-nette. وهي دمى من اللعب الصغيرة على أشكال مختلفة، لها في رأسها خيوط من مطاط يمسك بها رجل جالس في أعلى مسرح صغير يساعده مساعد أو اثنان حسب الألعاب التي يقوم بها، فيمثل رواية. وجميعها مضحك، ويُسيِّر الدمى بالخيطان. وفي صدر المسرح الصغير ستارة سوداء، والأضواء مطفأة، والمسرح مضاء بمصابيح خفيفة بحيث لا يرى المتفرّج الخيوط حينما يُحركّها اللاعب، فيظنُّ أن الدمى تسير من نفسها. وهذه اللعبة يحبُّها الأولاد. والروايات التي تمثَّل ليس فيها كلمة بذيئة بخلاف ألعاب الكركوز عندنا.

ورأيت في المرفع خيمة كبيرة عرفت أنها مخصوصة لفتل الدراويش، فيها دفوف مرفوعة عن الأرض مقدار نصف متر جعلوا حولها دائرة من الحبال تفصل المتفرجين عن اللاعبين ووضعوا على باب الخيمة إعلانات كبيرة فيها رسوم الدراويش «بكلاهاتهم»[1] الطويلة، وأجرة الدخول «ثلاثة سوات»، والسو واحد من عشرين من الفرنك.

دخلت لأرى هذه «الفرجة». وكان الفصل يتجدد كل ساعتين. ورأيت في الداخل جماعة أخلاط يقلدون الدراويش بالفتلة والطقوس التي تقام في التكايا في المواسم الدينية، وجوقة موسيقية مركبة من ثلاثة نايات وكمان وقانون ونقرزان.

والدراويش أخلاط من ترك وعرب من إسلام ومسيحيين، جماعة مرتزقة جعلوا هذا العمل -ويسميه الدراويش مقابلة- باباً للرزق. وقد تأثرت جداً من هذا المنظر، لأن القائمين به كانوا يتخذونه هزءاً لإضحاك الناس عليهم. والدولة العثمانية لا تحتج على هذا العمل، وكيف تحتج وقنصلها في ليون إفرنسي مسيحي، فتأمّل!!

ومن أهم الألعاب أسود ستة من أكبر الأسود يلاعبها مروِّض شاب فتركض بين يديه كما تركض الكلاب بين يدي الصيَّاد، وفي يده سوط طويل مثل سوط الحوذي «العربجي» يضرب الأسد فيه ضرباً موجعاً، فيذل ويطيع المروِّض، ويجري الحركات المطلوبة منه بصعوده على مقاعد خشبية خاصة لوقوفه على الأرجل ووضع الأيدي على حديد الأقفاص.

والخلاصة فإنها فرجة مخيفة يقف المتفرّج ماسكاً قلبه بيده خوفاً على المروض الواقف بين ستة أُسُودٍ في قفصٍ صغير.

والغريبون لا يتركون ناحية يمكنهم الاستفادة منها، ولهم روح مطاطة بتدريب وتعليم الحيوانات، الكبير منها والصغير. ومن أغرب ما رأيته في المرفع

---

(١) الكلاه: لفظ فارسي معناه القبعة، او القلنسوة.

رجلٌ يرقّص البراغيث. ولو لم أر بعيني رقصها لما صدَّقت الخبر. رجل أمامه صندوق صغير فيه لوحة من البلّور، في آخرها أبواب صغيرة تحت أقواس، تفتح فيخرج منها عدة براغيث داخلها نتف من الشعر والصوف. يقف المتفرج أمام الصندوق بعد دفع الأجرة وهي فرنك عن المتفرج. وكلما صار عدد المتفرجين أكثر من عشرة يفتح الرجل الأبواب ويضرب بإصبعه أمام الأبواب عدة ضربات ويبدأ بالتزمير بزمّيرة فم. فيخرج بضعة براغيث الى الباحة وتبدأ بالوثب والنط ما دام الرجل يزمر. ومتى قطع التزمير وقفت البراغيث تستريح «انتراكت». ثم يعود الى التزمير ويضرب بإصبعه على الزجاج فتعود البراغيث للرقص والنط. وأخيراً يقطعُ التزمير فتقف البراغيث ويفتح ويدق بأصبعه على الزجاج فتثب وتهرع الى مقرها وتغلق الأبواب ولا تفتح إلا بعد ساعة على الأقل إذا اجتمع العدد الكافي من المتفرجين. وتخرج البراغيث كالسابق. وهكذا دواليك. وهذا مما يحار به الفكر.

وفي إحدى ليالي المرفع كنت أسير أنا وفخري، ونظراً للازدحام تأخر عني بالسير، وبما أنه قصير النظر، كان يضعُ على عينيه نظارات «منمرّة». وكانت «مُوضة النظارات» أن تكون بلا حمّالات ترتكز على الآذان. بل كان لها سلسلة تعلق بقبة الرداء.

وبينما أنا أسير سمعت صوت فخري يناديني، فعدت لأرى وإذا برجل بدين يضرب فخري على رأسه ويقول: فوتر شابو فوتر شابو»، يعني: قبعتك قبعتك. وفخري مخبول بين يدي الافرنسي، ونظاراته في الأرض. فعدت بسرعة ودخلت بينهما مستفسراً عن سبب الشجار، ففهمت أن فخري صدم الإفرنجي دون انتباه، وطلب «البردون» بالفم فقط دون أن يرفع القبعة. وكانت الصدمة شديدة. فما كان من الإفرنسي إلا أن جعل يضرب فخري على قبعته ويقول: قبعتك، حتى غطّى بها عينيه، ورمى نظاراته في الأرض. ففرقت بينهما. ولكن الإفرنجي زادها «بالبهورة» فصفعته صفعة رنَّت لها جوانب المكان ورفعت العصا الجلد، وهددته بأنه إذا أتى بأقل حركة فسوف يرى ما لا يسرُّه. فكسر الشر ومضى بحاله وأتممنا الليلة على خير.



الشريف جميل ابن عم جلالة الملك المعظم

باريس

شالون سورسون

صحوتُ في الساعة الخامسة من يوم الأربعاء الواقع في ٢٩ آذار ١٩١١، وكنت قطعت جميع علائقي، وحضّرت حوائجي. وجاء محمود فخري مع المدام بلانش كومو وفؤاد المصري. وخرجنا جميعاً إلى محطة «بروتو».

وصحبتنا المدام شوبان مع ابنتها، وودعتهما وبكتا وبكيت، ووصلت الى «شالون سورسون» في الساعة العاشرة فوجدت السادة الأمير مصطفى الشهابي[١]، وعز الدين علم الدين[٢]، وعبد الغنيّ الشهبندر[٣]، وهم شبان البعثة السورية الأولى التي أُرسلت إلى فرنسا سنة ١٩١٠، بانتظاري في المحطة، لأني كنت أعلمتهم قبلاً عن يوم سفري، فجاؤوا المحطة وعلى رؤوسهم الطرابيش. ولما رأيتهم قلعتُ «الكسكيت» قبعة السفر ووضعت الطربوش، ودخلنا شالون على هذه الصورة فكنا مطمح الأنظار، وذهبنا إلى الدار التي يقطنها الرفاق واسترحنا قليلاً ثم خرجنا للتفرج على البلدة.

---

(١) مصطفى بن محمد سعيد، أديب لغوي ولد سنة ١٨٩٣، وترأس المجمع العلمي العربي، وتولى وزارة المعارف بدمشق، وله مؤلفات شتى. توفي بدمشق سنة ١٩٦٨م.

(٢) أديب دمشقي من أعضاء المجمع، ولد سنة ١٨٨٩، ودرس الزراعة، وتسلّم عدة مناصب، توفي بدمشق، سنة ١٩٦٦م. ويعرف بعزّ الدين التنوخي.

(٣) عبد الغني بن أحمد الشهبندر، من مشاهير أطباء بيروت وأدبائها، ولا نعلم عنه المزيد. منتخبات التواريخ. ص٩٠١.

وأول ما أروني إياه مدرستهم، ثم متحفاً صغيراً فيه بعض حوائج الأمير عبد القادر الجزائري. منها سرج حصانه مع رُكُبه وغير ذلك من أشيائه الخاصة التي حصل عليها الإفرنسيون في الحروب التي حصلت بينهما.

وشالون سورسون مدينة صغيرة تقع على بُعد ٢٨٠ كيلومتراً تقريباً من باريس. مدرستها الزراعية في الضواحي تقع على بُعد ١١ كيلومتراً من المدينة، ومدرستها تدعى: المدرسة التطبيقية للزراعة والكروم:

"École Pratique d'agriculture et de Vidicultur"

وأراضي البلدة تخرج أحسن الخمور. سكانها ٢٥ ألفاً، فيها معامل حديد وفخار، وزجاجات الخمر والبرانيط والكفوف «قفافيز»، والزيت... الخ. ولما حان وقت القطار أوصلني الرفاق إلى المحطة، وودّعتهم، ومشى القطار إلى ديجون، ومنها إلى باريس. ووصلتها بعد منتصف الليل.

وصولنا إلى باريس

وكان في انتظاري الدكتور أحمد قدري[1]، الذي كتبت إليه أعلمه عن الساعة التي أصل فيها. ولم نكن نعرف بعضنا إلا بالاسم. وهو قريب خطيبتي لأمها، ولأجل أن يعرفني من بين الركاب. أخبرته أني سأضع في صدر ردائي وردة حمراء تفرقني عن الناس. وبالفعل لم يكد ينظر الوردة الحمراء حتى عرفني فأخذني إلى أوتيل كوجاس في «كارتيه لاتان-الحي اللاتيني»، وهو مركز الطلبة.

وفي اليوم الثاني تعرفت إلى عوني عبد الهادي[2] ورفيق التميمي[3]، وهما

---

(١) طبيب دمشقي شارك في كل الثورات، ووضع العديد من كتب الطب والسياسة، توفي بدمشق سنة ١٩٥٨ عن ٦٥ سنة.

(٢) عوني عبد الهادي، بدأ عمله محامياً في القدس، وتولى وزارة الخارجية في الأردن، توفي في القاهرة سنة ١٩٧٠ عن ٨٢ سنة.

(٣) رفيق بن راغب، مؤرخ مجاهد، ولد في نابلس، وتخرج من السوربون، وعمل في الترجمة والتأليف. توفي بدمشق سنة ١٩٥٦ عن ٦٨ سنة.

من شبان فلسطين اللامعين. وقضيت بضعة أيام أسعى فيها مع قدري للدخول إلى مدرسة كرينيون الزراعية. وبينما نحن جادُّون في أمر الدخول إلى المدرسة وترجمة الشهادة، وإذ بكتاب من نسيب بك البكري[1] جواباً على كتاب مني كنت شوَّقته فيه للمجيء إلى فرنسا ولو فراراً إذا لم يوافق والده. ووقع الكتاب بيد عطا باشا البكري الذي طار عقله على ولده ووضعه تحت المراقبة الشديدة حتى كاد أن يزهق أنفاسه.

وقد أعلمني بكتابه أن والدي أقسم يميناً مغلظة بعد عودته إلى دمشق أنه لن يرسل إليَّ غرشاً واحداً، ولو بلغه أني في حالة التلف. وأوصاني بأن أغيِّر فكري وأستعيض عن التحصيل بسياحة صغيرة أطلّع فيها على بلاد الغرب، وأدرس أحوالها وأعود لأجل أن يزوجوني ويفرحوا بي على رأيهم.

وبما أني أعرف والدي وعناده، وليس لي من يرسل ما يكفيني مؤونة التحصيل، ولما لم أكن أعرف لغة القوم، ولا يمكنني العمل لتحصيل مصروفي، عزمت على العودة إلى دمشق. وقررتُ أنْ أُبدل بالتحصيل السياحة.

وكان من الشبان الذين تعرَّفت إليهم ثلاثة أطباء أتموا تحصيلهم في باريس، ومرادهم الرجوع، فاتفقت معهم على أن نصطحب في السفر ونعود إلى الآستانة بالسكة الحديدية الشرقية، ومنها إلى بيروت بالبحر. وهكذا كان. والأطباء هم المرحوم الطبيب الأمير شريف الشهابي، والطبيب الأمير عز الدين الشهابي، والطبيب أحمد راتب، وسأذكر سفرنا بالتفصيل.

وفي اليوم الرابع من وصولي انتقلت إلى بانسيون «دو فاميل» عند سيدة بولونية أرملة تدعى «المدام كدو كوفيشكا». لها ولد صغير في السادسة من عمره. تعيش هي وابنها من واردها من هذا البانسيون الواقع في ٣ رو دو ليستر أباد. وعدد السكان ١٨ طالباً وطالبة، أكثرهم من البولونيين، منهم الدكتور قدري، والداعي لله.

---

(١) من كبار المجاهدين في دمشق، ولد سنة ١٨٨٨، وشارك في الثورة العربية الكبرى والثورة السورية، واستضاف الأمير فيصل بن الحسين في قصره بدمشق سنة ١٩١٦. توفي بدمشق سنة ١٩٦٦م.

وكانت صاحبة البانسيون اتفقت مع سيدة إفرنسية تسمى المدام كوبير أن تتناول الغداء مع الطلاب لتصحح لهم الكلام أثناء الصعام، وتعطي الدروس الإفرنسية لمن شاء منهم مقابل فرنكين في الساعة. وقد اتفقت معها على أخذ درس ساعة في كل يوم. وبالفعل بقيت تدرسني مدة إقامتي في باريس. وقد أفدتُ منها كثيراً في هذه المدة القليلة التي قضيتها معها. إذ بالطريقة التي كانت تتبعها في التعليم وهي طريقة «برليتس» أصبحت أفهمُ ما يقال، وأُفهِم المرام من الأشياء الضرورية اللازمة.

شبان العرب في باريس

مع الأسف لم يكن في باريس من أبناء العرب من الطلاب إلا عدد قليل بالنسبة إلى غيرهم من الأمم. والذين تعرفت بهم غير من ذكرت سابقاً هم السادة: محمد المحمصاني، عبد الغني العريسي من بيروت، محمد رستم حيدر من بعلبك. وتوفيق الناطور، وتوفيق فايد. هؤلاء الذين كنت أجتمع إليهم طوال المدة التي بقيتها في باريس، واجتماعنا على الأكثر كان في غرفة عوني عبد الهادي، الذي قضى مدة طويلة في تحصيل الحقوق، وتعليمه على حساب والده. وهؤلاء الشبان كان بعضهم مرسلاً على حساب الدولة كما سيأتي.

البعثات العلمية

قبل الانقلاب العثماني كانت البعثات العلمية إلى أوربا في حكم العدم، إلا بعض الضباط الذين كانوا يرسلون إلى المانيا. وكان بعض أحرار الترك يفرّون إلى أوربا من الاستبداد الحميدي. ولكن الحكومة الاتحادية في سنة ١٩١٠ أجرت فحصاً لخرّيجي التجهيز في الآستانة، والذين نجحوا فيه أرسلوهم الى فرنسا. ولما كانت اللغة الفرنسية هي المنتشرة أكثر من غيرها، أُرسل جميع أفراد البعثة إلى فرنسا. والأكثرية الساحقة كانت من الأتراك. والذين دخلوا الفحص ونجحوا من أبناء العرب هم: محمد رستم حيدر ورفيق التميمي اللذين دخلا مدرسة سان

لويس الثانوية وحصلا على شهادتها، وأتّما تحصيلهما العالي في جامعة السوربون.

وقد أرسلت الجمعيات الوطنية في بيروت السادة محمد المحمصاني وتوفيق الناطور وعبد الغني العريسي وتوفيق فايد. وهؤلاء من الذين وضعوا أساس «جمعية العربية الفتاة» التي سيأتي ذكرها فيما بعد.

متاحف باريس

المتحف «musée» توضعُ فيه الآثار القديمة والعاديات التي تعثر عليها الحكومة من الحفريَّات. وفي باريس عدة متاحف، أهمها: متحف اللوفر، ومتحف فرسايل. وكلاهما من قصور ملوك فرنسا. والمتحف العسكري «الأنفاليد» وفيه قبر الإمبراطور نابليون وقبعته وبعض الحوائجُ التي يستعملها. وفي هذا المتحف أنواع اللباس العسكري من مُختلف العصور. وفيه كثير من الرايات التي أخذتها الجيوش الإفرنسية في الحروب المتعدّدة في جميع العصور، ونماذج من لباس الفرسان والمشاة مع جميع أنواع الأسلحة التي استعملها الجيش الإفرنسي في مختلف الأزمان.

ما يجلب النظر في باريس

باريس جنة الله في الأرض. فيها من كل فاكهة زوجان. لا يطلب الإنسان فيها شيئاً إلا ويجده. هي دار العلم والعرفان، كما أنها دار الدعارة والطغيان. وهي كعبة السياح ومنزل الطلاب. مرتع الجهال ومقصد المحتال. مثل البحر، الداخل إليها مفقود، والخارج منها مولود. ورغم ملايين الليرات التي تدخلها بواسطة السياح فإن أكثرية أهلها فقراء. تجمع المتناقضات وتطيب لكل إنسان فيها الحياة. وأهم ما يستلفت النظر فيها من البنايات العظيمة (تور إيفل) البرج الحديدي، أحد عجائب الدنيا.

وأهم ما يلفت النظر أيضاً كثرة الطلاب الأجانب، منهم التشيكيون وعددهم يزيد عن الخمسين ألف طالب وطالبة. ويأتي من بعدهم البولونيون وعددهم يزيد عن الأربعين ألفاً. وبعدهم يأتي اليابانيون ويتراوح عدد طلابهم بين العشرين

والخمسة والعشرين ألفاً. والغريب في أمرهم أني لم أر طالباً يابانياً واحداً في غير أيام الآحاد (يعطعط) في المحلات العامة.

وكان من المصريين مقدار مائة وخمسين طالباً. «والمصريون فيهم البركة بالعطعطة» ولم أر طالبة عربية واحدة بين ألوف الطالبات الأجنبيات. أما الطلاب العثمانيون فكان عددهم ثلاثون طالباً، ليس بينهم طالبة. وهذه البعثة العثمانية الأولى (طالبان) منها عربيان، وثلاثة أرمن، ورومي واحد، وخمسة وعشرون طالباً من الأتراك.

وكان من أبناء العرب غير هؤلاء بعض الطلاب من بعثة الجمعية الخيرية البيروتية. والبعض على حساب أهليهم. وهؤلاء جميعهم لا يزيد عددهم عن الخمسة عشر طالباً، سيأتي ذكرهم فيما بعد. وهذا مما يزيد الحسرة في نفسي، لتأخر أمتي في إرسال البعثات. ومن قرأ تاريخ نهضة مصر الحديثة أيام الباشا محمد علي يرى أن البعثات التي أرسلها إلى أوربا كان لها الباع الطويل في نهضة مصر وعمرانها.

ومن أجمل المباني التي تستلفت النظر في باريس مسرح الأوبرا، وكنيسة (نوتر دام). وكنيسة (مادلين)، وساحة (الكونكورد) التي فيها المسلة الفرعونية التي أُخذت من مصر، وتياترو الشاتله، وتياترو سارة برنار الممثلة الشهيرة التي لم أرَ تمثيلها لسوء حظي، مع أنها كانت على قيد الحياة.

والحاصل لا يمكن الواصف أن يصف باريس من ناحية أو نواح خاصة، بل كل ما فيها حسن جميل. من واجب كل من يقدر على السياحة من الأغنياء أن يزورها ولو مرة في العمر.

ندرة المطران

وقد قُلتُ سابقاً إني قررت العودة إلى البلاد. ولذا أصبح من الضروري أن أطّلع على كل ما يمكنني الاطلاع عليه من بلاد الغرب. ولما كانت السياحة تحتاج إلى النقود، وكانت نقودي قليلة، جعلت أقتصد بقدر الإمكان، ولا تخرج القطعة من يدي إلا «مسحاء»

وقد جلستُ يوماً في قهوة السلام «كافه دو لا به» أستريح من طول المسير على الأقدام. وبما أن والدي لم يجاوبني على أي كتاب أرسلته إليه اضطررت أن أكتب كتاباً إلى صديقه المرحوم كمال أفندي المهايني، أخبره فيه عن عزمي على الرجوع إلى دمشق.

وجلست جانبي سيدة جعلت تنظر إلى الكتابة العربية وتتعجّب وسألتني: ما هذه الكتابة؟ قلت: عربية، فجفلت وقالت: أنت عرب؟ قلت: نعم. فتعجبْت ولم تصدّق. وطلبت مني أن أقدم لها شيئاً من المشروب، فلم أقبل. قالت: إنك لم تفهم ما أريد. قلت: بلى فهمت، إنك تريدين أن تشربي المشروب، وأنا أدفع الثمن. قالت: نعم. قلت: لا أريد. قالت: لماذا؟ قلت: لأني تلميذ فقير. فضحكت وتركتني.

وإذ برجل يسألني بالعربي: أنت من الشام يا أفندي؟ قلت: نعم. قال: ابن المهايني؟ وقد رأى عنوان الكتاب. قلت: لا، بل أنا ابن البارودي. قال: ماذا يكون محمود بك لك؟ قلت: والدي. فقام وصافحني وقال: هذا أخي. وكنت رأيت ندرة بك مرة في دمشق في حفلة أقامها الأكراد لرجال الاتحاد والترقّي في بدء أيام الانقلاب، خطب فيها ندرة بك وأجاد وحاز إعجاب الحاضرين. مما أبقى في ذاكرتي أثراً طيباً له.

ولما عرفته قلت: أولست حضرتك ندرة بك المطران؟ قال: نعم، من أين عرفتني؟ قلت: رأيتك مرة تخطب في دمشق، وبقيت صورتك في ذاكرتي، وأنا معجب بك فدعاني للجلوس معه، وقدَّمني الى شاب افرنسي يفوتني اسمه، بصفته رئيس تحرير جريدة «الجون ترك» التي تصدر في باريز، وفهم مني قضيتي وقال: سأكتب إلى والدك بلزوم إبقائك في باريز للتحصيل، فقلت: سبق السيف العذل، وأنا على أهبة السفر. قال: أنا أيضاً معجب بك وبصراحتك. وهذه المرة الأولى التي أرى فيها شاباً يمتنع عن إجابة طلب سيدة. قلت: لا جود إلا من الموجود، ودراهمي التي معي ربما تكفي لوصولي إلى بلادي، ولست مجبراً على

الاستدانة لأجل أن أضيّف سيّدة لا أعرفها. فدعاني لتناول الطعام في مطعم «كراند أوتيل»، ودعا المحرر، وذهبنا بعربة. والأوتيل واقع جانب بناية الأوبرا، وقاعة الطعام كبيرة جداً، فيها موائد كثيرة. جلسنا على مائدة منفردة.

وأحضر لنا النادل «الكرسون» القائمة. وبما أنني ضيف الشرف قدم لي القائمة. فأخذتها كأني أعرف القراءة. وألقيت نظري عليها فوقع على كلمة «بواسون انكله» فهمت منه: سمك انكليزي، فطلبت منه. فقال لي ندرة بك: إنك لا تقدر أن تأكل هذا اللون، لأنه لا يوافق مزاجك. ولئلا أخجل أمام الإفرنسي قلت له: إني أستطيب هذا اللون. قال: طيب. وجاء السمك و«عينكم تشوف فخري»، بعد أن تناولت أول لقمة ماذا حلّ بي، لا أقدر أن أصف الحال التي وقعت فيها. فقد جحظت عيوني واحتبست اللقمة في حلقي، وكدت أختنق منها، فشربت كأساً من اللبن الممزوج بماء الفيشي، إلى أن قدرت أن أبلع اللقمة الأولى. ووضعت الثانية بفمي فكدت أقضي منها. ولم أعد أعرف ما أعمل. و«بألف زور» بلعتها بعد شرب كأس لبن وماء الفيشي.

فنادى ندرة بك الكرسون وقال له: خذ هذا الصحن وأحضر له صحن لحمة «شاتوبريان» وقال: أما قلت لك إنك لا تقدر أن تأكل هذا السمك. قلت: استحييت من رفيقك بأن ينظر إليّ بعين الاستخفاف. قال: لا تفكر بهذا، وكلُّ شيء لا تعرفه سل عنه قبل الاستعمال لئلا تقع بمثل ما وقعت فيه الآن.

ولا أقدر أن أصور للقارئ مقدار خجلي بعد هذا الفصل. وأخذتُ على نفسي عهداً بأن لا أمد يدي إلى طعام لا أعرفه. وكانت تلك الحادثة آخر ما وقع لي من نوعها. ولم أقع في مثلها بعد ذلك اليوم.

متاحف باريس(١)

من أبدع ما رأيت في باريس متاحفها التي تجمع الحكومة فيها آثار الأمة الإفرنسية. وهذه المتاحف أقاموها في قصور ملوك فرنسا، مثل قصر اللوفر، وقصر

(١) بداية الجزء الثالث من المذكرات غير المطبوعة، وقد أعدها للنشر على حلقات. وهي محفوظة في الملف ٨/٧٩ في مركز الوثائق.

فرسايل، والأنفاليد، وغيرها من القصور والمتاحف. ويرى الداخل إلى هذه المتاحف حُلَى الملكات وتيجان الملوك مصفوفة بطريقة بديعة تلفت الأنظار. وهناك لوحات زيتية مرسومة بريشة أشهر المصورين. وقد جرت عادة الأغنياء على إهداء التحف إلى المتاحف التي تتقبّلها الحكومة بالشكر. وتقيم لأصحابها التماثيل، أو تضع رسومهم في القاعات التي يهدونها تحفهم.

وفي جُملة ما رأيتُ داخل هذه القاعات جناحاً خاصاً في معرض اللوفر تُعرض فيه لوحات المسيو شوشار التي أهداها إلى المتحف. وقد علقوا رسمه في صدر القاعة واللوحات التي قدمها آنذاك. ويبلغ ثمنها مليون فرنك ذهبي، لم تزل إلى اليوم معلقة في المتحف.

وقصر اللوفر من أجمل قصور القرون الوسطى، وله تاريخ مجيد. ومن أراد الاطلاع على تاريخه فليرجع إلى تاريخ فرنسا، فيقف على ما يريد.

أنا وعوني عبد الهادي

عوني عبد الهادي شاب قومي من أسرة من فلسطين-نابلس. وهو أحد مؤسسي جمعية (العربية الفتاة)، ذكيّ الفؤاد كثير المطالعة، حصل على شهادة الحقوق من الآستانة. وأتم تحصيله في باريس حيث نال الدكتوراه في الحقوق، وقضى عدة سنوات في فرنسا كان فيها مثلاً صالحاً في الأخلاق والتحصيل والاجتهاد. وكانت غرفته في «أوتيل كوجاس» في مدينة الطلبة مجمعاً لشبان العرب الذين ذكرتُ أخبار بعضهم في الجزء الثاني من مذكراتي. وكلهم يسكنون «البانسيونات». وكانوا يدعون بعضهم للطعام.

وكان في «البانسيون» الذي نزلت فيه ثمانية عشر طالباً وطالبة، أكثرهم من البولونيين. وفيهم بعضُ الطلاب الروس. وكان عوني عبد الهادي يزورنا بعض الأحيان، فترحب به مدام«كدو كو فيشكا»، صاحبة «البانسيون»، وتعزّه جداً إكراماً لصديقه الدكتور أحمد قدري الذي عرفها عليه.

ولما كانت الطالبات البولونيات وغيرهن من الطالبات العربيات لا يحسنّ الإفرنسية، كنّ لا يُصغين إلى أحاديثه، لأنه كان يبحث في كتب الأدب عن أعقد المواضيع لأكبر الشعراء، ويحدّث بها ليظهر أدبه ومعرفته للغة الإفرنسية. فكنّ يستثقلنه. وما لفتيات غضيضات ولفكتور هوغو؟! وأين أشعار لامارتين من عقل فتاةٍ صغيرة لا تعرف من الإفرنسية أكثر من (بونجور) و(بونسوار)؟ لذلك كنّ ينصتن إلى حديثي الذي كنت أحدّثهم به فيعرضْنَ عن عوني ويُقْبلن علي.

أما حديثي فكان بيدي وعيوني، نظراً لعدم معرفتي باللغة. فلا أبالغ إذا قلتُ إنه كان أشبه بحديث البكم أو التمثيل الصامت المعروف بـ«باندوميما».

وكنت أستصحب قاموسين أحدهما من الإفرنسي إلى التركي، والثاني من التركي إلى الإفرنسي. كنت أرجع إليهما أثناء الحديث. وكنت موفقاً في أكثر احاديثي التي تلفت أنظار جميع الحضور، وتوحي السرور للسامعين، خصوصاً الشبان منهم. لذلك كان صاحبنا عوني يغار منّي. حتى إنه لم يستطع أن يضبط نفسه في بعض الأيام وهاجمني مهاجمة علنية أظهر فيها شعوره عندما كانت الفتيات يحطُن بي من كل جهة ويسمعن أحاديثي بالإشارة، ويعرضن عن حديثه المنمّق. ولم أنس ذلك اليوم، وكيف جعل يكيل الشتائم للشعر والشعراء، وكيف شتمني وشتم فكتور هوغو، سامحه الله.

ولم أزل أذكر هذه الحادثة كأنها اليوم تجري أمامي...

الحيّ اللاتيني

كان الطُّلاب في زمننا يسكنون هذه المحلّة. فكأنها بلدة خاصة بالطلاب، يؤمونها من كل حدبٍ وصوب. وأكثر الناس كانوا من البولونيين واليابانيين وغيرهم. وقد بلغ عددهم آنذاك أكثر من ١٥٠ ألف طالب. وبلغ عدد اليابانيين وحدهم أكثر من ٥٠ ألفاً. وزاد عدد البولونيين على الأربعين ألف طالب وطالبة. جميعهُم يتعلّمون العلوم العالية. وكانت غالبيّة دور هذا الحي إن لم يكن جميعها «بانسيونات»، يسكنها أبناء تلك البلاد، وكان الإقبال على هذه الدُّور أكثر من

غيرها، لأن الطالب يجد فيها ما اعتاد عليه في بلاده من طعام وشراب وغير ذلك. ومع الأسف لم يكن للعرب دار واحدة تديرها امرأة عربية.

وكان للبولونيين مقاهٍ ومطاعم، وكذلك كان لغيرهم من الشعوب. وقد دُعيتُ إلى نادٍ موسيقي بولوني، وجرى لي فيه حادثة لطيفة لا بأس من ذكرها هنا.

الموسيقا والغناء العربي

وفي أحد الأيام، دعاني الدكتور أحمد قدري الى غرفته في بانسيون «المدام كوفيشكا»، وقدّم لي المدموازيل «أوتوفيشكا» التي وصلت من بولونيا حديثاً، ووجهتها إسبانيا، للاطلاع على الموسيقا العربية القديمة. وقد عرّفوها بالدكتور أحمد قدري. فسألته عن الموسيقا العربية القديمة، فقال لها: «أنا لا أعرف فيها، ولكنني سأعرّفك بصديق لي له بعض الإلمام بها». وهكذا عرّفني بهذه الآنسة.

ودار البحث عن الموسيقا العربيّة. وكانت لا تعرف عنها إلا الاسم. وعبثاً حاولتُ إفهامها الفرق بين الأرباع والأثمان في موسيقانا، والفرق بينها وبين الموسيقا الغربية. ولم أعرف بعد ذلك الأسباب التي دعتها للسفر إلى إسبانيه، وهي لا تعرف من العربية إلا ما أعرفه أنا من اللغة الصينية. وطلبتْ مني أن أزور النادي البولوني، وأسجل بعض الأغاني العربية فقبلت.

وفي اليوم المعيّن ذهبت إلى النادي مع أحمد قدري الذي امتنع أولاً عن مرافقتي. ثم اضطر إليها أخيراً لمّا رأى إصراري على الذهاب بعد أن قبلتُ دعوتها. وأبلغتِ النادي، وعيّن يوم الخميس مساءً موعداً للدعوة.

وأخبر أحمد قدري رفقاءنا بذلك، فضحكوا من هذه الفكرة. ويوم الخميس، وفي الساعة السابعة مساءً، اجتمع أكثر الرفاق في غرفة عوني عبد الهادي، وهناك جرى البحث عن الدعوة، فجعلوا يسخرون من هذه الفكرة. ورفض قدري أن يرافقني، وأصرَّ على ذلك. وكلّفهم جميعاً، فلم يقبل أحد منهم مرافقتي وهم: رفيق التميمي، محمد رستم حيدر، عبد الغني العريسي وغيرهم.

وكان الجميعُ يريدون تحويل فكري عن الذهاب، وإقناعي بلزوم تقديم الاعتذار بحجة مرض مفاجئ ألمَّ بي. ولكني أبيت ذلك. ولما رأى قدري إصراري سايرني وذهب معي. فوصلنا في الساعة المعيَّنة. ورأيت المدموزيل «أوتوفيشكا» تنتظرني على الدرج، وبجانبها بعض الأعضاء من نساء ورجال، فاستقبلونا بالترحيب وقدمونا إلى المجتمعين، وكانوا يزيدون على الثلاثمائة مدعو.

وبعد أن جلسنا هنيهة، اعتلت ا لآنسة أوتوفيشكا المسرح، وجلست تعزف على البيانو عزفاً لطيفاً نال الاستحسان. ثم قامت وقدّمتني إلى الحضور بكلمة مطولة، قائلة: إنكم ستسمعون الآن بعض الغناء العربي من شاب أتى حديثاً من بلاده. فاستقبلني الحضور بالتصفيق. فصعدت إلى المنصّة العالية، وطلبت من الدكتور أحمد قدري أن يصعد إلى جانبي. فارتبك وخجل جداً، واحمرّ وجهه، وجاء يتثاقل. وقال بصوت خافت: «يخرب بيتك، أنا ما بعرف غني». فقلت مداعباً: يجب أن تساعدني بالرد فقط. فقال: والله أنا لا أعرف الغناء. قلت له: إذن ترجم لهم ما أقول.

وألقيت كلمة باللغة العربية وهي:

سيداتي سادتي! لا تحكموا على الغناء العربي بعد سماعي الآن، لأني لست من أصحاب الصوت الجميل، ولا أنا من الموسيقيين المشهورين، وما أنا إلا غاوٍ من محبي هذا الفن اللطيف. ونزولاً على طلب الآنسة أوتوفيشكا سأسمعكم لهجة الغناء العربي السوري فقط. ولهذا فأنا أطلب إليكم غض الطرف عما تسمعونه. والأغاني التي سأغنيها هي مقطوعة شعرية للشيخ أمين الجندي[1]، الموسيقي الحمصي المشهور، وهي من نظمه وتلحينه، من نغمة الحجاز، وهي إحدى النغمات العربية المحبوبة، وتسمى فذاً وهي:

---

(١) أمين بن خالد الجندي، من كبار شعراء القرن التاسع عشر، ولد في حمص سنة ١٧٦٤م وتوفي سنة ١٨٣٧م، وله ديوان شعر طبع مراراً، والشعر المذكور أعلاه في الصفحة ٣٧٧ من ديوانه طبعة دار المعارف في بيروت سنة ١٣٢١هـ.

دعْ يا عـــذولي عنك اللوم　　في الحبِّ واترك فـــضــولكْ

منذُ جــفــا أجــفــاني النوم　　عــصــيت في الناس قِيلكْ

دور

أهوى رشــا حلو المبــسم　　وافى وحــــيّاً وأنــعــمْ

نــــاديـــتُه لمّا ســـلَّم　　يا مـــرحـــبــا صلْ خليلكْ

دور

فترجم الدكتور قدزي إلى الافرنسية وغنيتُها. ثم غنيتُ لهم بعض الأغاني الخفيفة من الطقاطيق المصرية. وطلبوا مني نشيداً حربياً. ولم نكن نعرف الأناشيد، فغنيتُ لهم: «نحن ربُّ الهول والموت الزؤام»، وهو نشيد للشيخ سلامة حجازي[1]، كان نظمه الأسدي لإحدى رواياته التمثيلية. وهو الذي لحَّن لي نشيدي: «نحن جند الله شبُانُ البلاد»، الذي سيأتي الحديث عنه فيما بعد. وهونشيد لحنه حماسي جداً. وأعقبته ببيتين من رواية صلاح الدين الأيوبي، بعد أن أفهمناهم معناها، وأنها تغنّى في رواية «صلاح الدين» وهما:

إن لم أصُنْ بمهندي ويميني　　ملكي فلستُ إذاً صلاحَ الدين

تحمي الممالك ربّها أما أنا　　فأريدُ أحمي الملكَ لا يحميني

وهكذا انتهت الحفلة، وأسمعنا المدموزيل أوتوفيشكا بعض القطع. وانتقلنا إلى «البوفيه»، حيث قدموا لنا كأساً من الشاي مع الحلويات. وانتهت السهرة. وأقاموا لي بعدها حفلة خاصة في النادي أسمعوني بها عزف بعض أعضائه وغناء البعض الآخر.

---

(١) الشيخ سلامة حجازي. مؤسس أول فرقة تمثيلية في مصر، ولد في الإسكندرية، وتوفي في القاهرة سنة ١٩١٧م عن ٦٥ سنة.

ومن المفيد ذكره هنا أنني لما عدتُ إلى غرفة عوني عبد الهادي وجدتُ الشبان مازالوا عنده. فأخبرهم أحمد قدري بما جرى. فجعلوا يضحكون، وأرادوا أن يهزؤوا بي بدعوى أني قمت بشيء لا يجوز القيام به. فقلت: إن المغني الأجنبي الذي يحضر إلى بلادنا وتقام له الحفلات ويغني الغناء الذي اعتاد عليه نصفّق له ونستحسن غناءه ظاهراً، جبرا لخاطره، فإذا أنا غنيت في حفل أجنبي لا يوجد فيه من يعرف شيئاً من موسيقانا أكو ن قد فعلت ما يفعله المغني الأجنبي في بلادنا، وهكذا انتهى الحادث بيني وبينهم على خير.

حدائق الحيوانات والنباتات

ومن الأماكن التي يجب زيارتها في باريس حدائق الحيوانات والنباتات. هذه الحدائق تجمعُ من الحيوانات أنواعاً يحار منها الإنسان. تأسست في القرن السابع عشر. وسبب ذلك أن طبيبين إفرنسيين، أحدهما يدعى «دقنر هيرفورد»، والثاني يدعي «كفر دو لايرون» «فكرا بإيجاد مؤسسة علميَّة تحتوي على مجموعات من عالمي الحيوانُ والنبات. فتأسَّسَتْ هذه الحديقة سنة ١٦٥٣. وعينتهما الحكومة مديرين لها، وفي سنة ١٧٣٩ عيّن العالم الطبيعي المشهور المسيو بوفّون[1] مديراً لها، فوسَّعها وزاد في محتوياتها. ومنذ ذلك التاريخ جعلت تتقدَّم في النمو والزيادة.

وتحتوي هذه الحديقة الآن على قاعات محاضرات ومجموعات من الحيوانات الحيَّة، والمصبَّرة، وعلم طبقات الأرض، والمعادن والمستحدثات والتشريح، والحيوانات البائدة، وعلم أصل الإنسان، وعلم البويضات.

ومنها حقول واسعة وحدائق كبيرة لجميع أنواع المزروعات والزهور، ومجموعات من كل الحيوانات، منها حيوانات فقرية ذوات الثدي، وذوات الأيدي الرباعية والسباع والكواسر والمجترّة والدرداء. وهناك عائلات الطيور من الجوارح

(١) جورج بوفون Buffon -١٧٠٧-١٧٨٨، من أشهر مؤلفاته: «التاريخ الطبيعي» في ٣٦ مجلداً.

إلى القواطع، وكفية الأرجل والدجاجية. وفي زاوية أخرى الزواحف من حيّات إلى ضفادع إلى سلاحف الى غير ذلك مما يحار منه الإنسان.

ولقد قُسّم التدريس في هذه الحديقة على ٢٠ كرسياً، تُعيِّن أساتذتها وزارة المعارف بناء على اقتراح مجلس الأساتذة ومجمع العلوم. وأكثر عواصم أوربا التي زُرتها فيما بعد، فيها حدائق حيوانات تحوي مجموعات قيّمة يحق لمن يراها أن يفتخر بسياحته وبرؤيته هذه المخلوقات البديعة.

الفرفورة الخضراء

وإذا قلنا إن السيدات الإفرنسيات حصينات، فلا يقصد من هذا أنه لا يوجد بينهن بعض من يخفضن رأسهنَّ. وقد حدثت لي حادثة غريبة. وهي أنني بينما كنت جالساً في مقهى السلام، إذ بسيدة كالغزال النافر تمر بسرعة تحمل مظلة خضراء، وجميع لباسها أخضر «من البرنيطة إلى السكربينة». وقد لفتت نظري، فتعقّبتها إلى أن وقفتْ أمام السينما، فوقفتُ خلفها. ولم يكن أمام السينما إلا بعض المتفرجين. فقطعت هي تذكرة، وأخذت أنا ثانية. فكان مكاني طبعاً إلى جانبها في الصالون.

وجلسنا، وجعلت أنظر اليها من طرف عيني وأتمتّعُ بجمالها الباهر، وأتنشق من رائحة عطرها المنعش، وكانت السينما صامتة، فجعلت أنظر إليها أكثر الأوقات. وهي تنظر إلى الرواية. وكنت كلما نظرتْ إليَّ أدرتُ وجهي بسرعة إلى الشاشة. فجعلتْ تضحك من حركاتي.

ولما انتهى القسم الأول وبدأت الاستراحة سألتني ببساطة عن بلدي قائلة: يظهر أنك غير إفرنسي وغريب عن باريس؟ قلت: نعم. قالت: من أين أنت؟ فطار صوابي لهذا السؤال، ولم أُعْطِ فرحتي لأحد، وقلت في نفسي: علقت السنارة ياولد. وأجبتها: إني من بلاد الشام. قالت بلغة عربية «مطحبشة»: من نفس دمشق الشام؟ قلت: نعم، أو تعرفينها «يا تقبري عيني؟» فضحكت وقالت: نعم، لقد ذهبتُ إليها مراراً بالقطار، حيث قضيت بضع سنوات في بيروت. قلت: ماذا كنت تصنعين في بيروت؟ قالت: أرتيست في مقهى المرصد. قلت: انتصرنا.

وجعلت تكلمني باللغة العربية. ولكني أقول إنهاكانت تحفظ قاموس الشتائم العربية جميعها عن ظهر قلبها. ولم أقم من مكاني إلا وقد أشبعتني شتائم من الأب ونازل باسم المداعبة، لتريني أنها تعرف اللغة العربية. وما صدقت متى انتهت الرواية حتى (ملصت) منها خوفاً من أن أقعَ بمصيبة.

بولفار سان ميشيل

هذا الشارع كان متنزَّهاً للطلاب، خصُوصاً العفاريت منهم. فيه المقاهي والمطاعم، وكل ما يُعين على التسلية، ويبقى مكتظاً بالمارة من ا لصباح الباكر حتى ساعة متأخرة من الليل. وهو مجتمع العشاق، خصوصاً الطلاب. وأسعار الطعام والشراب في مطاعمه ومقاهيه رخيصة تتناسب مع حالة الطلاب. وقد شربت في أحد مقاهي البولونيين كأساً من البيرة «بثلاثة سوات». والسو واحد من عشرين من الفرنك. والفرنك كان له قيمة، بحيث كان كل عشرين فرنكاً من الفضة تساوي ليرة افرنسية ذهبية. وكنا نتناول الأطعمة في هذه المطاعم كل وجبة مشبعة قيمتها من الفرنكين إلى الثلاثة. في حين كان يوجد بعض المطاعم، كمطعم «كراند أوتيل» وغيره، يتراوح ثمن الوجبة فيه من العشر فرنكات إلى العشرين، دون أثمان المشروب. إذا أراد الإنسان أن يشرب نوعاً من المشروب طلبه طلباً خاصاً. وتوجد أنواع من الأطعمة لا نعرفها، ولكل أمة عاداتها، وقد ويقع الغريب في مآزق حرجة عليه أن يتنبّه لها. فإذا وقع في مأزق وقدَّموا له أكلة لا يعرفها ومعها آلة خاصة بها كالشوكة والسكينة الخاصة بالسمك ونحوها فعليه أن لا يمدَّ يده إليها إلا بعد أن يرى من يأكل منها ليتمرن عليها.

وقد وقع لي حادث لطيف لا بأس من ذكره هنا

في المطعم

دخلتُ يوماً إلى مطعم غاب عني اسمه، وجلستُ. وكنت ذلك اليوم لم أصطحب المعاجم. فجاءني النادل «الكرسون» وقدَّم لي القائمة، وقال: هل تريد أن تأكل وجبة كاملة، أم تريد أن تنتقي طعامك من القائمة؟ وخوفاً من أن أقع في

خطأ كما وقعت يوم دعوة ندرة بك المطران حين دعاني إلى مطعم «كراند أوتيل». وقد سبق ذكر هذه الحادثة في الجزء الثاني، قلت للنادل: هات لي الطعام وجبة تامة إليَّ مقطوعاً.

وكان المطعم من المطاعم الراقية، والوجبة فيه بعشرة فرنكات. فأتى قبل كل شيء بعربة على عجلات الدراجة «بسكليت»، عليها عدة أنواع من الكوامخ والمخللات. لم أكن رأيت قبل ذلك مثلها، كما أني لم أكن أعرف كيف تؤخذ منها الألوان. ومن المعروف عندي أننا في رمضان، كنا في الدعوات نقدم سفرة إفطارية فيها أنواع الطعام الخفيف والمقبلات كالتي في العربة، كان يفطر عليه الصائمون. فكنا نأخذ من الصحن قطعة نأكلها ثم نأخذ من الصحن قطعة نأكلها. ثم نأخذ من الصحن الثاني قطعة ثالثة. ومتى انتهينا من أكلها نأخذ من الصحن الثالث. وهكذا إلى آخر الألوان حسبما نشتهي. فظننت أنني في دعوة إفطار، فتركتُ النادل واقفاً وبيده الصحفة التي يريد أن يضع فيها المقبلات. وجعلت آخذ من كل صحن قطعة آكلها، وأنتقي من الصحن الثاني بعد الانتهاء من أكلها فآخذ قطعة أخرى. وجعل النادل والجالسون وكل من رآني، ينظر إليَّ بفضول.

وقد عرفتُ أنني أخطأت بعملي، وخجلت خجلاً ظهر عليَّ. وجعل العرق البارد يقطر من جبيني ووجهي. ولم أعد أعرف ماذا أعمل، فاكتفيت من المقبلات. وأشرتُ له بأخذ العربة من أمامي، فساقها وهو يضحك. وجعل يحضر لي أصناف الطعام الداخلة في وجبة الظهر كالعادة. ولم يحصل معي ما يوجب الذكر غير ما سبق. وكنت آكل وأفكر بما صنعت، وما هو الخطأ الذي وقع مني عند تناولي المقبلات.

وبينما أنا في هذه الهواجس، إذا بسيدة وسيد يدخلان المطعم ويجلسان قربي. وساق النادل العربة إليهما، ووقف ينتظر الأوامر. وإذ بالسيدة تشير إلى بعض الصحاف وفي كل صفحة «معلقة شوكة» وكان بيده صفحة متوسطة من الصحاف التي توضع عادة أمام الأكل. فجعل يأخذ من الصحاف الملاعق التي فيها

ويضع في الصحيفة التي في يده، وينظر إلى السيدة فتشير اليه بأصابعها إلى اللون، وهكذا إلى أن اكتفت مما تريده، فوضع الصحفة أمامها، وكذا أخذ صحفة ثانية ووضع فيها ما طلبه السيد، ففهمت من هذا كيفية أخذ المقبلات ولم أعد لمثل ذلك الخطأ فيما بعد.

ماري، بنت مدير الشرطة

في أحد الأيام كنت في نزهة بعيداً عن «البانسيون» وقد عضّني الجوع، فدخلتُ مطعماً شعبياً بسيطاً. وجلست إلى مائدة مدة منفرداً، وإذ بالمرحوم الأمير شريف شهاب يقوم من مائدته ويأتي ليدعوني إليها. وكان يجلس مع الأمير عزّ الدين الشهابي ومعهما سيدة إفرنسية رشيقة، فأجبته إلى ذلك. وجلسنا معاً، وقدّم إليّ الآنسة ماري ابنة مدير شرطة الدائرة السادسة في باريس بصفتها خطيبته. وقضينا ساعة لطيفة تحدثنا فيها أحاديث مختلفة مملوءة بالنكات و«التقريق»، وودعتهم بعد انتهاء الطعام ومضيت في سبيلي. وبعد أربعة أو خمسة أيام بينما كنت واقفاً مع المرحومين: محمد رستم حيدر والعريسي ومحمد المحمصاني[1]، نتحدث ونحن وقوف على إفريز الشارع حيث صادفتهم هناك، وإذ بالآنسة ماري تسير حزينة، وهي تمسحُ دموعها بمنديلها. ولما رأتني تقدمت مني بلهفة وزاد بكاؤها، وجعلت تنشج وتنتحب، وضغطت على يدي بشدة كأنها تلجأ إليَّ بالشكوى. واستغرب الجماعة الموقف، وودَّعتهم ورافقتها. وجعلت تبكي وتشكو لي ألمها من معاملة خطيبها الأمير الذي أبلغها صراحة قطع علاقته بها، لأنه عازم على السفر إلى بلاده. وفي الحقيقة كنا على وشك السفر في القطار إلى الآستانة.

وقد ظنت أنه خدعها، وأنه تركها بعد أن أحبَّتْهُ هذه المدة الطويلة التي زادت عن السنة، كانا يجتمعان فيها يومياً.

---

(١) الثلاثة من رجال الثورة العربية الكبرى

- محمد رستم حيدر، ولد في بعلبك واغتيل في بغداد سنة ١٩٤٠ عن ٥٢ سنة.
- والعريسي هو عبد الغني بن محمد، من شهداء السادس من أيار سنة ١٩١٦م.
- والمحمصاني محمَّد بن مصباح، أعدم في بيروت سنة ١٩١٥م، ضمن قافلة الشهداء الأولى.

وطال الحديث بيننا. وكنت أفهم كلمة وتفوتني أربع كلمات، فأستلهمها لأراجع في القاموس لأتفهم قصتها على حقيقتها، وانتحينا في أحد المطاعم جانباً وجعلت تثرثر كل خمسين كلمة بحنك، وأنا أهزّ رأسي أن فهمت، وإن لم أفهم. وجعلت أسترضيها عنه مؤكداً لها سفرنا بعد بضعة أيام. وتناولنا الطعام ونحن بهذا «العزاء». وأخيراً ودَّعتُها على أمل أن نتلاقى يوم الأحد في الساعة التاسعة صباحاً لنقضي فرصة الأحد في قرية سان جرمان عند شقيقتها. وقد غاب عني اسم هذه الشقيقة.

وفي الوقت المحدَّد اجتمعت بماري. وركبنا الترامواي. وقطعنا «بلاس دو لا كونكورد»، وإذ بماري تتقدم مني وتضع رأسها على كتفي، وجعلت تغني. وإذا برائحة كريهة، أعوذ بربنا منها، تهفُّ عليَّ من فمها «قلبت مصاريني» رأساً على عقب. والغريب أنا كنا قضينا بعض الساعات في الأمس لم أشمَّ منها شيئاً لأنها لم تقترب مني، أما اليوم فكدت أعاف نفسي.

واستأذنت منها، وخرجت إلى مؤخرة الترامواي لأشرب سيكارة حيث التدخين ممنوع داخل الترامواي. وبهذه الحيلة تمكنت أن أبتعد عنها مدة. وكلما أنهيت سيكارة أشعلت غيرها. وهي تأتي وتسحبني إلى الداخل وأنا أمانع، إلى أن فرَّج الله ووصلنا إلى سان جرمان.

وكانت أختها بانتظارنا في المصنع الذي تديرهُ. وكان مصنعاً للقبعات النسائية، وفيه ما يقرب من العشرين صانعة يعملن تحت يدها كما أفهمتني. وكانت تنتظر في المصنع لأن بعض السيدات اللائي أوصين على «برانيط» كنّ موعودات بأخذها قبل ظهر الأحد. ولهذا فقد جلستْ تنتظرهن، وأتينا نحن قبل أن تأتي المشتريات، فقدّمتني إلى أختها باسمي وبصفتي صديقاً لخطيبها الذي فسخ الخطبة منذ أيام. فرّحبت بي شقيقتها واستمهلتنا بضع دقائق إلى أن تنتهي عملها. فجلست أتفحص المصنع، وهو عبارة عن حانوت له واجهة كبيرة فيها أنواع القبعات النسائية معروضة بشكل بديع، وداخل الحانوت بضع غرف فيها عدد غير

قليل من «ماكينات الخياطة». والذي لفت نظري أن الماكينات كلها من نوع سنجر، فاستغربت ذلك وقلت لماري: إن ماكينات سنجر ماكنات أجنبية، وأنتم افرنسيون، فلماذا لا تستعملون الماكينات الافرنسية؟ فقالت: إنها أمتن وأصح من غيرها، فسكتُّ.

والذي فهمته من ماري أن الافرنسيات الفقيرات لا يأنفن من العمل في أيّ صنعةٍ كانت، وأهلهنّ لا يمانعن في ذلك، لتكسب إحداهن ما يساعدها على الحياة. ومنهن من تساعد أهلها بشيء من كسبها، إذا كان أهلها عاجزين عن العمل.

والخلاصة، كانت المرأة في ذلك الزمن تزاحم الرجل في أكثر الأعمال، ولاترى غضاضة في ذلك. هذا بالأمس فكيف اليوم؟

وبعد برهة قصيرة جاء أصحاب البرانيط، وأخذْنَها وخرجنا إلى القرية وزرناها على الأقدام، وهي بلدة صغيرة جميلة. تناولنا الطعام في أحد مطاعمها الصغيرة. وفي المساء عدت إلى باريس. وما كدت أصل إلى ساحة الكونكورد حتى ودّعت ماري وذهبت نافضاً غبار الموت عن أكتافي من شدة ما أصابني من الانزعاج من رائحة الفم الكريهة.

وقد كان لي من هذه السفرة درس لن أنساه ولا أنساه في عمري، وقد أفادني حيث كانت بنية أضراسي غير قوية. وقد أصابني «السكوربيت» في أيام الحرب العالمية، فجعلت أخلع كل ضرس أصابه النخر خوفاً من رائحة الفم الملعونة. حتى أصبحت بعد مدة قليلة وأنا في ريعان الشباب صاحب طقم أسنان «اصطناعي». وأنا أوصي كل من أصابه نخر الأسنان وأحسّ بتغيُّر رائحة فمه من النساء والرجال، عليه قلع الضرس المنخور ليخلُص من هذه البلية المقوتة فيريح ويستريح.

***

من العادات اللطيفة التكلم بالهس وعدم رفع الصوت في المحلات العامة

والخاصة على السواء. وكل من يرفع صوته أثناء الحديث زيادة عن العادة المألوفة يكون عرضة للهزء واستجلاب النظر. وإذا تكلم أحدهم ولو همساً في المسارح أثناء الغناء أو التمثيل فلا تسمع من النظارة إلا كلمة هش مع توجيه الأنظار إلى المتكلم. كما أن هذه الكلمة تُستعمل لمن يخالف النظام الاجتماعي بدخوله بين المنظرين على أبواب المسارح وصالونات الغناء متخطياً الواقفين ليأخذ مكاناً قبلهم فيسمع كلمة «هش» من الجميع، ولا يسكتون حتى يعود الذي يتجرأ على خرق النظام إلى آخر الصف. وعندها يسكتون ويحولون عنه الأنظار. وهذا يكون له ولغيره درساً لا يرجع إلى مثله.

الهدايا

الهديّة: كل مَا يُتحَف به الغير يسمى الهدية، وكل غائب عن وطنه في بلاد بعيدة عليه واجب بأن يحضر شيئاً من الهدايا لأهله وأصدقائه، كل رجل حسب قدرته. وقد أخذت بعض التحف بينها جلد حيوان غريب الشكل. استرخصتُ ثمنه ووضعت جميع الهدايا في صندوق أحكمتُ إقفاله وأرسلته بالسير البطيء مشحوناً مع شركة «المساجيري مارتيم»، بعد أن أمَّنت عليه في إحدى شركات السيكورتاه. وبعد مدة طويلة أظن أنها تزيد عن الستة أشهر وصل الصندوق واستلمته دون أي نقصان. ولكن مع الأسف وجدت أن جميع شعر الجلد «انبكت»، وأصبح جلده كالتي يضع الفلاحون عليها الطعام. والسبب كان لعدم وضع شيء من النفتالين على الجلد، أو أن الصياد صاده في موسم الحرّ، لأن الحيوانات التي تصاد في موسم الصيف «يحلُّ شعرها». ولذا فإن الصيَّادين يتجافون عن الصيد في أيام الصيف، ويصطادون الحيوانات ذوات الجلود الفرائية في مواسم الشتاء.

الاستعداد للسفر

ثلاثة أيام قطعنا بها علاقتنا من باريس، هيأنا فيها أمتعتنا وقطعنا تذاكر السفر في السكة الحديدية الشرقية من باريس إلى استنبول والتذكرة التي أخذناها كانت لمدة

شهر من يوم القطع، إذ يحقُّ لنا خلال ذلك أن ننزل في أي بلدة كانت، ونقضي فيها ما نشاء من الأيام على أن نكون آخر يوم من الشهر في آخر محطة، أي في إستنبول. فكان هذا عوناً لنا على زيارة عواصم وبلدان كبيرة في أوربا الوسطى سنذكرها فيما بعد.

وقد قلت قبلاً إني كنت أنتظر جواباً من والدي يشعرني برضاه عني، ويطمئنني عن مستقبلي ويسمح لي بالدخول في المدرسة الزراعية في كرينيون. ولكن مضت الأيام وأخذت من كثيرين من الإخوان أجوبة كتبي إلا من والدي. وكنت كتبت كتاباً لنسيب بك البكري أحرِّضه فيه على الفرار من دمشق إلى فرنسا. وقد وقع الكتاب بيد المرحوم والده عطا باشا البكري، فوضع نسيباً تحت المراقبة الشديدة خوفاً من أن «يعملها».

وقد أخذتُ جواباً منه أخبرني فيه أن الكتاب وقع بيد والده، وأنه تحت المراقبة. وأن والدي أقسم أن لا يرسل لي قرشاً واحداً مهما بلغ بي الأمر، وأنه لايريد أن أبقى بعيداً عنه لأني وحيده. ولذا فإن نسيباً ينصحني بأن أمحو من مخيلتي فكرة التحصيل، وأن أقضي الوقت الذي أتمكن من البقاء فيه في أوربا بالسياحة. وأن أصرف ما بقي معي من الدراهم في التفرج على بلاد اللّه وعباده.

وبناء على هذا الكتاب قطعتُ أملي من البقاء في فرنسا، وبدأتُ بقطع علائقي من باريس، وعزمت على السفر إلى دمشق. وكان بين السوريين الذين كانوا يحصلّون الطب في فرنسا ثلاثة أصدقاء قد أنهوا اختباراتهم وعزموا على السفر، فتواعدنا على يوم معين.

والرفاق الذين تواعدت معهم هم الأطباء: الأمير شريف الشهابي، والأمير عز الدين الشهابي طبيب العيون المشهور، و«الأوبراتور» الجراح أحمد راتب. وهكذا اجتمعنا في المحطّة في الساعة المعيَّنة.

وفي المحطة خرج لوداعنا كل من توثقت عرا الصداقة بيننا وبينه من الإفرنسيين والإفرنسيات والبولونيين والبولونيات، وإخواننا من أبناء العرب السوريين وغير السوريين. وعندما تحرك القطار جعلنا نلوّح لهم بمناديلنا، وبكينا وبكوا. والغريب في الأمر أن الإفرنسيين لهم من العواطف الرقيقة ما يحبّبهم إلى القلب. وأقل مدة تجلس معهم في بلادهم كافية لربطك معهم برباط الصداقة التي تكون في كثير من الأحيان رابطة محبة وإخلاص.

ثم سار القطار ببطء وتأنٍّ، ونحن نُلوِّحُ لهم. وكنت كلما ابتعد القطار وزادت سرعته، ألوّح بمنديلي إلى القباب العالية التي كانت تطلّ عليَّ مثل كنيسة نوتر دام وأعالي بناية تور إيفل، وهو البرج الذي يعدُّ من عجائب الدنيا.

وقفت أنظر من نافذة القطار وهو سائر وأتفرج على مناظر الريف الإفرنسي والفلاحين الذين كان أكثرهم يقف عند مرور القطار واضعاً يديه في خصره يتفرج على الركاب. والفلاح الإفرنسي لطيف في طبيعته، طيب السريرة، لا يتركك إذا حللت لديه دون أن يقدم لك شيئاً من الضيافة وإن لم يكن كريماً جداً، ولكنه على كل حال يقوم بواجب الضيافة ولو بتقديم عنقود من العنب. وهو نشيط في عمله متقن له. والمساحات التي يملكها صغيرة ولكنها متقنة ويمكنني أن أقول إن ما كان يقع عليه نظرنا من الأراضي الزراعية يظهر أنه أُعدَّ أفضل إعداد.

ومنذ خروجنا من باريس حتى حدود فرنسا والفلاح كان يلبس حذاء من الخشب المغطى بالجلد ويسمى: (Sabot) وهو كالقبقاب ذي السير الكبير المعروف عندنا قديماً بـ«التختة بابوج».

ومن الطريف أن كثيراً من الفلاحين الذين كانوا يلوحون بأيديهم لنا كأنهم يودعون الركاب وهم يضحكون مما يدل على مرح الفلاح الافرنسي وروحه الخفيفة، بعكس الفلاح الألماني الذي يقف جامداً كالصنم عند مرور القطار لايتحرك منه غير عيونه. وهذا ما رأيناه في البلاد الألمانية عند مرور القطارِ فيها.

وقد قلت إننا قطعنا تذاكر السفر من باريس إلى الآستانة بشكل دفتر لننزل حيث نشاء في أية محطة ونبقى في البلدة التي نرغب الإقامة فيها للمدة التي نشاء، على أن لا تزيد عن شهر على طول الخط.

وتسلّم الأمير شريف شهاب إدارة المحاسبة، وأخذ من كل واحد منا ما يكفي للإنفاق من باريس إلى دمشق، وبقي مع كل واحد منا ما ينفقه. وقسّمنا العمل بيننا: فالمحاسبة بيد الأمير شريف كما ذكرت، ومهمة إدارة الطعام، من إحضاره وترتيبه، أُسندت إلى الطبيب أحمد راتب. أما غسل الصحون والأمتعة والحفاظ عليها فقد أوكل أمرها إلى الأمير عز الدين. أما أنا فكنت دليل الشراء والبيع، بحيث كان يعطيني الأمير ما يلزم لشراء الحوائج، وهكذا دواليك، إلى أن وصلنا إلى الآستانة. وها أنّي أقدم وصفاً مختصراً لهذه البلاد.

تول

بلدة في فرنسا تقع على نهر كوريز، وتبعد عن بوردو حوالي ٢٠٠كم تقريباً. وهي بلدة صغيرة نظيفة فيها متنزّهات كثيرة وجسور عديدة على نهر كوريز المذكور، وفيها كنيسة جميلة برجها عظيم، وفيها معمل للأسلحة. وفيها مع صغرها عدة صناعات منها الجلد ومنتوجات الصوف والقطن والقماش المعروف بالتول الرقيق المنسوب إليها. وفيها مصانع للمسامير والشمع والورق وورق اللعب.

نانسي

بلدة واقعة على بعد ٢٨٠ كم شرقي باريس. وهي بلدة جميلة افرنسية مادة ومعنى. وفيها جامعة كبرى ومكتبة كبيرة. وقد رأيت سيطرة «الأكليروس» ظاهرة فيها أكثر من غيرها من البلدان. أما سكانها فمتدينون تأصّلت فيهم الروح الإفرنسية طبعاً وعادةً. ومما يلفت النظر في هذه البلدة الصغيرة أن فيها داراً للمعلمين

والمعلمات من أرقى الدور في العالم. وفيها مكتب زراعة، وحديقة نباتات، وفيها دار آثار ومكتبة عظيمة، وفيها الجمعيات الكثيرة للطب والآثار القديمة وغير ذلك من الجمعيات العلمية المختلفة.

وفي غربها مناجم معدن الحديد، وفيها فبارك كبيرة للآلات الزراعية. وتنقسم إلى قسمين: نانسي القديمة، ونانسي الجديدة. فالقديمة، لبنائها القديم على الطراز المتخذ في العصور الوسطى. أما الجديدة فأبنيتها كلها على الطراز الحديث. وفيها الشوارع الجميلة والأبنية المزينة بأجمل النقوش.

ستراسبورغ وقصّة الألزاس واللورين

عاصمة مقاطعة الألزاس واللورين. تقع على الحدود الإفرنسية الألمانية. من شرقي باريس تبعد عنها ما يقرب من ٤٠٠كم. وهي على ضفة نهر ديل. يحيط بها سور قديم حول الخنادق، وفيها قلعة شاهقة. ولها عدة أبواب تمر فيها ويتفرع عنها أنهار صغيرة. وفيها جُسور كثيرة خشبية. وفيها ساحات جميلة. وشوارعها ضيقة جداً بالنسبة للبلدان الأوربية التي تماثلها. فيها كنيسة جميلة وبها ساعة فلكية يظهر أنها قديمة. وقد علمت أن مكتبتها الكبيرة قد احترقت في الحرب الألمانية الافرنسية. سكانها يتكلمون اللغتين الألمانية والافرنسية.

والإفرنسيون متعصّبون لاسترداد الألزاس واللورين[1]. والذي يلفت النظر في فرنسا أنك لا تكاد تجد داراً لأحد الافرنسيين ليس فيها رسم الألزاس واللورين، يوحي للناظر روح الانتقام واسترجاع هذه المقاطعة من ألمانيا. وقد صادفت كثيراً من الرسوم التي ترمز الى الألزاس واللورين بصورة فتاة جميلة مغلولة الأيدي

(١) مقاطعة في الشمال الشرقي من فرنسا
- ضمت سنة ١٨٧١م إلى ألمانيا بعد هزيمة فرنسا.
- استردتها فرنسا سنة ١٩١٩ بعد هزيمة ألمانية في الحرب الأولى
- انتزعها هتلر من فرنسا سنة ١٩٤٠م
- استعادتها فرنسا سنة ١٩٤٥ بعد هزيمة ألمانيا.

بسلاسل يحيط بجسمها العقارب والحيات والهوام ذوات السموم تحمّس شبيبة الإفرنسيين، وتوقد فيها روح البغض للألمان وتزكي فيهم الحماسة لاسترداد هذه المقاطعة من عدوّهم.

وقد أعادت لي هذه الذكرى خطاباً لمدير شرطة باريس في السوربون سنة ١٩١١، حيث قام شبان باريس بمظاهرة يطلبون فيها من الحكومة إرجاع الألزاس واللورين إلى حضن أمها فرنسا. وقد ساقتني الظروف لسماع هذا الخطاب الذي كان وقعه على المتظاهرين كوضع الرماد على النار. فقد أطفأ حماستهم.

والذي أذكره من هذا الخطاب أنه قال: إن ألمانيا في حرب السبعين غلبت فرنسا. وكان الشاب الافرنسي يعادل عشرة جنود من فرسان «الدراغون» الألمان. واليوم إني أراكم يا أولادي رغم حماستكم الملتهبة لا يعادل كل عشرة شبان منكم جندياً واحداً من جنود «الدراغون». لهذا أطلب إليكم أن تذهبوا إلى دوركم بسلام، وتعدُّوا أنفسكم لأن يصبح الجندي الافرنسي قادراً على دحر عشرة جنود من الألمان. عندها تعالوا وتظاهروا. والحكومة الافرنسية لا تكون آنذاك أقل حماسة منكم لاسترداد هذا القطر المحبوب الذي اقتطعوه من جسم أمنّا فرنسا.

باويره

بعد أن غادرنا ستراسبورغ دخلنا باويره، ويسميها الألمان بايرن، وهي مقاطعة كبيرة من مقاطعات ألمانية الجنوبية، حكومتها ملكية مرتبطة بالاتحاد الألماني[1]. وتقع في الأهمية بعد بروسيا، وقاعدتها ميونيخ. لم نسمع فيها إلا اللغة الألمانية. وإذا تكلم أحد بالافرنسية فهم رؤساء الخدم في الفنادق والمطاعم. حتى إن بعض المطاعم والفنادق الصغيرة لا يتكلم الإفرنسية فيها أحد.

(١) كان إمبراطور ألمانيا آنذاك وليم (غليوم) الثاني، الذي حكم سنة ١٨٩٠م، وزار دمشق الزيارة التاريخية المشهورة، وجدّد ضريح صلاح الدين فيها، وبُني له في المهاجرين مصطبة لمشاهدة دمشق، هي اليوم إحدى جادّات المهاجرين.

وسكانها طيبون ومتعصّبون للدين، يملؤون الكنائس في أيام الآحاد. وأكثرهم كاثوليك. وهذه المقاطعة من أهم المراكز التجارية توسطها بين النمسا وألمانيا وسويسرا وإيطاليا ويوغوسلافيا.

وباويره لها استقلال داخلي، ولها مجلس نواب. وهي في مقدمة المقاطعات في الاتحاد الألماني كما قلنا. عاصمتها ميونيخ. وهي من أجمل البلدان الأوربية والذي فهتمه أن المدارس الابتدائية فيها كثيرة، تزيد عن العشرة آلاف مدرسة. ولكل أبرشية مدرسة أو أكثر من مدرسة ابتدائية، حيث لا تخلو قرية أو محلة من التعليم الابتدائي. والدروس تجري تحت إشراف الحكومة البافارية. كما أن المدارس «الرشدية» المتوسطة و«الإعدادية» كثيرة. وفيها ثلاث جامعات. إحداها في ميونيخ، والثانية «وورتسبورغ». وهما جامعتان كاثوليكيتان، والثالثة في بلدة آرلنكن، وهي للبروتستانت. وفي ميونيخ مدارس صناعية وزراعية.

وفي باويره مصانع لا بأس بها، منها للجوخ وغيره. وفيها مصانع بيرة كثيرة، أينما سرت ترى فيها البيرة تباع بـ(الشوب)، وهو كأس كبير له يد مثل «الكيلة»، وخطوط السكك الحديدية فيها منتظمة وكثيرة. وطرقها لا بأس بها.

والألمان في طبائعهم يختلفون عن الإفرنسيين تماماً، حتى بالأجسام والأشكال. والألماني طويل، أبيض أشقر، متين العضلات عظيم البنية وجسيم الهيكل. والألماني معروف بالشدة والأمانة والاستقامة والوفاءوالنخوة والتروي والثبات. والألمان يحبُّون الفُنون الجميلة، والموسيقا منها خاصة. ولهم فيها وفي الحفر والتصوير والنقش مقام رفيع بين الأمم.

والألماني جسور صبور على المشقات، جامد الحركات. على أن فيهم من أصحاب خفة الدم الفكاهي جماعة لا يبقون على القلب هماً من النكات والحركات التي يعملونها لجلب الفرح والبشر الى من يُجالسونهم.

وفي باويره أديرة وصوامع وكنائس بديعة، منها كنيسة في ميوينخ غاية في الجمال، ومنظرها الخارجي يشبه الأبنية الصينية بزخرفتها.

ميونيخ

هي العاصمة كما قلنا، واقعة على نهر أزار. تبعد عن برلين ما يزيد عن ٥٠٠كم، وعن عاصمة النمسا فيينا ٣٦٠كم. وهي بلدة جميلة جداً مع صغرها فيها مكتبة جميلة متوسطة. وبها ما يقرب من مليون و٣٠٠ ألف كتاب مطبوع، وفيها كثير من الكتب الخطية. لم أتمكن من البحث عنها في هذه الزيارة الخاطفة. وفيها المستشفيات الراقية، أعجب بها رفقائي الأطباء. وفيها دار أيتام عظيمة. وهي مشهورة بمطابعها الكثيرة التي كانت في مقدمة مطابع الدنيا في تلك الأيام. وفيها محلات للتسلية، وصالونات عظيمة للاجتماع، منها قاعة عظيمة، وهي صالة «هوف براون الملكية».

لينز

تبعد هذه البلدة الصغيرة عن فيينا ١٥٠كم إلى الغرب، وتقع على ضفة نهر الطونة[1] المشهور. أهلها ألمان بكل ما فيهم، غير أنهم أرق طبعاً من الألمانيين. وبالرغم من ذلك فقد تحملنا من العَنَت شيئاً كثيراً لعدم معرفتنا لغات الأمم التي دخلنا بلادها.

قضينا يوماً فيها في «أوتيل» متوسط، وحضرنا تمثيل رواية في مسرحها الوحيد، وهو مسرح صغير بديع البناء. وفيها مدرسة هندسية، ودار للمعلمين ومدرسة إعدادية تجهيزية. كما أنَّ فيها مدرسة خصوصية للبكم والصم. وقد أعجبتني جداً، لكن عدم معرفتنا للغة جعلني أطوي بحثي عنها لأني لم أتمكن من معرفة تاريخ تأسيسها، ومن هو المؤسس، وما هو عدد الطلاب، وما هي الأعمال التي يُعلّمونهم إياها. وقضاء يوم واحد في بلدةٍ لا يساعد السائح على دراسة حالة هذه البلدة حتى ولو كان يحسن لغة أهلها، فكيفَ بنا ونحن لا نعرف حرفاً واحداً من هذه اللغة.

---

(١) يُعرف بنهر الدانوب، طوله ٢٨٥٠كم، يصب في البحر الأسود.

ولمّا عرف أهلُها أننا عثمانيون أخبرونا أنَّ في هذه البلدة «فبريكة» طرابيش تصدر مصنوعاتها إلى بلادنا. وكل من حدَّثنا عن هذه «الفبريكة» كان يتكلم بافتخار وعزة كأنه «قاطع رأس البرمبو»!

وفي هذه البلدة «فبريكة» جوخ حكومية. ولم أدرِ الحكمة من ذلك، ولم تقع عيني على غير هذه الفبريكة للحكومة في جميع مراحل سياحتي. لأنه من المعلوم أنَّ: «حكومة وتاجرة» لا يصح أن تكون. وفي هذه البلدة -مع صغرها- معامل للسجاد والدخان والبارود. والذي يلفت النظر فيها «ترسانة» للسفن التي تجوب نهر الطونة بصورة خاصة. ومصانع البيرة كثيرة على عادة أهل البلاد الألمانية، لأن مشروبهم الوحيد هو البرية، بعكس الإفرنسيين الذين يفضلون النبيذ. وقد ركبنا صباحاً الإكسبريس متجهين إلى بلدة ڤيينا.

فيينا

هذا الاسم يطلق على عدة بلدان في فرنسا. كما أنه اسم نهرينبع من جبال «ميل واسن»، يصب في نهر «لوار». وهذه البلدان والنهر هي غير فيينا التي أذكرها هنا، والتي هي من أجمل بلاد أوربا الوسطى، وهي عاصمة بلاد النمسا والمجر. وهذه الدولة كانت ملكيةً إمبراطورها فرانسوا جوزيف، من سلالة أسرة هابسبورغ الشهيرة. وتقعُ على ضفة نهر تتشكل مياهه من نهري الطونة ونهر ثان يسمى «وبانه» يمر من الجهة الشرقية لبلدة فيينا.

الإمبراطور هو لقب يطلق الآن على ملوك أوربا العظام، وهو أعلى من لقب الملك، ومعناه: آمر أو قائد أو أمير. وقد أطلقه الرومانيون على قوادهم عقب انتصارهم على أعدائهم. وبعد زوال الجمهورية الرومانية لقبوا القيصر بالإمبراطور، وذلك سنة ٤٥ق.م. وجرى هذا اللقب على ملوك الرومان بعد ذلك إلى أن لقَّب البابا الملك شرلمان إمبراطوراً على الغرب، ثم لُقِّب به ملوك روسيا ونابليون. وصار يعطى اللقب لكل صاحب مملكة واسعة إلى أن وصل إلى النمسا.

وما كدنا نصل المحطة حتى تقدم منا بعض خدم الفنادق كل واحد منهم

يحمل علامة الفندق الذي ينتمي إليه، إما على قبَّعته وإما على صدره. وقد جدنا شاباً يتكلم الإفرنسية بين هؤلاء الخدم، فاتفقنا معه على الذهاب إلى الفندق الذي يدعونا إليه. وبسرعة فائقة أحضر حمَّالاً نقل حوائجنا إلى العربة التي استأجرها. والعربات كانت مصفوفة خارج المحطة بنظام بديع، حيث لا يحق لأحد أن يتقدم على أحد. بل يركب المستأجرون العربة الأولى ويأتي غيرهم يأخذون الثالثة والرابعة.. وهكذا بحيث لا يختلُّ النظام من تدافع العربات نحو الركابُ كما كنا نرى في بلادنا.

واتجهنا نحو الفندق الواقع قرب الساحة الكبيرة المسماة «باتر»، وهي مركز حركة فيينا، مثل المرجة عندنا. ولما وصلنا الفندق واسترحنا قليلاً غسلنا وجوهنا وغيَّرنا لباسنا، لأنَّ المسافر كان يلبس في السفر الثياب العتيقة، حتى ولو كانت خرقة، خوفاً على لباسه النظيف، لأن السفر كان يضني المسافرين وتتسخ ثيابهم من القطارات ومن الأسود المتراكم فوق المقاعد ونوافذ القطار. لهذا كان المسافرون يرتدون الثياب العتيقة تخلصاً من الأوساخ.

خرجنا من الفندق لتناول الطعام، لأن فندقنا كان للمنامة فقط. والغريب في مثل هذه البلاد يضيع إذا لم يكن نبيهاً. وبكل صعوبة وجدنا مطعماً، فدخلناه وجلسنا على مائدة منحرفة، «وتعال نتفاهم مع الكرسون بقى». وبكل صعوبة تناولنا وجبة العشاء، وبعد أن قمت إلى المطبخ ورأيت بعيني أصناف الطعام في الطناجر، وأشرت إلى الطاهي عن الأنواع التي نريدها. وطعام الألمان لم يتفق مع أذواقنا. ولذا فإن طاهينا «الدكتور» أحمد راتب استلم الأمر وجعل يطعمنا من طبخهُ النفيس الذي كاد يخرجنا عن ديننا. لأنه ادّعى معرفة الطبخ وهو بعيد عنه بعد الأرض عن السماء. نعم كان يعرف قلي البيض وشوي اللحمة. ولكنه أكثر الأحيان كان يحرقها على النار، حتى إنه كان إذا صنع لنا صحناً من السلطة يضطرنا بعض الأيام لغسل السلطة بالماء لتخفيف تأثير الملح الذي يضعه فنقول له:

يا«دقتور» لماذا أكثرت الملح فيقول: يا ناس لم أضَعْ غير حفنة! والحفنة معلومكم يمكن أن تكون أوقيه، وهكذا قضينا هذه السفرة طعامنا «ملفوص» من تحت يد هذا الدكتور الطباخ، وعلى كلٍّ أكثر الله خيره فإنه أطعمنا «قوت ولا تموت».

شوارع فيينا وقصورها ومعالمها

إن شوارع هذه المدينة عريضة، وباحاتهاواسعة. والشوارع الحديثة والقريبة من دوائر الحكومة نظيفة. أما المحلات النائية فيها فهي كثيرة الأوساخ، حتى إن في بعضها أوحالاً مثل طرق القرى.

أما طعامها فلم تألفه أبداً، بعكس طعام الإفرنسيين. إذ كان المطبخ الإفرنسي آنذاك يفوق زميله الألماني، خصوصاً في طبخ اللحوم.

والبلديات في كلا الدولتين ساهرة على الأسعار. فلكل حاجة سعر مكتوب على لوحة صغيرة لا يمكن للبائع أن يُخالفه، والحاجات إذا كانت من حاجات اللباس أو الطعام، مرصوفة في واجهات المخازن بشكل بديع يستلفت الأنظار.

و«البوليس» الشرطي النمسوي غاية في اللطف، والرقة من طبائع النمسويين، والشعب النمسوي مشهور بالأدب المعروف عندنا «بالتربية الحسنة وحُسن الخلق». وهو ذو لباس أنيق، وحركاته رشيقة. والأفراد الذين يستخدمون في الباصات الكبيرة وفي دوائر الحكومة جميعهم من أصحاب الأجسام الطويلة والأشكال الجميلة. والشرطي يوحي الاحترام بما يبديه من الرقة، وما يتخذه من الأوضاع الرسميّة.

أما السلام الرسمي فهو شرط على الشرطي، يؤديه إلى كل من كلَّمه من الناس غريباً أم من أبناء البلاد، أميراً أم حقيراً، تاجراً أم جانياً فاجراً. وهذا السلام الذي يؤديه الشرطي لهؤلاء هو نفس السلام الذي يؤديه لرؤسائه.

وڤيينا مشهورة بقصورها وجمال أبنيتها. ومن أبدع قصورها قصر ماريا تريزا المطلّ على حديقة «براتو»، وهو القصر الشتوي لهذه الملكة. ولها قصر صيفي

خارج ڤيينا. والقصر الملكي «شون بروتين» من أبدع وأجمل قصور الدنيا في منظره الخارجي. وكم تمنيت الدخول إليه للتفرج على ما في داخله، ولكنني لم أتمكن من ذلك لسوء حظي. ومن قصور ڤيينا الجميلة قصر البلدية.

وبلدية ڤيينا لها قصر من أبدع قصور الدنيا، والحركة في دوائرها دائمة ومنتظمة، لا يمكنك أن تسمع صوتاً لأحد عند التكلم. الجميع يحكون همساً، والأوراق عندما يقدمها أصحابها تحول إلى أصحابها دون كلام. وصاحب المعاملة لا يسأل المحوّل عن شيء، بل يقرأ الحوالة ويذهب بنفسه إلى الغرفة المحولة إليها المعاملة. وقد خطرت ببالي دائرة بلديتنا عند وضع أقلام البلدية بالمزاد. والشغب فيها وارتفاع الأصوات بالكلام والمناداة، كأن الإنسان في سوق من أسواق الشرق. وكلما رأيت شيئاً يستلفت النظر كنت أتمنى أن يكون في بلدتي مثله. وقد غبطتُ الشعب النمسوي على أخلاقه وهدوئه، وتمنيتُ أن يكون الشعب السوري مثله في جميع النواحي.

ضِعْتُ في ڤيينا

وقد أخبرني رفاقي أنهم سيحضرون عملية جراحية في المستشفى البلدي الكبير غداً، وطلبوا مني أن أحضر لهم الطعام لأنهم لا يتمكنون من الحضور قبل الظهر، لأن هذه العملية تعمل للمرة الأولى، وقد قرؤوا عنها في الصحف، وهي حديث الناس. وعليه فإن أحمد راتب، طاهينا المحبوب، سوف لا يتمكن من إعداد وجبة الغداء. وقد أوكل أمرها إلي.

وفي الساعة الثامنة خرج الأطباء إلى المستشفى، وخرجتُ للتنزُّه، على أن أعود قبل الظهر لإعداد الطعام. وكان فندقنا قرب الباحة الكبيرة التي هي مجمعُ خطوط الترامواي. فخطر لي أن أركب حافلة وأبقى فيها ذهاباً وإياباً، فأتفرج على الشارع الذي تمر به دون أن أنزل منها. وما كدت أسير مقدار كيلو مترين حتى وجدت جمعاً عظيماً يقف أمام قوس كبير يمر الجنود والعربات والسيارات من تحته. وهذا القوس متصل بحائط عريض يمر فوقه القطار الحديدي.

وسألت الواقفين: ما هذا؟ فقال أحدهم: «مليتير»، يعني عسكر. ولم أفهم غير هذه الكلمة. فنزلت من الترامواي، ورقم الحافلة (٨) أبقيته في ذاكرتي لأعود فيها بعد الفرجة. ووقفت بين الناس.

وكان المدعوون من المشتركين في الاحتفال يلبسون اللباس الرسمي. والنمسويون مشهورون بحسن لباسهم العسكري. وكانت القبعات المزيَّنة بالريش ومختلف الأشكال تستلفت النظر. وبعد وقوف ساعتين تقريباً رجع المدعوُون، ثم بدأ الجيش يمرّ بصنوفه الثلاثة: المشاة والخيَّالة والمدفعية. وجعل الجيش يدخل تحت القوس ويتفرق في الطرق المتفرعة في حديقة كبيرة. ودخلتُ وراء الجيش ظناً مني أنه ذاهب للاحتفال بشيء أمام سراي الإمبراطور. وما كدت أسير قليلاً حتى تفرقت قطعات الجيش في طرق الحديقة، وبقيت وحدي وأنا لا أعرف الألمانية. وتفقدت بطاقة الفندق فلم أجدها في جيبي. ونسيت اسم الفندق الذي أنزل فيه. ولم يبق في فكري إلا رقم حافلة الترامواي.

وجعلتُ أفتش عمّنْ يتكلم الإفرنسية أو اللغة التركية أو العربية فلم أجد. وبقيت وحدي، كما أني نسيت بطاقة الفندق التي فيها اسمه في جيب ردائي الذي كنتُ أرتديه في اليوم السابق. وفيينا بلدة كبيرة كما هو معلوم. وجعلت «أحوصُ وألوص» من مكان إلى مكان، والوقت يمرّ، وأنا بعيد عن الفندق. ولم أعدّ أي شيء من الطعام لرفاقي الذين سيعودون من المستشفى الذي حضروا فيه العملية الجراحية. وماذا أصنع وقد أوكلوا إليّ أمر إعداد طعام الغداء؟

جعلتُ أركض من «ناح لناح» وأنا مضطرب، فلم أجد من يفهم كلامي، كما أني لم أفهم من أحد أي كلمة. ولذا سرت إلى شرطي يقف في أحد الشوارع، وأريته حافلة ترامواي، وقلتُ له بالإشارة أريد الحافلة رقم (٨)، ففهم عليّ وسار معي إلى رفيق له كان واقفاً في آخر الشارع، وأفهمه غرضي وحدَّثه عن طلبي، واستفهم مني فأشرت له على ترامواي، وكتبت له رقم الثمانية بالحروف الإفرنجية (8)، وهزّ رأسه، وسأل سائق ترامواي عندما وقف في المحطة الخاصة لوقوف

الترامو ايات عن الحافلة رقم (٨) فدلّوه على موقفها. وسار وسرت معه، وأوصلني إلى زميله الواقف في شارع ثانٍ، وهذا أوصلني إلى غيره. وبعد مسير أكثر من ساعة وصلت إلى ساحة «باتر» العمومية بصحبة الشرطيين، وهي الساحة التي ركبتُ منها. وعرفت الساحة والفندق، وشكرت الشرطي وصافحته، وهذا حياني التحية الرسمية وعاد من حيث أتى.

وكانت الساعة قد شارفت الظهر، وكان أمام الفندق حانوت «بقال»، كنت رأيت عنده بالأمس في واجهة الحانوت بين البضائع عدداً من بيض الدجاج. ودخلت الحانوت وأخذت ما أريد من الزبد والخبز والزيتون والبطاطا. وكل صنف كنت أشير إليه بيدي فيعطيني منه حاجتي. والتفتُّ إلى الواجهة وإلى المنضدة التي أمامه فلم أجد بين الحاجات بيضاً. فجعلت أشير إليه بيدي لأفهمه ما أريد فلم يفهم، إلى أن أخذت منديلي الأبيض وصررته بشكل بيضوي وأريتُهُ إياه مصحوباً بقولي «كوكو كوكو». وهنا فهم وضحك هو وجميع المشترين، وذهب إلى داخل الحانوت وأحضر ما أردت من البيض. وكلما دخل أحد المشترين من نساء ورجال جعل يحدثهم حديث البيض ويقول: «كوكو كوكو»، وهم يضحكون.

أخذتُ ما طلبت، وكنت أفكر أن أصنع لهم لوناً من الطعام مغذياً ولا يحتاج إلى وقت طويل، فاخترت «المفركة بالبطاطا». وأحضرت حوائجها كما قلت. ولم يمضِ عليَّ ساعة حتى حضرت لهم الطعام. ووصل الإخوان، وأكثرهم جوعاً الدكتور الأمير عز الدين الشهابي، إذ «وصل مرهقاً». وجلسنا إلى المائدة وأكلوا بشهية عظيمة وهم يضحكون من هذه الطبخة. ولا أبالغ إذا قلت إن الإخوان نزلوا بهذه الأكلة مثل «الجاج الأعمى» من شدة الجوع لتأخرهم عن وقت طعامهم مدة ساعتين لأن عادتنا كانت أن نتغذى في الساعة الثانية عشرة تماماً.

وقد اجتمعتُ أمس بالمصادفة بالأمير عز الدين وتذاكرنا في هذا الغذاء فقال إنه لم يزل طعمه تحت أضراسه إلى اليوم. فقلت: دخلك قم تمضمض واغسل فمك إذاً لتتخلص من هذا الطعم.

حالة ڤينا الاجتماعية وجيشها وحدائقها

هذه العاصمة من أرقى عواصم أوربا، فيها مدرسة للمستشرقين تسمّى «ترزيانوم». وهي مدرسة عالية لتحصيل اللغات الشرقية. وفيها خمسة مكاتب «إعدادية» تجهيزية. أما جامعتها فلها عدة فروع، منها الطب، وهذا الفرع من أشهر مدارس الدنيا في الطب، وفروع للهندسة بأنواعها، وفيها مدرسة للبيطرة، وعدة مدارس أخرى للصنائع، ومدارس موسيقية. ولها «كونسرڤاتوار» عظيم. وفيها مجمع علمي راقٍ، وفيها مسارح كثيرة أجملها «دار الأوبرا» وحدائقها منسّقة أحسن تنسيق.

وقد رأيت في إحدي الحدائق حائطاً من شجر ارتفاعه أكثر من ارتفاع شجر الحور في بلادنا، ورقه مقصوص مثل ما يقص ورق أوراق أشجار المرجان عندنا قصاً صناعياً. وكان طول هذا الحائط أكثر من خمسمائة متر. وهذا النوع من الشجر يقصّون أغصانه المتفرعة من جهاته الثلاث، ويتركون الجهة التي يريدون تربية أوراقها ويهندسونها بالشكل الذي يريدونه حتى إن الحرش الواقع خلف هذا الحائط فيه طرق كالأنفاق من هذا الشجر المقصوص يحار المرء من حسن صنعه.

أما مصانع ڤينا فحدّث عنها ولا حرج، لا يمكن للإنسان أن يتصور شيئاً من الأشياء لا يوجد له مصنع أو مصانع في هذه البلدة. وقد اشتهرت فيها مصانع الآلات الموسيقية وصياغة المجوهرات، وفيها مطابع كبيرة جداً من أشهر مطابع الدنيا. ونفوس هذه البلدة كان يقرب من المليون ونصف.

أما الجيش النمسوي فكان مشهوراً بحسن رمي المدافع الثقيلة. وكانت مدفعيته تحسب لها الدول حساباً، ولباس الجيش خصوصاً الرسمي من أجمل أشكال اللباس العسكري في العالم. والجندي النمسوي لطيف بالطبع. ويمكن أن أقول إن الضابط النمسوي أرق ضابط رأيته بين ضباط الدول. وقد عاشرت كثيراً منهم في الحرب العامّة. وسأذكر ذلك عندما أصل إلى بحث الحرب.

وفي أوربا عادةٌ جارية لا يعرفها الشرق آنذاك، وهي إقامة التماثيل للرجال العظام في الباحات العامة والمؤسسات الكبرى والقصوُر. ومن البلاد التي اشتهرت بإقامة التماثيل بلاد النمسا. وقد رأيت في فيينا تمثالاً بديعاً للإمبراطور فرانسوا جوزيف غاية في دقة الصنع، وهو من أجمل تماثيل العالم.

وقد جرت حادثة لطيفة أثناء زيارتنا لحديقة الحيوانات، لا بأس من ذكرها هنا. دخلنا هذه الحديقة الجميلة التي تجمعُ أصنافاً وأنواعاً كثيرة من الحيوان. وهي لا تقل عن مثيلاتها في العواصم الأوربية في العظمة، والدخول إليها مباح لمن يشاء. وقد وصلنا الى بناء صغير للقرود والببغاوات. ولم أدرِ الحكمة من جمعها في مكان واحد. وهذا القسم عليه ضريبة دخولية. فمن أراد التفرج يدفع ثلاثة «هيلدرات». والهيلدر واحد من عشرين من المارك النمسوي، وقد دفعتُ ودخلت هذا البناء وحدي، لأن رفقائي امتنعوا عن الدخول بسبب تعبهم، وأرادوا الاستراحة على مقعد في الحديقة قريباً من محل القرود.

في هذا البناء أقفاص كبيرة من الشريط المتين على شكل مربعات ومستطيلات متينة في الجدران. وفي كل قفص قردان أو ثلاثة. والبّبغاوات في أقفاص صغيرة معلَّقة بسلاسل متدلية من السقف.

وبينما أنا أتفرج على قرد كبير، وإذ بقرد إلى جانبه يتأمله بهدوء ويجيل نظره في رفيقه وينقله من أعلى إلى أسفل وبالعكس. ثم مدَّ يده بخفَّة ودفع كتفَه وأرجعهُ بسرعة. وقد حوّل نظره كأنه لم يفعل شيئاً. أما القرد الذي «نُعر» فقد أدار وجهه وتفرّس في رفيقه ولم تبدر منه أية بادرة. وبعد أن حوَّل نظره عنه عاد الأول، وكان يعاين حركات رفيقه بمؤخر عينه، فدفع رفيقه بسرعة دفعة أشد من الأولى -نعرة قوية- وحوَّل عنه نظره كأنه لم يفعل شيئاً. وأعاد «المنعور» النظر بهدوء. ولم تبدر منه بادرة. وما كاد يحوّل نظره عن رفيقه حتى أعاد الأول «النعرة» بسرعة وبصورة أشد من الأولى. وهنا شب المطعون على رفيقه وتشابكا بعراك شديد. ولم ينفصلا

عن بعضهما حتى تداخل المروّض بينهما، وهددهما بسوطه، وهما ينظران إلى بعضهما نظرات ملؤها الحقدوالعداء.

وقد تأكد لي أن هذه الحركة غير مصطنعة، بل هي بنت ساعتها. ولو لم أرها بعيني لم أصدّق، أن حيواناً يقوم بمثل هذه الحركات. وخرجت وأنا أضحك من ذلك. وحدّثت رفقائي بها فندموا على حرمانهم من هذا المنظر ومشاهده هذه الرواية الطبيعية.

في ڤيينا متحف من أغنى المتاحف، يضم تحفاً كثيرة لا تُحصى، والذي يلفت النظر فيه جثة محنَّطة أخبرونا أنها هدية الحكومة المصرية إلى الدولة النمسوية. وفي الحقيقة كانت مثل المومياء التي رأيتها في سفري إلى مصر. وكانت زيارتنا لهذا المتحف خاطفة لضيق الوقت. فلم نتمكن من التفرج على جميع محتوياته. واكتفينا بنظرة عابرة أعطتنا عنه فكرة بسيطة، نقدر أن نقول بعدها إننا زرنا متحف ڤيينا بزماننا. أما بناء المتحف فلم يكن عظيماً بالنسبة للأبنية المشهورة كبناء قصر البلدية الذي قلّ أن يوجد مثله بين القصور العظيمة.

عدنا إلى الفندق وقد أثرّ التعب فينا لكثرة ما مشينا هذا النهار. وبعد أن استرحنا قليلاً قمنا لإعداد أمتعتناوتهيّأنا للسفر. وفي الصباح غادرنا ڤيينا بالقطار إلى بودابست عاصمة المجر.

بودابست

في الصباح الباكر صحونا وحاسب الأميرُ الشهابي صاحب الفندق، فكان ما أصاب كل واحد منا أجرة النوم ما يقرب من الليرة الافرنسية ذهباً في الأيام الثلاثة، وأصاب الخدم من الإكرامية «البخشيش» بقية الليرة.

وركبنا القطار إلى المجر. والمسافة بين ڤيينا وبودابست تزيد على المئة كيلومتر قليلاً. وهي واقعة في الجنوب الشرقي من ڤيينا. والزراعة في النمسا تشبه غيرها من زراعة البلاد الأوربية. والفلاح النمسوي كالفلاح الألماني.

ولما دخلنا حُدُود المجر تبدَّل معنا شكل اللباس والعادات. وظهر الفرق بين العنصر الهنغاري والنمسوي. والهنغاريون أقرب إلى الشرقيين منهم إلى الغربيين. وهم من ألطف الشعوب وأرقهم. والجمال خارق في كلا الجنسين. وفي بلاد المجر ومابعدها قدِرنا أن نجد مترجمين من أهل البلاد. فبالمجر البوسنويون، أعني أهل البوسنة، وهم مُسلمون متدينون متمسكون بالعوائد الشرقية. ونكاد لانرى رجلاً من البوسنة لايعرف التركية. وأهل البوسنة يؤمّون بلغراد للعمل فيها. وقد وجدنا بعض الراحة بمناسبة الترجمة بعد العذاب الذي لاقيناه في بلاد الألمان والنمسا.

ووصلنا بودابست قبل الظهر، وهي بلدة جميلة جداً، غاية في النظافة وهذه البلدة هي عاصمة بلاد المجر. فهي أصغر من العواصم الغربية، ومن أكبر البلاد الشرقية التي تقع على نهر الطونة. وهي قسمان: بوده وبشته. فبلدة بوده أصبحت محلة من محلات بشتة، ولهذا سمّوا الاثنين: بوده بشته. والعثمانيون يقولون: بودا بسته، بالسين المهملة. وقد أخذناها عنهم.

نزلنا في فندق متوسط، وتناولنا الطعام في مطعم قريب. وتنقلنا في البلدة نتفرج ونحن مشاة. والسيارات لم تكن معروفة في هذه البلدة. والركوب كان بالعربات «الحناتير». ومن الصعب التفاهم مع «العربجية» الحوذيين، خصُوصاً الغريب الذي لايعرف لسان الحوذي. وهذا ليس في المجر بل في جميع البلدان في العالم.

وبعد مسير بضع ساعات على الأقدام تعبنا، فجلسنا في مقهى أمام مجلس «المبعوثان» النواب. وهناك وجدنا أحد البوسنين. ولما عرف أننا عثمانيون عند سماعه كلامنا العربي، لأنه مسلم ويقرأ القرآن، تقدَّم منا بلهفة وسلَّم علينا «سلام الأحباب إذا كانوا غيّاب». وجلس معنا وأرانا بناية المجلس، وهي واقعة في ناحية بشته مع دائرة العدلية وباقي دوائر الحكومة مبنية في ناحية بوده.

المدارس في المجر

كان في المجر مدرسة للفنون الجميلة، ومدرسة حربية، وعدَّة مدارس

«إعدادية» تجهيزية. ومدارسها الابتدائية قليلة بالنسبة لغيرها من البلدان التي تماثلها. وفيها مسارح نظيفة ودار كتب عامرة. وفيها حديقة للنبات، وفيها مصانع كثيرة، وهي مركز مهم للتجارة في أوربا الوسطى.

وفي بودابست جسر على نهر الطونة يسمونه جسر «روتشيلد»، من أجمل جسور العالم. وأهلها قريبون في عاداتهم من عادات سكان الولايات التركية. لأن الأتراك حكموها مدة غير قليلة. ولهذا بقيت الطبائع التركية مطبوعة في السكان. وبالرغم من تغيُّر اللسان فإن الإنسان يحسُّ أنه في بلاد روح أهلها قريبة من روحه.

وبعد الاستراحة عدنا إلى الفندق، وتناولنا شيئاً من الطعام الذي أحضره الدكتور أحمد راتب. وفي المساء ذهبنا إلى مسرح جميل -تياترو- كانت تمثل فيه رواية باللغة المجرية، لم نفهم منها شيئاً، لأنه لايوجد من يترجم لنا الكلام آنذاك والسائح مفتقر بالضروري إلى دليل يتكلم لغة البلد التي يزورها».

قضينا يوماً في بودابست. وركبنا في اليوم الثاني القطار إلى صربيا -يوغوسلافيا اليوم- ووصلنا عاصمتها بلغراد. وكانت واقعة على حدود المجر في الجنوب، وأهلها في طبائعهم وأشكالهم مثل سكان الولايات العثمانية في «الروم إيلي». وفيها كثيرون ممن يتكلمون التركية من أبناء «الكروات» من أهل البوسنة وغيرهم من أبناء الروم إيلي الذين دلفوا إلى بلغراد حتى ومن أهلها أيضاً.

بلغراد

عاصمة مملكة الصرب. حاكمها الملك بطرس[1]، وهو من الملوك المشتهرين بالعقل والحكمة، ومن الذين خدموا بلادهم خدمات عظيمة. وهو محبوب من رعيَّته، ومعنى بلغراد بلسان الصرب القلعة البيضاء أو «الاستحكام الأبيض». وهي واقعة عند ملتقى نهر الطونة بنهر «صاوة».

---

(١) بطرس الأول ١٨٤٤ -١٩٢١، ملك صربيا ثم يوغسلافيا ١٩٠٣ -١٩٢١م خلفه ابنه بطرس الثاني الذي أطاح به تيتو سنة ١٩٤٥م.

وفي بلغراد بعض المساجد القديمة، وكلها خربة. والقلعة واقعة على تلة عالية تشرف على ملتقى النهرين. وفي هذه القلعة قبر مصطفى باشا أحد الولاة الأتراك الذين حكموها. والقبر منوّر بقنديل. وقد فهمنا من أحد أبناء البوسنة أن هذا القنديل يبقى مشتعلاً ليل نهار. والحكومة الصربية مجبرة على إشعاله دائماً، لأن هذا العمل داخل في المعاهدة المعقودة بين الأتراك والصرب، هذا ما قاله البوسنوي، والعهدة على الراوي.

وفي صوفيا محلّة للمسلمين ومحلة لليهود، وهم كثر فيها. وأعظم تجارتها في أيديهم. وحيُّهم قريب من الحي الإسلامي. وأهل الصرب أكثريتهم «روم أرثوذكس».

ولمّا تعبنا بعد عودتنا من القلعة، جلسنا في إحدى الباحات على المقاعد العمومية للاستراحة. وإذ بجنازة كبيرة تمرُّ أمامنا. وقد لفت نظري ابنة المتوفى. وهي فتاة في زهرة الربيع، سائرة إلى جانب والدتها وعلى وجهها قماش رفيع من الحرير الأسود. ولباسها مع لباس والدتها كلّه أسود. وكان وجهها كالبدر يعكس نوره على التول فيزيد بهاءه بهاءً. فأُخذت بهذا الجمال وقمت حالاً أتبع الجنازة. وبقيت سائراً جانب أهل الميت وأنا بلباس السفر، وفي رقبتي منظار «دوربين»، وتحت إبطي محفظة من جلد، وعلى رأسي «كسكيت»، وهي قبعة معروفة للسفر، ويلبسها العمال أيضاً في أوربا.

ولما وصلنا الكنيسة دخلت مع المشيعين، وجلست في المقعد المقابل لمقعد آل الفقيد. ودامت الصلاة مدة غير قصيرة، وأدركني الوقت وخفت التأخر، فاضطررت أن أخرج من الكنيسة وحيداً، فقمت وكان في حذائي «ميّالة . . كعبية» وضعتها فيه لتحفظه من البلاء لكثرة السير في هذه السياحة. فلما خرجت خرج صوت وقع الحذاء بصورة سمعها جميع القريبين مني. وما وصلت إلى باب الكنيسة حتى «انسلق بدني من الخجل». وما كدت أخرج من الباب حتى نفضت غبار الموت عن كتفي، وأقسمت أن لا أعود إلى مثل هذا العمل.

ووصلت إلى عند رفقائي الذين لاموني على هذه المدة التي غبتها عنهم، وقد قرب موعد القطار. فسرنا إلى المحطة، وقد أودعنا أمتعتنا عند أحد الموظفين فيها.

ثم جلسنا في مقهى المحطة. وكان في المقهى جانب صندوق «القهوجي» صاحب المقهى حاكي «فونوغراف». وإذ بفلاح صربي يتقدم من بوق الحاكي بحذر ويدير الإبرة الدائرة. ثم وقف قليلاً وصلّب على وجهه وانهزم وهو يصرخ: شيطان شيطان، والنّاسُ تضحك. ويظهر أن الحاكي كان إدخاله إلى بلغراد في تلك المدة، والناس يجهلونه. وبقينا في بلغراد إلى الساعة العاشرة تقريباً، إلى أن وصل القطار فركبنا إلى بلغاريا.

سار بنا القطار قاصداً بلغاريا، ووصلنا إلى محطة كبرى في بلاد الصرّب. وكان المتفرجون على القطار يقفون في المحطة، فسألت رجلاً منهم باللغة التركية: كم دقيقة يقف القطار في هذه المحطة؟ فأجاب: يقف نصف ساعة. فقمت لقضاء الحاجة. فقال لي الأمير شريف شهاب: املأ لنا الإبريق ماء. وكانت تصحبنا في عربة القطار جوقة موسيقية كبيرة فيها بضع سيدات من المغنيات والراقصات المختلفات الجنسية من مجر وروم، وجميعهن يتكملن التركية. فطلبت من سيدة وجيهة «من الأرتيستات»، وهي أجملهن، أن أملأ لها إبريقها أيضاً.

ونزلت من القطار وملأت الأباريق ووضعتها جانب المضخة على حافة البئر. وما كدت أدخل بيت الخلاء إلا وصفر القطار. وكنت لم أبدأ العمل، فأسرعت بالخروج من الخلاء. «فتصوروا الحالة وفسّروا كما تشاؤون». وما كدت آخذ الأباريق في يدي حتى تحرك القطار. وكان رفقائي وأفراد الجوقة الموسيقية ينظرون إليَّ من نوافذ القطار بتحرق. وكنت تركت ردائي «الجاكيت في الحافلة. وليس معي ولا فلس واحد. وكل دراهمي مع الأمير شريف الشهابي.

وكانت المسافة بيني وبين القطار مقدار ٢٠٠متر، فركضت، وأسرع القطار بعد خروجه من المحطة وأنا أركض. وقد غبتُ عن أعينهم، وبقيت أركض إلى أن وصلت إلى آخر عربة، فوضعت الأباريق على مرتقى القطار وتعلّقت به وأنا على

آخر نفس. . وبعد أن استرحت قليلاً من الركض دخلت من باب آخر حافلة. وأجلسني الركاب عندهم قليلاً حتى عادت إليّ نفسي من شدة الركض. وجعلت أدخل من حافلة «فركون» إلى حافلة. وكان القطار يسحب ستين حافلة.

وما كدت أدخل الحافلة خاصتنا حتى قامت الضجة بين ركابها، واستقبلوني بالهتاف. ورأيت صاحبة الإبريق تبكي. فقلت لها: علام تبكي «يا تقبري عيني»؟ قالت: كنت أبكي على انقطاعك عن القطار. قلت: لا وحياة عينك بل كنت تبكين على الإبريق. وهاك إبريقك. وكان الإبريق مملوءاً بالماء. وإني لأعجب كيف تمكنت من المحافظة على بقاء الماء في الأباريق، وقد ركضت بها مئات الأمتار. ولم أسلّمها الإبريق إلا بعد أن تعهّدت لي بأن تعمل الجوقة لنا فصلاً إكراماً لهذه «التعبة» التي تعبتها في سبيلها.

وهكذا كان. فقد قام الآلاتية إلى آلاتهم، وأخرجوها من حقائبها و«دوزنوها» أصلحوها، وأجروا لنا فصلاً ممتعاً كان من أحلى الفصول، وبعدها وقف كل من كان بين الركاب في الحافلة من نساء ورجال، وجعلنا نرقص في أمكنتنا على الآلات، والجميعُ فيَ هرج ومرج. ومضت ساعة تعدُّ في الأعمار، وكل هذا من أجل إبريق الست.

وإني أنصح كل من يسافر إلى بلدة أن لايكتفي بسؤال الناس في المحطات عن حركة القطار بل يذهب إلى مكتب مدير الحركة ويسأل منه. وبذلك يحفظ نفسه من الوقوع بمثل هذه الخطيئة.

بلغاريا

ومنذ أن أطل القطار على صوفيا، ظهرت لنا قلعتها عن بعد. ووصلنا المحطة. وهنا سمعنا الضجيج أكثر مما سمعنا في محطة بلغراد. وكنا كلما تقدمنا من الشرق تزداد الفوضى في محطات القطار. ويرتفعُ الصياح حتى يبلغ في بعض محطات الريف حداً يعافُ الإنسان منه «سماه» لشدّة الضجيج. ولم يزل إلى الآن شيء من هذا في قرى المصايف في سورية كالزبداني والجَديْدة يوم يكون الركاب في المحطة كثيرين.

نزلنا في صوفيا، وأبقينا الأغراض عند أحد موظفي المحطة، وركبنا عربة ودرنا البلدة، وهي قسمان: صوفيا الحديثة، وصوفيا القديمة. فالحديثة فيها شيء من التنظيم، وفيها باحات نظيفة. أما القديمة فإنها تشبه قرى الشرق، وعندما يريك الحوذي هذا القسم يكلّمك بافتخار قائلاً: إن القسم الجديد من عمل البلغار، أما هذه البلدة فهي من آثار الترك الذين دخلوا بلغاريا وقضوا فيها العصور وخرجوا دون أن يحسّنوا فيها شيئاً.

دخلنا بلغاريا، وقد تغير معنا شكل السكّان الذين هم من السلافيين أيضاً. ويلاحظ السائح في وجوههم بعض الشبّه للعرق التتري. والبلغاريون رجال أشداء مشهورُون بالقوة والجد والنشاط. وبلاد بلغاريا زراعية، سكانها خليط من الشعوب البلقانية. وأكثر من نصف سكانها «أرثوذكس»، وما يقرب من الثلث مُسلمون، والباقي من العناصر المختلفة. واللُّغات السائدة في بلغاريا هما اللغتان البلغارية والتركية. والمسلمون فيها أكثرهم من العنصر البلغاري الذي اعتنق الدين الإسلامي ويسمّون «بومان». ولباس البلغار مشابهٌ لباس أهلِ البلقان، وهو عبارة عن قبعة من جلد الماعز تشبه «الطاقية» التي نلبسها في بيوتنا. ويفضلون الألوان الداكنة وأكثرها الأسود.

والرداء قصير مفتوح، شبه «الدامر»[1] عندنا، مزركش الحواشي تحته صدرية مفلّتة ليس فيها شيء من الأزرار، وزنّار عريض يستخدمونه كالجيوب يضعون فيه حوائجهم الخفيفة مثل المنديل وعلبة الدخان والكبريت وأمثالها.

كما أنهم يضعُون في الزنانير أسلحتهم الخفيفة كالخناجر والسكاكين و«الطبنجات» وهي ما يسميها الدمشقيون «غدارة» وهو نوع من آلات الرمي ذات الطلقة الواحدة. ومن العادة أن يضع الرجل في زناره اثنين منها دائماً. ولا يمكن أن يضع الرجل منهم غدارة واحدة أبداً. ولهذه الغدارات بيوت خاصة يحملها

(١) معطف رجّالي قصير، واسع الأكمام، يُلبس فوق القمباز، وهو غالباً ما يكون من الجوخ المقلّم بالقصب، وهو محرَّف من «طومار» التركية. بمعنى بردعة الفرس. موسوعة الفولكلور الفلسطيني صفحة ٦٤٩.

الغـاوون من الشبـان، لهـا سـيـور من جلد يدخلونـهـا تحت إبطهم. وترتكز على الكتف. والبيوت تتدلى من الجانب الأيسر إلى تحت الإبط فوق الفخذ. وبعضهم يزين هذه البيوت الجلدية بمسامير من فضة أو من بعض القطع المعدنية اللماعة.

وتحت الزنار يلبسـون السراويل الجـوخ، وهي مـخـتلفـة الأشكال. وهذه السراويل تصل إلى الركبة. يلفون تحتـها على قصبات الرجل لفائف من صوف يسميها العسكريون «كيتر» يلف الساق إلى أن يتصل بالحذاء.

هذا اللبـاس البلغـاري القـروي وأهل المحـلات المتطرفـة في المدن. وبعض حكام البلاد البلقانية يرتدون هذا اللباس المحلي أيضاً.

ولبلغـاريا ملك حكم بلاده إحدى وعشرين سنة بصفته أميراً، وهو «البرنس فرديناند»[1]. ومَنْ أحسن بالمُلك من هذا الرجل الذي خدم أمَّته خـدمـة حقيـقـيـة صادقة. فأحبه الشَّعْب حباً ليس فيـه أي شبهـة، وفي سنة ١٨٨٧م انتخبه مجلس البلغـار الكبـيـر ملكاً على بلغـاريا بعـد أن قاومتـه الدول التي وقَّعت على معـاهدة برلين. وهذا الملك كـان يسعى لترويج بضـائع بلاده، فيرتدي الأقمشة الوطنية التي تُعمل في بلاده مع خشونتها. وكان يحضّ الشعب على ارتدائها، وهذا ما حدثني به البلغاريون الذين يتكلمون اللغة التركية.

وقد قضينا في التفرج مدة غير قليلة. وبعد أن طفنا مقدار ساعات عُدنا إلى المحطَّة، فوجدنا فيها مطعماً خاصاً لشواء اللحم، تناولنا فيه طعام الغداء. ولايفرق في ترتيبه عن مطاعم «الشوَّايين» اليوم في دمشق، وفيه اللبن الرائب المعروف عندنا باللبن. ويسمى هناك «يوغـورت»، وهي كلمـة تركـيـة كانت تستـعـمل أيضـاً في باريس. وفي المساء غادرنا صوفيا إلى أدرنة.

---

(١) ولد سنة ١٨٦٠م، تولى العرش سنة ١٩٠٨، دخل الحرب الأولى مع ألمانيا والنمسة، فلمَّا هُزم، تخلَّى عن العرش لابنه بوريس الثالث سنة ١٩١٨م. وتوفي بعد ذلك بثلاثين عاماً.

جسر مصطفى باشا

ركبنا القطار ووقفنا نودع البلدة الواقعة في أوربا الوسطى. فكنا ننظر إلى صوفيا ونفكر بمغادرتنا أوربا ونحسب الحسابات البعيدة، وهل نعود إلى أوربا ثانية أم لا؟ وعلى غير انتباه أخرجنا المناديل من جيوبنا وجعلنا نلوّح بها إلى أوربا.

وسار بنا القطار يقطع الحقول والقرى، ودخلنا الحدُود التركية في ولاية أدرنة. ولم يختلف معنا منظر السكان. وكأن جميع سكان البلقان متشابهون في اللباس والعادات، ووقوفهم «للتفرج» على القطار.

وصلنا جسر مصطفى باشا، ونزلنا من القطار، ووضعنا حوائجنا عند موظف القطار. واسترحنا قليلاً واتجهنا نحو بلدة الجسر.

وجسر مصطفى باشا مركز قضاء في ولاية أدرنة يبعد عنها إلى الغرب الشمالي ٣٠كيلو متراً. ويقع على ضفة نهر مريج، وقد سمي باسم الجسر الذي هو من أجمل جُسور الدنيا. وقد بناه مصطفى باشا الصدر الأعظم.

نزلنا في المحطّة -كما قلنا- وركبنا عربة وسرنا إلى القصبة التي تبعد مقدار ساعة عن المحطة. «وتفرَّجنا» على جامعها الكبير. وفيها بعض الجوامع الصغيرة، وثكنة عسكرية كبيرة. وفيها مكتب رشدية متوسطة ومدرستان ابتدائيتان: واحدة للذكور، وواحدة للإناث، وخمس مدارس ابتدائية للروم والبلغار فيها، ومنها للذكور ولليهود مكتب ابتدائي خاص. وفيها حديقة عموميّة صغيرة للبلدية. وقد سميت باسم الجسر الآنف الذكر.

وقد زرنا دار الحكومة فرحَّب بنا القائمقام، وفرح بنا لأننا من رعايا الحكومة العثمانية، وكنا في أوربا، وقدَّم لنا الشاي، وودَّعناه وعدنا إلى المحطة. وبعد ساعتين تقريباً وصل القطار، وركبناه متجهين إلى مدينة أدرنة.

أدرنة

اسم مدينة في أوربا التركية، وهي قصبة ولاية بهذا الاسم من أكبر الولايات

العثمانية وأرقاها. وتعتبر المدينة الثانية للبلاد العثمانية. وتقع على بعد ٢٥ كيلو متراً غرب شمالي الآستانة، في موقع يعدُّ من أجمل بقاع الدنيا عند مجتمع ثلاثة أنهر: نهر الطونجة، ونهر المريج، ونهر الأردا. سكانها خليط من الترك والبلغار والروم اليونان واليهود وغيرهم من العناصر الفعالة المكدّة، لأنها بلدة تجارية صناعية زراعية، مركزها المتوسط من أصلح البلاد للتجارة.

وفي هذه الولاية حمامات معدنيَّة مثل حمامات بادن السويسرية، ومحصولها الزراعي يكفيها، ويُصدرونَ منها الزائد إلى الآستانة وأوربا وبلاد البلغار والصرب وغيرها من بلاد البلقان. فيها جوامع وكنائس وأديرة ومدارس أجنبية كثيرة. وفيها مصانع للحرير والصوف، ومصنع حكومي للأسلحة. وجوامعها تزيد عن الأربعين، أكبرها وأجملها جامع السلطان سليم ويسمى السليميَّة[1]، وفيها سرايا قديمة خربة كانت مقراً للسلطان مراد. وحول أدرنة سور قديم مخرب من أكثر الجوانب.

قضينا فيها يومين، ونزلنا في فندق صغير يشبه الخان، والأجرة بسيطة. دفعنا عن كل غرفة «بَشْلُك»، وهو عملة تركية تساوي ثلاثة غروش وسبع بارات ونصف. وركبنا منها صباحاً متجهين إلى الآستانة، وهنا تمَّت معي هذه السياحة.

الآستانة

ركبنا من أدرنة، وسار بنا القطار يقطعُ الحقول والمزارع الجميلة إلى أن بدت لنا إستنبول بمناراتها العالية. ومن الغريب أن ندخل المدينة من باب أدرنة والمحلات التي بعد المدخل من أقذر المحلات التي تُرى في القرى والدور التي مرَّ بها القطار. حيطانها من ألواح القصدير (التنك) الصدئ. ولم أر شبهاً لهذه الدور إلا في زيارتي لقرية إزرع سنة ١٩٣٠. وقد أعطيت ملاحظتي آنذاك لرئيس بلدية الآستانة ونبهتُه إلى لزوم تحسين مدخل الآستانة، هذه العاصمة العظيمة. وقلت: من العار

---

(١) يُنسب إلى السلطان سليم الثاني، بناه عبقريّ العمران العثماني العالمي المهندس المعماري سنان، المتوفى سنة ٩٨٦هـ. دائرة المعارف الإسلامية ١٢/ ٢٢٠ ومابعد.

أن يدخل السائح من أوربا وينظر إلى هذه المناظر المؤذية التي تضر بسمعة الدولة، خصوصاً والآستانة عروسة الشرق.

وقد شكرني آنئذ، ولاأدري هل أصلحوا هذه المحلاَّت أم لم تزل على حالها إلى اليوم. ثم وصلنا إلى أدرنة (قبو).

علاقة موظف الجوازات

كان السفر سنة ١٩١١ لايحتاج إلى جواز (Passport)، ويسميه العوام عندنا (بزابورط). ولذا فلم يسألني أحد في جميع هذه السياحة عن الجواز إلا في الآستانة. وبالرغم من وجود ورقة النفوس التي أبرزتها لم يقتنع الموظف المختص بما في يدي من الأوراق. وشدد بطلب الجواز أو بدفع الجزاء النقدي. ودفعت ليرة عثمانية جزاء نقدياً حتى سمح لي بالدخول بعد أن تأكد أني من سورية، وأن الذين يعرفوني في الآستانة كثيرون، ومنهم نواب دمشق، ويسمَّوْن (مبعوثون).

وما إن تخلّصنا من مأمور الجوازات حتى جاءنا زبانية (الجمرك) صائحين افتحوا هذه (الشنطة) الحقيبة، افتحوا هذا الصندوق، أخرجوا الأشياء من السلّة -الزنبيل- ففتحنا الحقائب وأخرجنا الأشياء من الزنبيل، (وخربطوا) الحوائج بكل فظاظة. وقد أثّرت علينا هذه المعاملة التي لم نرها في أي بلد من بلاد أوربا. وقد مررنا بفرنسا وألمانيا والنمسا والمجر والصرب والبلقان. وكنا نرى من موظفين (الجمرك)، المَكْس، كل لطف وإيناس، خصوصاً في النمسا.

ومع الأسف كان بين موظفي المكس موظف متعجرف، يظهر من حركته أنه يظن كل الناس الذين يدخلون دائرة الجمرك هم من خدامه. فكان يمشي ويتمختر، ويظهر إلى الناس بعين الكبرياء كأنه قائد جيش عظيم ينظر إلى الجنود الذين في معيَّته. ويوجد كثيرون مثله في جميع البلاد الشرقية. يظهر أحدهم أمام الشعب بمظهر السيد الآمر مع أنه مستخدم صغير يعيش من الضرائب التي يدفعها أفراد الشعب إلى صندوق الحكومة. ولكن التربية الأساسية التي يتلقاها الموظف في داره لها تأثير كبير على الشخص. وهؤلاء الموظفون ليسوا في دوائر المكوس فقط، بل

يوجد منهم في جميع الدوائر الحكومية. والموظف الذي يظن نفسه محترماً في عيون الناس عندما يظهر بهذا المظهر هو في الحقيقة عرضة للهزء والسخرية، خصوصاً في نظر رفقائه وزملائه، أجارنا الله من الكبرياء.

والوظيفة في الدولة صنعة كبقية الصناعات. فالموظف المتمرّن ولو كان لا يحمل أي شهادة يمكنه أن يقوم بعمله أحسن من حامل شهادة دكتوراه لم يتمرن.

وعند الدول لكل وظيفة قواعد وأُصُول. وكلُّها مسجلّةَ مكتوبة لا يتقدم الموظف إلى عمله قبل أن يدرس القواعد التي يقوم عليها العمل. ومن الأسف كانت ولم تزل أكثردوائر الحكومة العربية تعطي الوظيفة للموظف، وتترك حبله على غاربه، فيتّكل على العوانية، وويل للموظف الجاهل.

شباب العرب في الآستانة

بينما كنا سائرين في (البك أوغلي) وإذ بالصديق يوسف مخيبر حيدر، الملقب عند رفاقه بـ«مظمطه جي»، يُلاقينا ويرحّب بنا ويدعونا إلى زيارة المنتدى العربي، ليعرفني على عبد الكريم الخليل، رئيس النادي، وعلى أعضائه. وهنا بدأ يحدثنا عن التوتر القائم بين الشبيبة العربية والتركية من طلاب المدارس العالية، ويحثّنا على مقاومة الأتراك ويُخبرنا عن الوقائع التي وقعت بين العنصرين، وكيف أحرق العرب إدارة جريدة تركية لطعنها بالعنصر العربي الكريم، إلى آخر ما هنالك من أخبار تُثير النفوس.

ومع علمنا بميول الأخ مخيبر، وانغماسه بالكيف والحظ، لأنه كان أشهر زير نساء بين رفاقه، أثَّر علينا كلامه وتواعدنا معه على زيارة المنتدى في اليوم التالي. وسنأتي في مقال آخر على وصف المنتدى وتأسيسه وما قام به من الأعمال. وقد فهمنا أثناء هذه الزيارة للآستانة مقدار الاستياء من العناصر التركية الحاكمة، ليس عند العرب، بل عند جميع العناصر الأخرى كالأرنؤوط والروم والأرمن وغيرهم من العناصر التركية.

ولإذكاء الروح التركية، كان شبان الأتراك يقومون بالدعايات اللازمة في الجرائد وتمثيل المسرحيات حتى في المدارس الابتدائية.

ولهذا صار العرب يمثلون الروايات العربية. وهذه رواية امرئ القيس يقوم بتمثيلها بعض طلاب العرب في مدارس إستنبول العالية: وهم الشهيد المرحوم سيف الدين الخطيب (دمشق)، وعادل الطايع وزكي التميمي (فلسطين) وبهجت مردم بك (دمشق)، وعلي أبو السُّعود ومسلم العطار (دمشق)، وكامل الحكيم ووصفي الجندي (حمص)، وجميل الحسني ومعين الماضي (فلسطين)، وتوفيق هولو (بعلبك).

ولما قاموا بتمثيل هذه الرواية دعوا إليها وجوه البلاد من جميع العناصر وهيئة الحكومة، فأحدثت ضجة عظيمة وكتبت عنها الجرائد، وأحدثت ردَّ فعلٍ عظيم عند الشبيبة التركية. وقد درَّتْ عليهم أرباحاً طائلة لأنهم مثلوها مرتين إحداهما في الزهرة، والثانية في (الديوان يولي). وقد جمعوا من ريع الأولى (٥٦٠) ليرة عثمانية، ومن الثانية (٨٠٠)ليرة. وتحمَّس نواب العرب وتبرعوا بمبالغ لابأس بها لهذه الروايات. وقد دفع طالب باشا النقيب[1] من البصرة ثمن تذكرة لوج ثلاثين ليرة إنكليزية.

وبعد ذلك بدأت المنازعات بين شباب العنصرين التركي والعربي. وصار لايجتمع عربي وتركي من الطلاب في المدارس العالية حتى التجهيزية إلا ويجري بينهما حوار وجدل ينتهي بخصومة ونفور على الأكثر. وكلما مرَّ الوقت كانت الأحقاد تتأجج في الصدور. ولم تكن الدولة العثمانية تعنى بإرسال البعثات إلى الغرب، اللهم إلا العسكرية التي كانت ترسل إلى ألمانيا. وأول بعثة أرسلت إلى فرنسا كانت بعد إعلان الدستور الثاني عام١٩١٠. ولما كانت اللغة السائدة في العاصمة بين اللغات الأوربية هي اللغة الفرنسية. لذلك فقد كانت أول بعثة ذهبت

(١) طالب بن رجب، زعيم سياسي عراقي من أعيان البصرة، عين حاكماً على الأحساء، وكاد يُعيَّن على عرش العراق بدل فيصل، ومات في ظروف غامضة سنة١٩٢٩ عن ٦٧سنة.

من تركيا إلى فرنسا مؤلفة من ٣١طالباً، على النحو التالي: ٢٥تركياً، ٣أرمن، ٢عرب، ١روم. وقد فاز هؤلاء في الفحص الذي جرى للإيفاد. واللذان فازا من العرب هما المرحوم رستم حيدر (بعلبك) رفيق التميمي (فلسطي)، وكلاهما من طلاب المكتب الملكي. وقد ذهبا إلى باريز فدخلا أولاً مدرسة سانت لويس الثانوية ليتمكّنا من اللغة الفرنسية. وبعد حصولهما على شهادتها دخلا جامعة الصوربون ونالا شهادتها أيضاً.

وفي تلك الأثناء كانت النهضة العلمية في البلاد في بدئها. وكانت بيروت أول البلاد العربية التي انتبهت إلى هذه الناحية، فأرسلت بعثة من الشبان هم: محمد المحمصاني، توفيق الناطور، عبد الغني العريسي، توفيق فايد، اثنان منهما ذهبا شهيدين من شهداء القوميّة العربية[1]. وسوف يجيء البحث عنهما. ومن هذه البعثات ومن هؤلاء الشبان بدأت اليقظة تتضح وتظهر وتتجسم، حتى مدت شرارة العروبة بالنار. ومن هذه الشرارة اشتعلت الروح الوطنية.

مساجد الآستانة وزواياها

في الآستانة حسب ماتذكر التواريخ ٨٢٤مسجداً، ٥٠٠منها داخل البلدة، ٣٢٤خارج الضواحي. وأشهر هذه المساجد هو آيا صوفيا. وتعدُّ النقطة التي يقوم فيها هذا المسجد مركز البلدة المتوسط. وإليكم تاريخه:

آجيا صوفيا Agia Sophia كلمتان يونانيتان معناهما الحكمة المقدسة، ويسميه الفرنسيون سنت صوفي: Sainte Sophia، وهو اسم جامع في الآستانة من أعظم جوامع الدنيا. كان في أول أمره كنيسة بناها الملك قسطنطين الكبير سنة٣٢٥للميلاد وأسماها على اسم الحكمة الإلهية، ووسعها ابنه. واحترقت سنة٥٣٢ للميلاد، فجدُّد بناءها الإمبراطور لوستنانوس سنة ٥٣٧م[2]، وهو البناء الباقي الآن. وسنة ١٤٥٣ ميلادية فتح السلطان محمَّد الفاتح العثماني الآستانة، وجعل هذه جامعاً.

---

(١) هما محمَّد المحمصاني، وعبد الغني العريسي.

(٢) في الأصل ٥٤٧، وهوسهو.

وفي زمن السلطان مراد الثالث وقع زلزال شديد أثر على جدرانها. فبنى السلطان خلف جدرانها التي أوهنها الزلزال عضائد لتسند الجدران، لاتزال موجودة حتى الآن. وقد شوّهت منظر الجدران الخارجي. وقد أنشؤوا حول الجامع أربع مآذن. ومدخله فسيح مزيَّن بالفسيفساء المحلاَّة بالذهب. في وسطه باب نحاسي كبير جداً فيه نقوش جميلة، وقبة مبنية على أعمدة من الرخام، وهي كبيرة جداً مزيَّنة أحسن زينة. وقد كان محيط القبَّة مزيناً بالفسيفساء، وفيها من الصور مايشير إلى بعض ما جاء في التوراة والإنجيل من الحوادث التاريخية، فطُليت بعد الفتح بدهان أصفر ذهبي ستراً لهذه الصور لحرمة ذلك عند المسلمين. وقد كتبتْ على جوانبها بخط عربي جميل أسماء الله تعالى والنبي صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي[1]، رضي الله عنهم. وقد وضعوا في الجهة القبلية منبراً للخطيب. وفي الجهة الغربية أقاموا محلاً خاصاً لصلاة السُّلطان. والخلاصة أن في هذا المسجد من الأعمدة والنقوش ما يُحيِّر فكر الإنسان.

وبين مساجد الآستانة مساجد جميلة عمرها السلاطين العظام، لايمكن وصفها بهذه المقالة العارضة، لأن وصف جوامع الآستانة وصورها يحتاج إلى كتاب ضخم. ونكتفي هنا بهذه الإلمامة البسيطة تلميحاً عن أهمية مساجد الآستانة.

والأتراك متديّنون طبعاً. وإذا قلت ذلك فإني أعني أكثرية الشعب التركي، لا الشبيبة الحاكمة في ذلك الوقت، على الخصوص الفلاَّح التركي فإنه من أكثر الناس تديناً، وينظر إلى ابن العرب نظرة الاحترام والإعظام ويتبرك بالتمسُّح به، بعكس الشبيبة المثقَّفة التي تضمر الحقد للعرب. وسوف أذكر فصولاً عن هذا البغض الذي لمستُهُ بيدي وسمعته بأذني أو حدَّثني عنه ثقاة لايكذبون.

---

(١) كتبها الخطاط العثماني «بجاقجي زادة مصطفى جلبي» في عهد السلطان مُراد الرابع، وقد بلغ طول حرف الألف مثلاً عشرة أمتار، ثم توالت الإصلاحات عليه، وأخيراً وفي سنة ١٩٣٥م، منع مصطفى كمال الصلاة فيه وحوَّله إلى متحف. دائرة المعارف الإسلامية ٣/ ١٧١.

ومن شدة اعتقاد الشعب التركي البسيط بالشيوخ فقد أكثر هؤلاء من الزوايات والتكايا. كلٌّ فرقة منهم تسمي تكيَّتها أو زاويتها باسمها. والطرق كثيرة أشهرها تكية المولوية، وشيخها شلبي (جلبي) أفندي، وهو الذي يقلّد السلطان العثماني السيف في مراسم التتويج. ويأتي بعدهم البكداشية والقادرية وغيرهم.

وفي الآستانة على ما يقول شمس الدين سامي في أعلامه أكثر من ٣٠٠تكية، أشهرها: طوب قبو مولويخانة سي، وغلطة مولويخانة سي، وطوب قبو قادري تكية سي. كما أن هناك كثيراً من قبور الأولياء. وفي خارج الآستانة مقام جليل للصحابي أبي أيوب الأنصاري. ويؤمُّ الشعب هذه التكايا ويتبرك بها.

جدّي وعبد المجيد الأيوبي

على ذكر التكايا والمزارات، حدثني جدي لوالدتي أمين العلمي الكيلار أميني[١] قال: في زمن السلطان عبد العزيز[٢] تشكلت قطعة عسكرية أسموها (سلاح شور)، وعدد أفرادها ستة من كل ولاية، يؤخذون من أبناء الوجهاء في مركز الولايات. وكل ولاية يرتدي أبناء من أفراد هذه الفرقة اللباس المحلي الذي يرتديه سكانها، شريطة أن يكون اللباس مزركشاً بالقصب. أما عمل أفراد الفرقة فهو الوقوف خلف السلطان عند جُلوسه للحكم، فكان يصيب أبناء كل ولاية ساعتين في كل ستة وثلاثين يوماً. ولما كان الأفراد المذكورون من أبناء الأغنياء ومن أجمل شبان الولاية، كانت حياتهم التي يقضونها حياة مرح وسرور.

ثم أضاف جدّي: كنتُ يوماً في السوق الكبير، ويسمونه بيوك شارشي (جارسي) ذاهباً لإصلاح بند السيف عند أحد العقادين. ولم أكن أُحسن اللغة التركية. ورأيت من العقّاد فظاظةً خلاف عادة الإستنبوليين من الباعة، فتكلمت بجملة أثّرت عليه فشتمني، فصفعته صفعة قوية، ولم أعد أعي ما أعمل، فسحبت

(١) يعني أمين المخازن

(٢) عبد العزيز بن محمود الثاني، تولى العرش في حزيران سنة١٨٦١م وعزل في أيار سنة١٨٧٦م، ثم قتل بعد أيام، وهو عم السلطان عبد الحميد الثاني.

السيف وأردتُ ضربه، فرمى نفسه خارج الحانوت وفرَّ من أمامي فلحقته. وبالرغم من أنه شاب يُحسن الركض فإني أدركته لكوني شاباً أيضاً، وضربته بالسيف فجرحته في عضده. وما كدتُ أرجع إلى نفسي حتى رأيت جميع السوق فرغ من الناس، والباعة. ومنهم من أغلق حانوته وفر، ومنهم فرَّ بدون إغلاق.

وقد أثر هذا المنظر عليَّ، ورجع (عقل الرحمن لرأسي)، وتصورت العاقبة الوخيمة التي ستنزل برأسي، فجعلت أصيح: يا كلب يا ابن الكلب أتشتم (السلاحشور) عبد المجيد. وكان عبد المجيد أفندي الأيوبي رفيقي في الفرقة، ويشبهني تماماً، ويرتدي اللباس الذي أرتديه. وغادرت السوق وأنا أنادي: أنا السلاحشور عبد المجيد، أنا السلاحشور عبد المجيد.

وفي اليوم الثاني وصل تقرير (الضبطية)، وهم رجال الأمن آنذاك مثل الدرك اليوم، إلى السراي، ورفع لمقام السلطان، فصدرت الإرادة السنية بنفي عبد المجيد أفندي الأيوبي إلى دمشق. ولم يمض على صدور الإرادة السنية بضع ساعات حتى كان عبد المجيد أفندي في إحدى البواخر المسافرة إلى بيروت. وسافر (مسركناً) منفياً. وبعد مدة أتاني منه كتاب يطلب مني البحث عن أسباب نفيه وإعلامه بها. فكتبت له الحالة التي وقعت معي، وقلت له: إني لما ضربت الرجل بالسيف، ورأيت الدم يسيل من عضده تنبهت لجرمي. وجعلت أنادي باسمك ظناً مني أنَّ جدك الولي صاحب المزار أبو أيوب الأنصاري يمكنه أن يحميك من شر هذا العمل، ويخلصني منه، وإذ به لا يضرّ ولا ينفع، ميت من جملة الأموات.

قال جدي: وبعد عودة الأيوبي إلى دمشق بقوا مدة طويلة يتندَّرون بهذه القضية الغريبة.

ما بين همايون

(ما بين) كلمة عربية أخذها الأتراك اسماً للغرفة التي تقع في الدار ما بين الحرم والسلملك. فتستعمل غرفة الاستقبال من قبل النساء والرجال. ومن هنا

أخذوها اسماً للدائرة الملكية التي يستقبل فيها السلطان وزراءه، وغيرهم من المراجعين، فيقولون: ما بين همايون، وقد يختصرها البعض فيقولون (ما بين) ومع تمادي الزمان أصبحت علماً على مقر الوزارة العثمانية.

خواطر قبل الوداع

ولقد زرت ببيوك آطه والكاغدخانه والشيشلي، وكثيراً من المتنزهات أثناء إقامتي في الآستانة. والحق أن مناظرها من أجمل الدنيا في البر والبحر. وكان ينقصها التجميل. فالآستانة كانت -وأظنها لم تزل- مثلما خلقها الله سبحانه وتعالى ليس ليد الإنسان أي أثر في تجميلها مثل الربوة ودمر في دمشق. وإذا وُجد مقهى للاستراحة فهو على الطراز الشرقي الذي يلذ الجلوس فيه للأجانب من السياح، بعكس المثقفين من الشبان العثمانيين فإنَّهم جميعاً كانوا يشكون من هذه المقاهي الخاصة في البلاد العثمانية التي عندما يدخلها الإنسان في أي وقت يجد فيها الزبائن جالسين على الكراسي مسترخين يشربون (النراجيل) ويلعبون الورق والدومنو.

أما في الليل فالتياترويات تملأ البلدة خصوصاً في جهة الغلطة. فالريختم من أوله إلى آخره مملوء بالمسارح، وكلها مفتَّحة الأبواب من بعد الغروب إلى منتصف الليل. وفيها الأجواق الموسيقية وكلها شرقية. والراقصات التركيات منهن قلَّة، والأكثرية من الروم والمجر وبقية الملل والنحل. ولابد من الشجار في أواخر الليل بين «الزبائن» لأن الرؤوس تكون قد امتلأت آنذاك، ودار بها الغرام أو الانتقام و«هات يا عربدة، وهات يا بوليس». ولابد في كل ليلة من أن يزور «كركون الغلطة» عشرات «القبضايات -كلهان بك».

وكان رجال الشرطة في الآستانة على أقسام، منهم المثقف اللطيف، واتصاله دائماً بالأجانب الأوربيين. والرجل الفظ واتصاله دائماً بطبقة «الزكرت - كلهان بك» كما يسمونهم. وهؤلاء كثيراً ما تراهم في عراك مع أبناء الفتوة يرتدون

السروال أو «البنطلون»، ومن فوقه «الجاكيت»، فيدخلون كُمّاً في إحدى أيديهم، ويتركون اليد الأخرى خارج الكم، بحيث يلقون بالطرف الثاني من «الجاكيت» على كتفهم، ومن هؤلاء تشكل فرق الإطفائية المتطوعة.

يانغين وار[1]: الإطفائية

بنايات الآستانة مشيَّدة جميعها من الأخشاب، خشية الزلازل. وهي قابلة للحريق بسرعة. وفي الآستانة منارات خاصة لرصد الحرائق التي تقع في الأحياء. وفيها دائماً موظفون خصوُصيون يعرفون محلاَّت الآستانة بالدقة. وعندما يقعُ حريق في مكان ما يشعرون دائرة الشرطة بالتلفون. ولا يمرُّ الإنسان في محلَّة ما إلا ويسمع كلمة «يانغين وار»، أي يوجد حريق. وكان في البلديات مضخَّات «لاأراكم الله مكروهاً»، بالاسم مضخة، وبالفعل «حقنة» مضخات لاتصل المياه من أفواه «برابيشها» الخراطيم إلى أعلى من خمسة عشر متراً، لأن قوة الدَفع فيها تُحرَّك بآلة ضاغطة يحركها أربعة أو ستة رجال.

وهذه المضخات موجودة في دوائر البلديات، ولها موظفون خصوصيون. عندما يصل خبر الحريق في محلَّةٍ ما يسرع أفراد «الكلهان بك -الزكرت» الذين ذكرناهم في البلديات ويحملون المضخات على ظهورهم، ويركضون وهم يصرخون بأعلى أصواتهم (يانغين وار) ولا يصلون إلى محل الحريق حتى تكون نصف المحلة احترقت. وهناك ينفردون للإطفاء، فمنهم من يُعبئ الماء، ومنهم من يدير الخراطيم ويحرك الآلة، والبقية يشتغلون بالنهب، وهم شركاء الذين يعملون في الإطفاء، بحيث يتقاسمون المنهوبات التي أخذها رفقاؤهم بعد إخماد النيران. وهذه المضخات كان منها في الولايات واحدة أو اثنتان في كل مركز ولاية.

وكان في دمشق عند حريق الأموي مضخَّتان لم تكن تصل المياه من خراطيمها (إلى رأس العمد، ولم تفعل هذه المضخات أي شيء تجاه ذلك الحريق، فذهب المسجد الأموي طعمة للنيران. وكانت جميع حيطانه مزدانة بالفسيفساء التي

(١) yangin

ذهب بها الحريق. وهذان الرسمان من الرسوم الزاهية مضى عليها عصور عديدة، وهي في جدتها. ولم يزل في الحائط الشمالي وفي مدخل المسجد من ناحية الغرب وفي حائط الرواق الغربي إلى اليوم بعض هذه الرسوم التي تحيِّر الفكر الإنساني.

وإنني لم أزل أذكر أنني كنت في ذلك العهد في إبان طفولتي، وكنت أذهب إلى المسجد لجمع قطع الزجاج الصغيرة الملونة التي تشكل هذه الرسوم. وفيها كثير من القطع المدهونة بماء الذهب، فكنا نجمعها ونلعب بها.

وقد تشكلت لجنة لجمع الإعانات، وإعادة بناء المسجد، سأبحث عنها في عدد قادم إن شاء الله[1].

وعندما دخلتُ في مكتب عنبر ضُرِب البوق في إحدى الليالي وكنَّا نياماً فصحونا على نداءات متتالية: يانغين وار! يانغين وار! (حريق! حريق!).

نهض كبار الطلاب، وهرعوا بلباس النوم إلى المضخة الموجودة في مدخل المكتب، وحملوها إلى مكان الحريق في المطبخ حيث أطفؤوه. وبعد ثلاث ساعات تقريباً وصلت فرقة «الإطفائية» البلدية، ومعها مضخة على أربع عجلات يدفعها الناس، وهم يصيحون: حريقة! حريقة!

وجرت العادة يومئذ إذا وقع حريق، أن يخرج موظف الإطفاء في البلدية إلى الساحة، وينادي «حريقة! حريقة!». وكان الرعاع المعروفون باسم: «بابا حسن» أو «كلهان بك» بالتركية، يجتمعون عادة قرب سوق الخيل وساحة المرجة وسوق علي باشا وسوق السنجقدار وزقاق رامي. فعندما يسمعون النداء، يتراكضون إلى البلدية، حتى إذا أصبح عددهم كافياً، حملوا المضخة، أو جرُّوها على العربة، إلى مكان الحريق. وكانوا يفعلون ذلك حباً بالنهب. وليس بينهم من يتقاضى «إكرامية» من صاحب المحل المحروق سوى رئيس الإطفائية.

نهاية القسم الأول

---

(١) آخر ماوجد في الوثيقة ٨ من الملف٧٩، وبقية صفحات الدفتر (الوثيقة) كلّها بيضاء...



جميل بك الألشي الحاجب لجلالة الملك المعظم

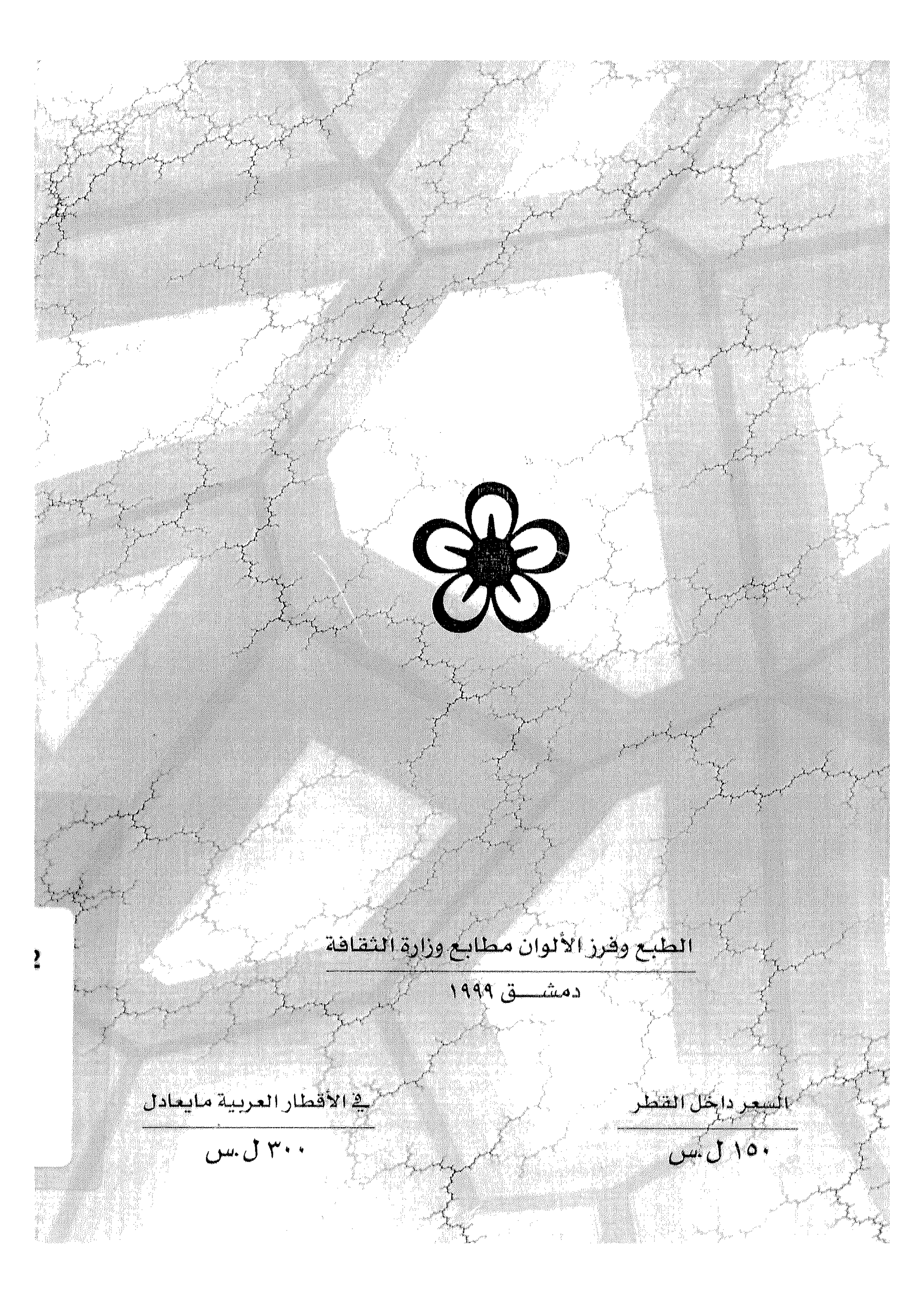
فهرس القسم الأول

	الصفحة
مقدمة التحقيق	٣
البارودي في سطور	٧
مؤلفاته وأعماله	٩

القسم الأول
مذكرات البارودي

طفولتي الأولى	٢٣
مكتب عنبر	٤٣
العرب والأتراك	٦١
حسين عوني وأنا	٦٧
الانقلاب العثماني	٧٥
حكاية الشيخ رشيد رضا في دمشق	٨٣
السلطان عبد الحميد	٩٥
حط بالخرج	٩٩
في مفترق الطرق	١٠٣
مجتمع الخاصة في دمشق	١٢٣
وداعاً يا دمشق	١٤١
باريس	١٩١

٣٠٠٠ط١/١٠/١٩٩٩



الطبع وفرز الألوان مطابع وزارة الثقافة

دمشـــق ١٩٩٩

السعر داخل القطر

١٥٠ ل.س

في الأقطار العربية مايعادل

٣٠٠ ل.س